شيلينا زهرة جان محمد

حب تحت الحجاب

مكتبة الرمحي أحمد الكتاب ٤٧

شيلينا زهرة جان محمد

حب تحت الحجاب

ترجمة

سلام شغري

مكتبة الرمحي أحمد الكتاب ٤٧

http://t.me/ktabpdf

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

إلى أمي وأبي
من أجل كل شيء

إلى مريم وآمنة
مستقبلنا

إليكَ
أنتَ تعلم لماذا.

«الحب هو الجواب الشافي لمعظم الأسئلة تقريبًا. مثل: لماذا نحن هنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ ولماذا تبدو الأمور بهذه الصعوبة؟»

جاك جونسون

«وليس للعشق أمر مع
«الحواس الخمس» و«الجهات الست»،
وليس له من مقصودٍ
سوى جذب الحبيب.
ولعل أمرًا يصل فيما بعد،
فيتم البَوْح بالأسرار التي ينبغي أن تقال.
وذلك بيان يكون أقرب
من هذه الكنايات الدقيقة المستترة.
وليس للسر من شريك
إلا العالِم بالسر،
والسر في أذن المنكر
لا يكون سرًّا.»

الرومي (المثنوي ٦: ٥-٨)

مكتبة الرمحي أحمد

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾

(الأنعام: ٩٨)

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الروم: ٢١)

المحتويات

مقدمة ١١
تمهيد ١٥

الباب الأول: المرة الأولى ١٧
يوم موفق في لبس الحجاب ١٨
فطائر السمبوسك ٢٨
ابنة الرجل الصالح ٤٣

الباب الثاني: الارتباط ٥٣
البراءة ٥٤
الخبز ٦٩
التداخل ٧٨

الباب الثالث: عملية إعداد الأميرة ٨٩
السيرة الذاتية ٩٠
فالتناين لذيذ ١٠٠
الرجال من المريخ ١٠٧

الباب الرابع: التواصل الإلهي ١١٧
الانتظار ١١٨

كل الأشياء تتغير ١٣٠
الصاعقة ١٤٢

الباب الخامس: لا شيء مما سبق ١٥١
المراحل الست للإشفاق على الذات ١٥٢
أنت لا أنا ١٦٢
الحجاب يحتل الساحة ١٧٥

الباب السادس: الحجاب كرمز ١٨٩
ما الموجود تحت الحجاب؟ ١٩٠
تقييم بناءً على الحجاب ٢٠٢
ضد القمع ٢١٣

الباب السابع: الحب ٢١٩
من نفس واحدة، خلقنا زوجَين ٢٢٠
أساسيات الحب الثلاث: المنهج - المسلك - المعنى ٢٤٤
النظرية الكمية ٢٦٠

الباب الثامن: أزمة عالمية ٢٦٧
نظرة من فوق الرف ٢٦٨
مريم الرائعة ٢٨٩
نصفي الآخر ٣٠١

نهاية أم بداية ٣١٣
شكر وتقدير ٣١٧

مقدمة

كان الحب في قاموسي يصف حالة دنيوية لذيذة، مغوية ومتسامية. الحب ملهِم الأعمال العظيمة والاختيارات الغريبة والعواقب التي لا تفسير لها. إنه بَوْصَلة الحياة، وهو الذي يُسعد القلوب أو يحطمها. إنه الحَكَم الفصل بين الحياة والموت، وهو ما يربط الروح بالجسد ويوحدهما بالنور. إنه جوهر النفس البشرية.

إن مسألة الحب محسومة ومقبولة لدى كل الحضارات، لكن الاختلاف يكمن في من نحب أو ماذا (الشخص أو الشيء الذي هو موضع الحب). تتصارع الحضارات على الحبيب نفسه، وتختلف حول الطرق التي يجب أن يسلكها الحب، لكن الحب - الحب العظيم - هو نفسه في كل مكان، إنه الحب الكامن في أعماق الروح والتقاليد، وهو نفسه الحب الذي يملأ المجلدات بالحزن ويَنظِم القصائد بكل اللغات منذ بداية الأزمنة. في أيامنا هذه، التي لا يصدق المرء فيها الأشياء إلا إذا رآها رأي العين، ولمسها لمس اليد، وحيث تبدو المعطيات العلمية هي السبيل الوحيد للحقيقة، وحيث يتم قياس وحساب كل شيء، يمد الحب لسانه متحديًا كل القيود، ويرقص فرحًا أمام عيون البشر وهو يغيظهم ويمازحهم، واعدًا إياهم بلذة المجهول.

لقد فقدَ الحب في أيامنا قيمته الحقيقية، وأضعفه السحر والجري وراء الرومانسية. صرنا نتوقع منه أن يجعلنا في حالة من النشوة الدائمة، ونشعر بالخيبة والخيانة حين تهدأ فورة الأدرينالين وتتحول إلى حب مريح أنيس. لقد غَلَّلْنا الحب باختصار نفوذه وحصره في حلبات المطاعم وتناول الوجبات على ضوء الشموع أو السير في ضوء القمر. عندما نُعبِّر عن الحب في العلن فإننا نحط من قيمته. أتمنى أن نتمكن من استعادة الحب واعتباره فضيلة ذات أبعاد واسعة، عظيمة التأثير.

نعلم أن الحب يمكن أن يربط ما بين الأصدقاء والمرشدين والأهل والأشخاص الذين نعيش بينهم. وهو يحتاج إلى الصبر والإخلاص ونكران الذات. وقد يشعر البعض، مثلي، أن الحب يربطهم بالخالق عز وجل، الذي لا يحويه مكان أو يجري عليه زمان، لكنه ببساطة هو.

إن احتمال أن يطرح المسلم مسألة الحب علنًا هو احتمال صغير جدًّا، لكنَّ المسلمين، مثلهم مثل غيرهم، تسيطر عليهم فكرة الحب. وفي الحقيقة فإن المسلمين والمسلمات يصرفون جزءًا كبيرًا من وقتهم في البحث عن الشريك. إن مسألة العثور على شريك مناسب مسألة حساسة جدًّا في نسيج الكيان المسلم، لدرجة أن الجميع يحق لهم التدخل فيها من آباء وإخوة وعمات وخالات وأعمام وأخوال وأئمة مساجد، وحتى الجيران.

وتحت تلك الأوشحة الشفافة التي ترتديها المسلمات، توجد قلوب خفاقة، وأحلام بالحب، وخيال مفعم بالقصص الخيالية والفرسان والنهايات السعيدة. وتحت تلك العناوين المُضلِّلة عن الإرهاب والدمار التي تُنسب إلى الإسلام دومًا، هناك المسلمون، وهم بشر عاديون، يشبهون الآخرين في

امتلاكهم ذلك الشعور الذي يربط بين الروحي والمادي في حياتنا، الشعور الذي ندعوه الحب.

لدى المسلمات قصص كثيرة يستطعن روايتها، على الرغم من أن بعضها مخيف. فالمعاناة والاضطهاد والإساءات التي تتعرض لها النساء تحت ستار الدين، والتي أتت في الحقيقة من التقاليد والسلطة، لا يجوز السكوت عنها ويجب أن تتوقف. وشعوري بالحزن مضاعف، إذ إنني أشاركهن الألم كأخوات لي في الدين من ناحية، ومن ناحية أخرى أتألم من الطريقة التي استُغل بها الدين ليخدم أهدافًا في غاية الوحشية.

لقد ظلت الحكايات الشبيهة بحكايتي طي الكتمان، لأنها لا تتناسب والأفكار النمطية السائدة عن القمع الذي يمارسه الإسلام أو لدى الأشخاص الرافضين لتعاليمه. لكن هذه الحكايات مهمة جدًّا لتعريف الناس على حقيقة المرأة المسلمة. فليست كل المسلمات عُرضة للزواج الإجباري أو الخطف والأَسْر. إننا لسنا كائنات ضحلة مختبئات تحت الأوشحة السوداء؛ فكثير من المسلمات من أمثالي يجدن الإسلام إيجابيًّا ومحررًا ومستنهضًا. نحن نحب حياتنا بكل ما فيها. إن خطابي موجَّه إلى كل المسلمات لكي يعود المرح والأمل والإنسانية وتكون جزءًا من حكايتنا.

هناك مسلمات من كل الأشكال والألوان والنكهات، وليست قصتي سوى خبرة امرأة واحدة فقط. تطرح قصتي مشاعر الكثير من المسلمين، رجالًا ونساءً، وآمالهم، ومشاعر أناس من أديان ومذاهب أخرى، تجمع بينهم جميعًا عملية البحث عن الحب بما فيها من أخطار وخيبات ومُتع.

إن البحث عن الحب هو رحلة العثور على أشياء مختلفة كثيرة، فهو بحث عن الشريك والرفيق وبحث عن المتعة والشاعرية. إنه بحث أيضًا عن شخص

يدلل الآخر ويرعاه ويستمتع برعايته في الوقت عينه. إنه بحث عن المعنى والمعرفة والإنجاز ولحظة التقدير أو هو البحث عن الخلود. يمكن للحب أن يكون فرارًا من المادي إلى الروحي أو من الذهني إلى الجسدي. إن البحث عن الحب هو رحلة جدية تكشف للمرء معنى الإنسانية والمشاركة.

تمهيد

تحت هذا الحجاب مفاجأة، إنها قصتي التي أود أن أرويها لكم، لكن يجب أن تَعِدوني أولًا أنكم ستُفشون السر. فإن تجرأتُ أنا على سرد حكايتي فهل ستجرئين بعدها يا تُرى على مصادقتي؟

حجابي وردي، بلون الغروب في أبريل أو بلون وردة غسق صيفية، قطعة حريرية طويلة منسابة يتلاشى لونها ليصبح أرجوانيًّا جريئًا يُذكرني بالمطرَّزات الملكية والاكتشافات المقدسة.

حجابي معطَّر برائحة البخور التي تحيط بي حيثما ذهبت، رائحة ناعمة لكنها أخَّاذة.

قد يكون من الأفضل أن أحكي هذه القصة ونحن نتناول فنجانًا من القهوة أو الكابوتشينو - لي، من دون سكَّر من فضلك، لأننا سننفعل ونضحك كثيرًا ولا أريد للسكَّر أن يزيد من انفعالنا. وعندما تزداد الحماسة يجب أن نقبض على أكوابنا بسعادة أو خوف، وأن تجحظ عيوننا من غرابة القصة كلها، مثل مراهقتين في سهرة بنات. وعندما نصل إلى الجزء المحزن من القصة يمكننا أن نُنَكس عيوننا وننظر في السائل الأسود ونرشف منه بكآبة.

يجب أن نتناول بعض البسكويت أيضًا، بسكويتًا مغطى بالشوكولاتة البيضاء والبندق، ويجب أن يكون للبسكوتة شكل قلب. سأبتسم بشقاوة عندما تطلبينها من النادل، لكنني لن أقول لكِ لماذا أبتسم، ليس الآن على الأقل، إذ يجب أن تكون لكِ أنت أيضًا لحظة خاصة مع البسكويت. يمكننا أن نقارن ملاحظاتنا، وذَكِّريني أن آخُذ نظارتي الشمسية وعلبتها عندما نغادر.

هل تساءلت يومًا عما يدور في بال المرأة المسلمة التي تسير بمحاذاتك في الشارع؟ أنا مختلفة تمامًا عن النساء اللواتي يظهرن في الجرائد والتلفزيونات: فأنا لا أرتدي عباءة سوداء أو نقابًا، ولا أعيش في شارع به مسجد، بل أعيش في شارع راقٍ تَحُفُّ به الأشجار من الجانبين. وأنا لست مكبوتة أو مضطهدة، بل إن البعض يجدني جريئة بعض الشيء، لدرجة أنهم يخافون مني. أعتقد أن هذا مضحك، أليس كذلك؟

أريدكم أن تدخلوا عالمي، عالم امرأة بريطانية آسيوية مسلمة. أحيانًا يكون من الصعب شق طريق لكِ بين عدد من الثقافات والخلفيات التاريخية والأفكار المختلفة. فأنا لست آسيوية بالمعنى المعروف للآسيويين، ولست مسلمة كما تتخيلون المسلمين، وأنا لا أتناسب مع أي صندوق يحاول الآخرون تعليبي فيه.

هذه القصة هي قصة عثوري على نفسي وعلى ديني وعلى حبي، والأهم من ذلك هي كيف تعلمت أن أكون أنا.

الباب الأول

المرة الأولى

يوم موفق في لبس الحجاب

كانت فطائر السمبوسك تُقلى في المطبخ، وكان لونها يتدرج بين البرونزي الجميل والبني المحترق. استحوذت المقلاة الضخمة بزيتها الفوار على اهتمام أمي التي لفَّت شعرها بمنشفة قديمة، بينما انصبَّ تفكيرها كله على الزوار الذين كانوا على وشك الوصول. إنهم ضيوف مهمُّون، بل ربما يكونون أهم ضيوف يزورون بيتنا حتى الآن.

رنَّ جرس الباب، فطُردْت إلى الطابق العلوي، وبدأت حركة سريعة مضطربة تعم البيت؛ فرُتبت الوسائد وضُبطت الستائر وصفق باب المطبخ بسرعة. أما أبي فهوجم بجوقة من الأصوات النشاز الصارخة: «لقد وصلوا! لقد وصلوا! افتح الباب!» وفجأة خيَّم الصمت على البيت واشرأبَّت الزنابق في غرفة الجلوس باتزان عجيب. تمشَّى أبي برزانة إلى الباب الأمامي وفتحه، ليستقبل الرجل الذي قد يكون صِهْر المستقبل.

هذه هي المرة الأولى التي نستقبل بها – أنا وعائلتي – أحد الخطَّاب. أما المعضلة الكبرى فكانت في اختيار الملابس التي أرتديها للمناسبة؛ إذ كان عليَّ أن أبدو جذابة لأعجب العريس المنتظر، وعلى الملابس أن تكون، في الوقت نفسه، محتشمة وبسيطة لتعجب عائلة العريس.

تبعثرت محتويات درج حجاباتي على أرض غرفة النوم بفوضى ملونة، فشكلت كومةً من الوردي والأرجواني والأزرق والأخضر. وقد جُربت أحجبتي كلها بالترتيب، وثُبتت بعناية، ودُرست من حيث جمالها وتناسبها مع وجهي، وأخيرًا وقع الاختيار على حجاب من الحرير الوردي الغامق. كان اللون ناعمًا ودافئًا، أنثويًا، لكن غير طفولي. طويت قطعة الحرير المربعة بالنصف، وألقيت المثلث على شعري، ثم ثَبَتُّ طرفيه بدبوس مخفي تحت الذقن ورميت بالطرفين الطليقين كل واحد في اتجاه. التف القماش برقة حول شعري وكتفي، ولحسن الحظ وُفقت في عقد الحجاب ذلك اليوم.

كان قميصي ورديًا بلون الحجاب نفسه، أكمامه طويلة مكشكشة عند الأطراف، ولونه متناغمًا مع لون التنورة القشدية ذات الكشكشة التي تصل إلى الأرض وتلامسها برفق. العائلة كلها في هرج ومرج تناقش موضوع الزي؛ فاللقاء الأول هو جواز المرور الذي لا بد منه، وقد يكون هو اللقاء الوحيد. أصغيت من دون جدوى عليّ أسمع صوتًا مدويًا يعلن قائلًا: «ها قد أصبحت امرأة»، كما لم أسمع قائلًا يقول: «حظًّا سعيدًا». مكتبة الرمحي أح

ولم ينظر أحد إليَّ بفخر، أو بنظرة أبوية حانية تَرقُب وتُسجل انتقالي من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب. أنا لا أختلف عن آلاف، بل ملايين الشابات المقبلات على الزواج في كل أنحاء العالم.

وقفت أمام المرآة أحدِّق بعصبية، وأحاول أن أسيطر على نبضي المتسارع. شهيق ثم زفير، شهيق آخر وزفير آخر. تُرى ما شكله؟ وماذا سأقول له؟

عمري تسعة عشر عامًا، وأنا على وشك دخول العالم الذي جرى تحضيري له منذ طفولتي. لقد كانت أهمية التقاليد، التي ألقت بثقلها المحبب على كتفيَّ الآسيويتين المسلمتين منذ الولادة، موازية لقوة انتظاري البريء اللذيذ للحب.

كل ما في رأسي من أفكار يؤكد وجود الحب الحقيقي الجارف، تمامًا كما تؤكده رومانسيات هوليوود وحكايات الأطفال الخيالية. تَعِد تعاليم الإسلام كلَّ إنسان بشريك يكمل معه نصف دينه، أما الثقافات الآسيوية فتضع الزواج فوق كل اعتبار، والحب الشهي اللاذع الشامل يزهر في جوهر أية فكرة تُطرح للزواج. إن فكرة لقائي بالعريس المنتظر، واكتشاف تقبُّل كلٍّ منا الآخر، هي فكرة عصرية بامتياز بالنسبة إلى البعض. ولطالما عرفت أنني سأقابل زوجَ المستقبل بهذه الطريقة. إذًا لماذا يدقُّ قلبي بهذا العنف؟ إن الرجل ومرافقيه آتون ليتفحصوني، وأنا طبعًا سأتفحصه، لكن فكرة التعادل في التفحص هذه لم تساهم في راحة أعصابي. إنه ليس مجرد موعد عاطفي «عمياني»، بل هو موعد عاطفي «عمياني» عائلي.

تكلفت «سيلا بلاك» الابتسام في مرآة غرفة نومي وتساءلت: «هل تراني ألتزم بخيار عائلتي الأول أي محاسبي مدينة لندن؟ أم خيار العائلة الثاني وهو عصبة أطباء جلوشستر؟ أم خيار العائلة الثالث وهو العاملون بالاستيراد والتصدير في برمنجهام؟».

قد يكون هذا الشاب هو الأمير الوحيد الذي سأقابله في حياتي، أو الذي سأحتاج إلى مقابلته. حسنًا وما الخطأ في ذلك؟ أنا أتوق إلى لقاء أميري وأحلم بأن أكون جزءًا من منظومة العشاق والمعشوقين. وفي الواقع فإن المرجح هو أن أقابله على الطريقة التقليدية الرسمية.

يرافق العريس في زيارته إلى بيتنا شخص «كبير» واحد على الأقل؛ فالتعرف على عائلته وفَهْم خلفيته العائلية لهما الأهمية نفسها التي يكتسبها تقييم شكله وطوله ولونه ووسامته وإعطائه معدل درجات في هذا المجال.

وطبعًا سيقوم هو وعائلته بتقييمي بالطريقة نفسها. إنه موعد جماعي تتوقف عليه قرارات جماعية؛ لذا سنكون أنا وهو محور اهتمام الجميع اليوم.

ها أنا ذي أنظر إلى نفسي ثانيةً في المرآة، وأتمرن على الابتسام. ابتسامة من يا ترى، «موناليزا» أم «جوليا روبرتس»؟ رششت نفسي بالعطر، ثم انهرت إلى الأرض وأنا أنفخ بعصبية. تلوتُ بضع آيات من القرآن لتشد من أزري وتساعدني على استعادة نظام حياتي الطبيعية. وبالفعل ساعدتني حكمة الآيات على الشعور بالهدوء. وضعت بعض العملات المعدنية في صندوق الصدقة الذي نحتفظ به في البيت، ثم سويت ملابسي. إن تخصيص بعض النقود للمحتاجين هو تطبيق عملي لنظرية الفوضى: فرعشة صغيرة تحدث في مكان ما تكبر وتكبر إلى أن يصل أثرها إليك في النهاية؛ والحقيقة هي أني في أمسِّ الحاجة إلى تلقي جزاء حسناتي وبعض الطاقة الإيجابية في هذه اللحظة.

فُتح الباب الأمامي للمنزل فانحبست أنفاسي. ها قد وصل العريس.

صعدت الدرج بسرعة لأراقب موكب الزوار من النافذة وهم يصفُّون السيارة. جثوت على الأرض كي أختلس النظر من خلال الفتحة الموجودة بين الستارة وحافة النافذة. شاهدت سيارة تويوتا بنية مائلة إلى الرمادي، أو هل هي هوندا؟ ترى هل يهم نوع السيارة، خصوصًا حين تخص عائلة آسيوية تقليدية محترمة؟ تفرست في الثنائي «الكبير» الذي كان يتقدم بجلبة في مدخل بيتنا؛ أما الولد، علي، فقد كان يسير خلفهما بهدوء.

توجه الضيوف بمرح ظاهر إلى باب بيتنا الأمامي وهم يتظاهرون بأنها زيارة عادية مثل كل الزيارات. ففي لقاءات التعارف يجب أن يحاط هدف الزيارة بالتكتم والسرية. امتلأ البيت بالأحاديث الجانبية وبدا الضيوف في غاية البراءة واللطف، وكأنهم لم يأتوا إلينا ليَقلبوا حياتي رأسًا على عقب. ألم يأتوا إلى هنا لانتزاعي من حضن عائلتي؟ أنا أحب عائلتي وأنا سعيدة بوجودي معها، لماذا يجب أن أتركها إذن؟ لقد ملأني وصول الضيوف بالقلق؛ فأسدلت يدي وأنا أشعر بالذعر والوحدة والإهمال، وأخذت أمشي بسكون

وأنتظر اللحظة المناسبة كي أنزل لأدخل العرين. يجب أن يكون دخول الفتاة إلى الغرفة مؤثرًا ومميزًا؛ هذه هي القاعدة.

توقفت فجأة ووبخت نفسي: ما بالي؟ أليست هي رغبتي أن أقع في الحب وأن أعيش إلى الأبد في سعادة؟ قد يكون هذا الرجل هو أميري المنتظر الذي ينقلني إلى عالم الزهور والرياحين، عالم سندريلا بأثوابها الرائعة. ترى هل سأشعر بوخز الحب وأقع فيه من النظرة الأولى؟

هناك أربع حقائق أساسية حول هذا الموضوع صنفتها من «المهم» إلى «الأقل أهمية». فكونه محاسبًا في الثالثة والعشرين من العمر هو أمر «مهم»، أما كونه ولدًا طيبًا لعائلة طيبة فهذا أمر «أقل أهمية». حين تكونين في التاسعة عشرة فإن اعتبارات مثل هذه لا تُعد من أساسيات الوقوع في الحب.

سمعت أصواتًا تنبعث من غرفة الجلوس بينما كان الضيوف يأخذون مقاعدهم. نزلت الدرج بهدوء وجلست مختبئة بشكل يسمح لي بسماع ما يُقال داخل الغرفة. أمضى الجالسون عدة دقائق وهم يناقشون الروابط والأصول العائلية ويحاولون إيجاد بعض الأقارب المشتركين. إن حديث الآسيويين عن العائلات شبيه بحديث الإنجليز عن الطقس، فهذا النوع من الحديث هو مقدمة آمنة يمكن لها أن تستمر بلا نهاية، وإلى جانب كونها من المجاملات الاجتماعية، فهي تقدم دلائل مهمة عن شخصية شريك المحادثة، وعن خلفيته الاجتماعية، وتاريخه وسمعته.

ويستمر الحديث ويستمر إلى أن يجد الطرفان قريبًا مشتركًا. ويبدو أن اللغات الآسيوية تتمتع بخصائص لغوية تتناسب وهذا الغرض؛ فهي تحوي أسماء خاصة تمثل القرابات المعقدة مما يُسرِّع عملية تحديد أحد الأقارب البعيدين.

أنا مثلًا أستطيع أن أحدد أخت زوج خالتي بكلمتين فقط بدلًا من ثلاث، وأن أحدد زوج أخت حماة أخت أم زوجة أخي أبي بثلاث كلمات فقط، والطرفان جادان فعلًا في العثور على قريب أو صديق مشترك يربط بينهما. وأخيرًا يُسمع صوت رنان يصيح قائلًا: «وجدتها! لقد وجدت القرابة».

بعد بضع دقائق أدركت أن الوقت قد حان لأدخل. تدرَّبت مرة أخيرة على ابتسامتي في المرآة، ابتسامة صغيرة على طرَف شفتي، أم هل يجب أن تكون ابتسامة كبيرة؟ هل يجب أن أحني رأسي بحركة خفيفة عند الدخول؟ خبأت خصلات شعري المتمردة التي برزت من تحت الحجاب، سوَّيت تنورتي وخطوت إلى الباب بخطى واسعة. دق قلبي بعنف «دوم تاك دوم»، وأحسست بالعرق يغطي جبهتي، أما وجنتاي فأصبحتا بسخونة بركان. لقد حان وقت لقاء العريس.

كان باب غرفة الجلوس مواربًا، فتحته ودخلت إلى غرفة تعجُّ بمناقشة حامية. توقعت أن يخيم الصمت على الغرفة عند دخولي وأن تلتفت العيون نحوي، لكن ما حدث هو أنني وقفت هناك بضع ثوانٍ من دون أن يلحظني أحد، بل استمرت المجاملات واستمرت. تُرى ماذا أفعل؟ هل ألوِّح بيدي كي يلحظوني، أو ربما عليَّ أن أتكلم؟

رآني أبي فجأة فصرخ: «أو هوو..»، وهذا تعبير صوتي مميز يستخدمه الآسيويون. قال، وهو ينظر إلى الضيوف معرِّفًا، وكأن وصولي كان مفاجأة بالنسبة إليهم: «ها هي ابنتي شيلينا».

فجأة شعرت بنفسي وأنا أقف وحيدة في وسط الغرفة. رَدهتنا عبارة عن فسحة مربعة كبيرة مطلية بلون أخضر فاتح مريح، لها ستائر مخملية بلون الزمرد القاتم، أما أبواب الفناء فتطل على حديقة رائعة تشغل حيزًا كبيرًا من

رعاية والديَّ واهتمامهما، فهما يعشقان الحديقة، ويبدو أن الحديقة تعشقهما بدورها أيضًا. كان الضيوف يجلسون براحة على الكنبات الجلدية الطرية الموزعة حول الغرفة.

ابتسمت بسرعة وأنا أقيِّم بعصبية ما يحيط بي... كالعادة كان الرجال والنساء يجلسون في قسمين منفصلين. أين تجلس ضيفتنا الكبيرة؟ إن اللباقة تقتضي بأن أتوجه إليها بالسلام أولًا. ثم... أين هو فارس الأحلام؟ يجب أن أسلم عليه بطريقة ودية لكن محتشمة. كيف رتَّب الضيوف جلوسهم وأين يجب أن أجلس أنا؟ القرارات السريعة الصائبة مطلوبة وحساسة في هذه المرحلة لإعطاء الانطباع المناسب.

توجهت إلى الضيفة قائلة: «السلام عليكم». إنها تحية الإسلام والسيدة هي عمَّة علي. قبَّلتُها وقبَّلتني. لا بد أنها بدأت تسترجع وصف الخَطَّابة لي في هذه اللحظة. ترى ماذا أخبرتْها؟ وهل أرقى إلى توقعاتها؟ إن الخطابة موجودة معنا حتى في غيابها؛ فسيطرتها على حياتي وحياة غيري من العزَّاب والعازبات عظيمة بلا شك.

تلفَّتُّ حولي باستحياء فرأيت الشاب وأومأت له برأسي بكياسة، ثم جلست من دون تفكير في المقعد الشاغر قرب الباب. جلست بأناقة وأنا أشبك يديَّ حول ركبتي بنعومة، ثم وضعت على فمي أجمل ابتساماتي ونظرت إلى الفراغ أمامي.

انتعش النقاش من جديد. تنفست الصعداء وحاولت أن ألمَّ شتات نفسي، ثم تعمدت أن ألمح العريس بسرعة من دون النظر إليه مباشرة؛ فأنا أعرف أنه يقيِّمني في هذه اللحظة. بدا لي مرتاحًا وهو يتكئ على طرف كنبته ويثرثر مع والدي. لدى والدي القدرة على التحدث مع الجميع، مهما كانت خلفيتهم أو

أعمارهم أو مكانتهم الاجتماعية، لكنه، على الرغم من طلاقة لسانه وحديثه البارع، في الحقيقة هادئ ورابط الجأش. لوالدي لحية بيضاء قصيرة تناسب وجهه وهيبته، وكان يحب إغاظتي بفرك لحيته على خدي بحماسة. أما رده على صرخاتي واعتراضاتي التي دأبتُ على إصدارها منذ الطفولة فهو أنه قد غسلها بالشامبو خصيصًا من أجلي، ودعكها بالمُلطِّف، حتى أصبحت ناعمة لا تَخمِش خدي.

«هل تدرسين أم تعملين؟» سكنت الغرفة فحدَّقتُ في الناس الجالسين حولي، لم أدرك أن أحدهم كان يخاطبني.

أخيرًا أجبت بصوت متحشرج: «أتسألني أنا؟» تنحنحت كي أخفف من نبرة صوتي الذي كان يشبه صوت إحدى الشخصيات الكرتونية، ثم قلت: «أنا أدرس». ردَّ عم علي قائلًا: «جيد جدًّا» ثم تابع: «سمعت أنك تدرسين علم النفس والفلسفة».

أومأت برأسي من دون صوت، فصوتي كان لا يزال في الطابق العلوي، في حالة اعتراضٍ على هذا الموقف الاجتماعي المحرج.

سألني قائلًا: «هل هذا يعني أنك تحدسين بما أفكر الآن؟» ضحك ضحكة عالية من القلب لدرجة أنه بدأ يسعل.

قال والدي: «شيلينا، «بتي»، أحضري له بعض الماء». «بتي» هي إحدى الكلمات الآسيوية العاطفية الحنونة التي يستخدمها أبي ليدل على تعلقه بي.

عدت ومعي كأس من الماء المثلج، قدمتها له وجلست في مقعدي ثانية، بضع دقائق فقط، قبل أن أتلقى إشارة خفيفة من أمي بالمغادرة. خرجت بهدوء وقدماي تغوصان في السجادة الناعمة في طريقي إلى المطبخ. ملأت الغلاية بالماء وضغطت الزر، ثم أخذت أرقب المؤشر الأحمر وهو يلمع. انتظرت

بصبر حتى يغلي الماء وأنا أحدِّق في الفراغ، ثم عدت إلى غرفة الجلوس. حاولت أن أستخدم ألطف نبرات صوتي وأكثرها تهذيبًا، نبرة كَنَّة المستقبل، وقلت: «ماذا تفضلون؟ الشاي أم القهوة؟» بدأت فجأة أشعر بالثقة، فلديَّ الآن مهمة أقوم بها. تبسَّمت في وجه كل ضيف على حدة، بينما كنت أسأل: «ماذا تود أن تشرب؟ وما كمية السكر والحليب التي ترغب فيها في قهوتك أو شايك؟».

حاولت ابتلاع دهشتي حين طُلب مني إضافة أربع ملاعق من السكر مع الحليب المكثف والمحلى الذي يُعتبر من المرافقات الضرورية للشاي الآسيوي. إن هذا الخيار للشاي المثقل بالسكر لا يعتبر غريبًا في ثقافتنا. حاولت ألا أنظر كثيرًا إلى الشاب، بينما كنت آخذ طلبات الضيوف، لكنه بدا مذعورًا مثلي.

أخذت أكرر الطلبات في رأسي كترنيمة مقدسة، فالطبخ ومهارات الضيافة هي من القضايا الحساسة في الثقافة الآسيوية، وهي البرهان على أن المرأة سيدة «حقيقية»، تمامًا مثلما كان الوضع في أوروبا في الماضي. فالمرأة يجب أن تكون ربة منزل أولًا، وبالطبع لم يكن من مصلحتي أبدًا أن أرتكب أي هفوة في هذه المرحلة. في المطبخ رتبتُ الأكواب على الصينية بترتيب جلوس الضيوف في الغرفة؛ فهذا سيُسهل عليَّ تقديم الكوب المناسب للشخص المناسب. وضعت أكياس الشاي في الأكواب لمن يرغب في شُرب الشاي، ووضعت القهوة (السريعة الذوبان لتسهيل العملية) في الأكواب أيضًا، ثم أضفت السكر وسكبت الماء الحار ومسحت ما انسكب على الصينية. ألقيت نظرة أخيرة على ملابسي، ثم حملت الصينية وجررت نفسي في اتجاه غرفة الجلوس، وأنا أحاول ألا أتعثر بطرف تنورتي الطويلة. وقد ندمت في الحقيقة على اختيار تنورة الشيفون الطويلة المنسدلة؛ فقد كنت أطأ أطرافها المكشكشة بغير قصد. وضعت الصينية في وسط الطاولة ووزعت الفناجين على الطاولات الصغيرة

الموجودة قرب كل ضيف. ثم حملت الفنجان لأقدمه إلى الشاب، لكنني فجأة لم أعد أعرف ماذا أفعل به. فاقتربت من مقعده كما فعلت مع الآخرين ووضعته بقربه. رفعت نظري إلى وجهه، لكن الحياء جعلني أشيح بناظري بعيدًا. ندمت على هذا التصرف؛ فعاودت رفع بصري نحوه ووجدت نفسي أحدق، من دون قصد، في عينيه. لكن لقاء العيون هذا سرعان ما انتهى ورجعت إلى أرض الواقع من جديد. هربت إلى المطبخ شاعرة بالخجل والحرج.

فطائر السمبوسك

التقطت صينية أخرى كانت قد أُعدت سلفًا، حيث اصطفت عليها أطباق صغيرة وبعض الأطعمة الخفيفة الصغيرة الحجم، من بينها فطائر السمبوسك البنية المحمصة. إن إدخال صينية السمبوسك هو أحد التقاليد الباقية من عملية التعارف القديمة؛ فهي الفرصة الوحيدة التي يُسمح فيها للفتاة أن تدخل الغرفة حيث يتحدد مصيرها. أما اليوم فتعتبر هذه العملية المرحلة الأولى لتعريف الولد بالبنت.

وقد تكون هذه هي فرصة البنت الوحيدة لرؤية عريسها المرتقب. في هذه اللحظة على الولد أيضًا أن يحدد أولوياته وأن يعرف كيف يغتنم الفرصة ولا يضيعها بأمور تافهة.

وقد يُضطر الشاب إلى السفر، هو وعائلته، مسافات طويلة لكي يحظى بهذه الفرصة النادرة لرؤية المرأة التي ستشاركه بقية حياته. تُرى هل ستلمع عيناه حين يراها؟ وهل سيحب طريقة وضعها للطرحة؟ وماذا لو انزلقت عند انحنائها لتقديم الأطباق ورأى شعرها الطويل منسدلًا كالليل؟ إن الطريقة التي تضع فيها الأكواب على الطاولة وطريقة تقديمها أطباق الحلوى يمكن أن تغير حياتها إلى الأبد.

صُمِّمت فكرة «إدخال السمبوسك» خصيصًا لجعل العريس المنتظَر ومرافقيه يلقون نظرة على العروس المحتملة. أما الفتاة فلم يكن من المفترض أن يكون لها رأي، أو أن تلعب أي دور في عملية الاختيار واتخاذ القرار؛ فمصيرها يحدده العريس وعائلته، إنه الصياد وهي الطريدة.

السؤال الذي يهم الولد هو: هل هي جميلة؟ أما سؤال الأهل فهو: هل هي مناسبة؟ وهكذا تُختم الصفقة كلها ببضع لمحات يلقيها العريس على عروس المستقبل، التي ربما تكون مغطاة بالكامل لدرجة أنه لا يرى منها شيئًا، أو ربما تدفعها الجرأة إلى أن ترفع عينيها إليه بشقاوة كي تراه في أثناء تقديمها الشاي له. إنها اللحظة ذاتها، سواء أكانت مأخوذة من أفلام بوليوود الذهبية، أم من قصة «جين أوستن» «كبرياء وتحامل». إن لحظة تقديم السمبوسك قادرة على تغيير مستقبل ومصائر العائلات.

لم تكن الفتاة تتكلم في أثناء أداء هذه المهمة، فالمطلوب منها هو أن تكون محتشمة ورزينة. وفي الظروف التقليدية المحافظة، لا تدخل الفتاة أبدًا قبل مرحلة تقديم السمبوسك، كما فعلتُ أنا، والكلام - والعياذ بالله - ممنوع. إن التواصل الخاطف الذي تسببه هذه المعجنات المقرمشة المحشوة باللحم هو الذي يحسم قرار العريس. أما الفتاة المسكينة فما عليها سوى انتظار الحكم. إن جاء جواب الشاب بالرفض وإن كانت الفتاة من بنات العائلات، فعندها لا تلوم الفتاة إلا شكلها الذي قد يكون السبب. كما أن قريبات العريس اللاتي يأتين للزيارة يقمن هن أيضًا باستجواب الفتاة المسكينة، وإعطاء حكمهن للعريس ولأصحاب القرار الآخرين من رجال العائلة؛ فالشاب لا يعرف عن الفتاة إلا ما يسمعه من سيدات العائلة، والنظام لا يسمح للولد بأن يعجب بنمط آخر غير النمط الذي تتوقعه نساء العائلة، وعليه أن يتقبل فكرة أن الأم تعرف أكثر.

ولا يجب الحط من قدر رأي السيدات في هذه المسألة، فالزواج ليس بين العروس والعريس فقط، بل هو أيضًا بين عائلتيهما. وحسب التقاليد لم يكن يفترض للمرأة أن تعمل؛ لذا كانت تمضي مع حماتها وأخوات زوجها وقتًا أطول من الذي تمضيه مع الزوج، إذ إنها كانت تستمر في العيش معهن في بيت واحد، على الرغم من توسع العائلات وتفرعها. وحتى عند الخروج تبقى المرأة مع النساء، بينما يستمتع الرجل برفقة الرجال. إن إيجاد السعادة في منزل عائلي مزدحم لهو من أكبر التحديات التي تواجه العروس الجديدة، وهو يوازي في أهميته إبقاء شعلة الحب متقدة حين يخلو لها.

وزعتُ الأطباق والمأكولات الخفيفة، وحين مررت قرب علي هذه المرة منحته ابتسامة دافئة. كنت قد بدأت في هذه المرحلة أجد ثقتي بنفسي وشخصيتي، مما أعطاني شعورًا جيدًا. ابتسم لي بعصبية، لكن نوعًا من التواصل كان قد حدث على أية حال. قال: «شكرًا». هذه أول مرة يوجه إليَّ فيها الحديث مباشرة. شعرت بالتركيز أكثر حين عدت إلى المطبخ، فها قد دخلت إلى غرفة ملأى بأشخاص أتوا خصيصًا لرؤيتي. ولقد ابتسمت وتحدثت وقمت بنوع من التواصل مع الشاب الذي لم يكن خاليًا تمامًا من الجاذبية.

عند عودتي إلى المطبخ تبعتني أمي. أمي امرأة صغيرة الحجم سمراء ناعمة، أما ابتسامتها فكانت قادرة على إخراجي من أحلك حالاتي المزاجية. نظرتُ إليها بحب كي أشجعها على كشف سرها. اقتربتْ مني وتحدثتْ بصوت هامس سمعتُه بالكاد. ارتفع حاجباي حتى وصلا إلى مفرق شعري من فرط الارتباك. ثم استدارت عائدة وأغلقت باب المطبخ وراءها: «عليكِ أن تذهبي إلى الغرفة المجاورة كي تتحدثي معه».

كان الفصل الرئيس من الحكاية على وشك أن يبدأ: عليَّ أن أتحدث مع الرجل «عن الزواج».

اختلست النظر إلى غرفة الطعام لأتأكد من أن كل شيء في مكانه، ثم جلست. هذه هي حلبة المفاوضات وهي شبيهة بغرفة الجلوس فكلتاهما مربعة، لكن هذه الغرفة مطلية بدرجات اللون الأزرق، وتتوسطها مائدة طعام ضخمة من خشب الماهوجاني، والكراسي لونها بني غامق بأذرع ملتوية ووسائد دمشقية باللون الكريمي. في وسط الغرفة، اشرأبت زهور النرجس البري في المزهرية الزرقاء. تخيلت أين يمكن أن يجلس علي، وتساءلت عما إذا كان سيرى الجانب النصفي الأفضل لوجهي من مكانه. أدرت النصف الأيسر لوجهي إلى الجهة التي تخيلت أنه سيجلس فيها، ثم أدرت النصف الأيمن، ثم جلست وأخذت أتخيل نفسي وأنا أتحدث إليه. ثم بدلت الأماكن وجلست في مكانه المتخيَّل ولعبت دوره وهو يتجاوب مع تعليقاتي بالقول: «أعتقد أنكِ مذهلة وقد وقعتُ في غرامك». تخيلته وهو يخبرني ذلك رسميًّا.

تمرَّنت على الابتسامة ثانية: ابتسامة كبيرة، أم جريئة، أم ملأى بالدلال والغنج، أم من دون ابتسامة على الإطلاق؟

لن يكون من المناسب أن أبدو متحمسة أو مرحة في هذه المرحلة. عليَّ أن أخفي جذلي المعتاد كي لا أخيفه. لقد أخبرني الكبار والعمات والخالات مرارًا وتكرارًا أنني أمتلك كثيرًا من الثقة والذكاء، وأن الرجال لا يحبون هاتين الصفتين في المرأة، وأنني إن كنت جادة في مسألة الزواج هذه فعليَّ أن أخفي هاتين الصفتين. لا بأس بإظهار لمحة منهما، لكن من المهم جدًّا ألا يلمس الشاب ذكائي. ولقد تمادت الخالات في القول إنني يجب ألا أبدأ في دراسة الماجستير، أو لا قدر الله، الدكتوراه، لأن أحدًا لن يرغب في الزواج مني بعد ذلك، وعندها لن ألوم إلا نفسي.

«لا أحد يرغب في الزواج من فتاة متعلمة جدًّا!» هذه كانت النصيحة، «وعندها ستجدين نفسك عجوزًا وحيدة مركونة على الرف. من الأفضل

أن تتزوجي أولًا وتتدبري أمر زوجك، ثم يمكنك أن تفعلي كل ما تريدين بعد ذلك». الخالات كلهن سمينات وممتلئات الصدور وكلهن يتكلمن بتلك اللكنة ذات الإيقاع المخدِّر والمزعج في الوقت عينه. وأصواتهن تتردد في رأسي مثل صوت صرصور الليل المخبول، «جيمني كريكيت». أصوات عالية وقوية تحمل تركة عمرها آلاف السنين من التقاليد والتراث. من أنا كي أخالف قوانين هذه التركة؟

«هل تعرفين تلك الفتاة، سونيا؟» بدأت إحدى الخالات الحديث، «يا لها من فتاة! إنها جميلة جدًّا وبيضاء».

«لقد تقدم لها عريس من عائلة جيدة والولد كان وسيمًا جدًّا.»

«وسيم، هه.»

«نعم، وسيم جدًّا.»

مكتبة الرمحي أحمد

«كانت في السابعة عشرة فقط.»

«نعم في السابعة عشرة فقط لكنها ذكية جدًّا.»

«نعم، ذكية جدًّا.»

«وهو لديه عمل جيد.»

«نعم عمله جيد جدًّا، في شركة محاماة كبيرة، شريك أول في الشركة، كما تعرفين.»

«وهكذا تزوجتْه ولديها الآن ثلاثة أولاد، وحين تبلغ الخامسة والأربعين ستكون قد زوجت الأولاد، وسيكونون قد انتقلوا إلى منازلهم الخاصة، وعندها تصبح حرة ويمكنها أن تفعل ما تريد، يمكنها أن تدرس أو تعمل أو تسافر».

«إنها تدرس في الجامعة الآن وقد أخذت شهادة البكالوريوس وتتابع دراسة الماجستير!»

«وهل تحتاجين إلى الماجستير لتنظيف المطبخ؟ لا أدري!» قهقهت أعرض الخالات السمينات.

«ماجستير في خُبز الروتي أو طبخ البرياني!» علقت الاثنتان بأصواتهما المحشرجة من مضغ أوراق نبات التنبول. إن مضغ أوراق نبات التنبول يطلق بعض المحفزات في الدم تشبه تلك التي تطلقها النيكوتين، كما أنه يترك بقعًا صفراء على الأسنان.

أصابتني كلمات الخالات المتعنتة بقشعريرة في ظاهر عنقي.

أما ثقتهن الراسخة في رأيهن في الحياة فقد سببت لي حيرة عظيمة: وهي أن تكوني مسلمة وآسيوية وبريطانية في نفس الوقت. لم أكن قادرة على إزاحة الرواسب الثقافية التي كانت ترشح من كل مسام من مسامات خالاتي الكبيرات، كي أفهم وأقيِّم الحكمة الآسيوية الشاملة الجاثمة تحت كل تلك الرواسب. حتى إن لقب «خالة» هو دعوة للاحترام و«الخالة الكبيرة» هو دعوة لمزيد من الاحترام - كل هذا عزز موقفهن وجعل منهن معاقل للتراث والتقاليد. كنت أنظر إليهن كسيدات قديمات الطراز، بينما كنت أنظر إلى نفسي كفتاة منفتحة ومتطورة. كانت فورة الشباب تجعلني أنفر من تعليبهن النساء في إطار عفا عليه الزمن وتجعل روحي الشابة تتمرد على كل ما يمثلنه من تقاليد، لكنني في الحقيقة لم أجد أي مانع في تقبُّل عملية الزواج التقليدية التي كنَّ هنَّ محورها ودعائمها. إن كنت أريد زوجًا فهذا هو السبيل. حاولت إبعاد أصواتهن عن رأسي، بينما كنت أجلس هنا في انتظار دخول العريس، تلك اللحظة التي كنت معدَّة لها جيدًا. نقرت بأصابعي على الطاولة. تُرى هل يهمس أحد في أذنه

أن تَحَرَّكْ بهدوء وسرية إلى الغرفة المجاورة! تُرى هل هو منفعل؟ أم مُحرَج؟ فُتح الباب بلطف وبرز منه رأس صغير. «مرحبًا» صرَّ صوته بعصبية، ثم تنحنح قائلًا: «هل يمكنني الدخول؟» دخل الغرفة بخجل.

نظر كل منا إلى الآخر بارتباك، إن التظاهر بالطبيعية في مثل هذه الأحوال أسهل من الاعتراف بالخوف. تُرى هل وحدهم من تربوا على رومانسيات هوليوود يجدون مثل هذه اللقاءات المدبرة مُحرِجة؟ أم إنه يتحتم على كل الراغبين في الزواج أن يواجهوا الخوف من فتح قلوبهم أمام شخص غريب، على أمل أن يجدوا شريك الحياة؟ تخيلت ملصقًا كبيرًا على الحائط يقول: «الزواج، نعم أم لا؟ صوِّتوا الآن!».

ترددت، هل أقف وأسحب له كرسيًّا يجلس عليه، لأتمم واجباتي كمضيفة؟ إن الضيافة من القيم الإسلامية الجوهرية الراسخة، لكن الأصوات البريطانية والآسيوية في رأسي أصرت عليَّ أن ألزم مكاني، فسحْبُ الكرسي يعتبر من واجبات الرجال في ثقافتنا، والسعي للزواج ينافس قوانين الضيافة. وقد كان صوتي أنا يردِّد بأنه من الأعراف الكونية أن تدع المرأة الرجلِ يشعر بالاعتزاز برجولته، وأن يكون حساسًا تجاه أنوثتها. إذن عليَّ أن أمكِّن الرجل من أن يكون الرجل.

جلسنا على طرف طاولة الطعام، بيننا زاوية تسعين درجة. كانت المسافة قريبة بما يكفي للكلام، لكنها لا تسمح بالتقارب الحميم. الباب مفتوح على مصراعيه مما يسمح لأي شخص أن يرانا ويسمعنا. وكانت الأصوات تتسلل إلينا من غرفة الجلوس، مضخِّمة الصمت بيننا.

تنهدت وأرحت كتفي. أطلَّت أمي وهي تحمل صينية عليها فنجانا قهوة وبعض البسكويت، وطبعًا بعض فطائر السمبوسك الشهيرة. ابتسمَت

ووجهت الحديث إلى علي قائلة: «لقد نسيتما قهوتكما». احمرَّ وجهه وكذلك وجهي، ثم احمرَّ وجه أمي فانسحبت بسرعة خارج الغرفة.

ظننت أني قد أتزوج الرجل وتخيلت الثوب الذي سأرتديه في حفل الزفاف. سيحملني فوق عتبة الباب، وسوف نعيش في بيت جميل مؤلف من أربع غرف وحمامين، وسيأخذني في نزهة مسائية نتمشى فيها بين زهور حديقتنا. غرفة طفلنا الأول ستكون أرجوانية فاتحة اللون، فيها مهد مصنوع يدويًّا من خشب السنديان الخالص.

طال الصمت. ارتاح الرجل قليلًا، وأخيرًا بدا وكأنه مسرور بوجوده هنا. تساءلت عما إذا كان قد أحضر خاتم الخطوبة في جيبه.

نظرت إليه عن قرب الآن. كان شعره قصيرًا ومصففًا ولحيته مشذَّبة، وكان يضع نظارة صغيرة ذات إطار معدني، ويلبس قميصًا أزرق مع بنطلون جبردين بيج؛ أي إن شكله لم يكن قديم الطراز ولا عصريًّا تمامًا.

تنحنح وقال: «اسمك شيلينا».

«نعم.»

«هذا بيتك؟»

«نعم.»

«أنت تعيشين مع والديك؟»

«نعم.»

«هل وُلدت في بريطانيا؟» سمعت صوته وهو ينساب بنعومة، ثم أمال رأسه تجاهي بطريقة مشجعة وكأنه يدفعني إلى المشاركة في الحوار.

نظرت إليه بيأس وقلت بصوت مجفل: «نـ... نعم».

تابع بإصرار: «وأنت تدرسين في أكسفورد، صحيح؟».

أقول موافقة على كلامه: «آها آها». سمعت أصوات الخالات تصفر في رأسي كصافرات القطارات، وحزنت على الانطباع السيئ الذي لا بد أنه قد أخذه عني. يا لها من بداية سيئة! «لا بد أنك إم م م... ذكية جدًّا!» تغيرت تعابير وجهه وهو يقول هذا. ربما قرفًا وليس توترًا. سمعت الخالات السمينات يصرخن في رأسي وأجسامهن تهتز قائلات: «أرأيت؟ لقد حذرناك. ها هو يخبرك أن هناك مشكلة، لكنك لم تصغي إلينا. أنتم الشباب دائمًا تعتقدون أنكم تعرفون أكثر منا». ابتلعت ريقي في يأس وحدَّقت بيدي في صمت.

تابع مصرًّا على استكمال هذا الطريق المسدود: «كيف كانت الدراسة؟».

«جيدة م م م... جيدة»، تلعثمت ولم أكن أعرف كيف أذيب هذا الجليد بيننا، كما أن محاولاته باءت بالفشل أيضًا. إنه ينتظرني كي أستطرد.

«لقد كانت، احم... جيدة بالفعل»، هذا كان كل ما أعانني الله على قوله.

امتدت يدانا إلى الفنجانين، رفعناهما إلى فمينا وتوقفنا. تلاقت عيوننا ونحن على وشك ارتشاف القهوة وتجمَّدنا. العين في العين والشفة على الفنجان. أشحت بنظري ودفعت بالفنجان إلى فمي. فوجئت بحرارة القهوة، فاندفع السائل خارجًا من فمي لفرط سخونته.

سألني بعيون متسعة وهو ينظر باتجاه غرفة الجلوس: «هل أنت بخير؟».

ترى هل سيُعتبر مسؤولًا عن إصابتي؟ ابتسمت وانتقلت من حالة الضبابية إلى حالة أخرى من الشفافية، تبعها شعور بالخجل. ابتسم هو أيضًا، كان مهتمًّا، لكنه كان يضحك. أحببت حالة الضعف المفاجئ الذي شعرت به. سألني: «ماذا تعرفين عني؟». كان تعبيره أكثر راحة ولطفًا هذه المرة.

«حسنًا، اسمك علي، عمرك ٢٣ سنة، وتعمل محاسبًا. صحيح؟».

«يا للذكاء!» رفع حاجبيه بحكمةٍ وتأثر.

قلدت تعبير حاجبيه وتماديت قليلًا: «هل تريد أن تخبرني المزيد؟».

«لقد ولدت في نيروبي وأتيت إلى هنا في سن المراهقة. أنهيت دراستي الثانوية وذهبت إلى الجامعة وانتهت بي الحال محاسبًا بطريقة ما». في عينيه ومضة من السخرية. صار يتكلم بنعومة ولطف. لم يكن الحوار بليغًا، ونادرًا ما كان مثيرًا، ولكنه استمر فترة طويلة... ثرثرنا أحيانًا بسلاسة وأحيانًا بشكل متقطع، ولكن بالتأكيد لم يكن الحديث مهمًّا.

يا له من شعور عجيب أن تتحدثي إلى شخص غريب وأنت تعرفين أنك، وبعد حوارات قليلة، يمكن أن تقرري الزواج منه. إن هذا الغطاء من المجاملات والدعابات هدفه معرفة ماهية الشخص، وطرح الأسئلة التي يمكن أن تدرج في أي سياق أو حوار أو لقاء تعارف. إن العملية مصممة بشكل يسمح للطرفين أن يسألا الأسئلة الأساسية الضرورية لإيضاح أهدافهما في الحياة وقيمهما وآمالهما المرتقبة من هذه العلاقة. سألني: «ما نوع الشخص الذي تبحثين عنه؟» وسألته: «هل تحب الأطفال؟ وإن كانت الإجابة نعم، فكم طفلًا تريد؟» كما تكلمنا عن هواياتنا واهتماماتنا، وعما نحب أن نفعله عندما نكبر. ما نوع الحياة التي نريد أن نعيشها؟ ما نوع العمل؟ أين يريد أن يعيش؟ ما العمل الذي تزاوله عائلته؟ ماذا يتوقع من زوجته؟ ثم عاد الحوار إلى مجراه المعتاد: ما فيلمه المفضل؟ ما طعامه المفضل؟ ثم عبَّر عن رغبته في متابعتي الدراسة، فوافقتُه قائلة: «إن هذه من الأولويات المهمة بالنسبة إليَّ». سألني إن كنت جاهزة للزواج، فأجبته: «وأنتَ هل تفكر في الزواج منذ فترة طويلة؟»، وهكذا تابعنا الحوار.

على الرغم من أن الحوار بدأ بطريقة مرتبكة، إلا أنني لم أجد من الغريب أن ألتقي بشريك حياتي المستقبلي بهذه الطريقة. ألا تبدأ كل العلاقات بحديث بسيط يكتشف الاثنان من خلاله نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما، بصرف النظر عن الظروف والمكان؟ هل هناك فارق بين التحدث إلى شخص ما في حانة أو نادي أو مطعم؟ على الأقل أنا متأكدة هنا أن هذا الشخص يسعى إلى علاقة جدية ويرغب في الزواج وأنني لا أضيع وقتي مع شخص لديه عقدة من العلاقات. إنه على الأقل متقبل لفكرة الارتباط. أنا أعرف غريزيًّا الأسئلة التي تسبب الجروح والأسى للناس في بداية أي علاقة، مثل: «هل هو مهتم؟ هل سوف يهتم...؟ ألن يهتم...؟» إنها مثل ركوب القطار الأفعواني في الملاهي، ومثل الأفلام والقصص الرومانسية التي تركز كلها على الحصول على إجابات مبكرة عن هذه الأسئلة. إن هذه المقدمة توفر إجابات سريعة لما يدور في ذهن الطرفين.

العملية التي دخلنا فيها واضحة جدًّا: على الطرفين تقديم تصريح عن نواياهما بعد الاجتماع، مهما تكن هذه النوايا، عن طريق الوسطاء؛ لذا فليس من المستغرب طرح أسئلة كبيرة ومهمة، تتخللها حقائق أساسية عن حياة الآخر وتفاهاته. إنها الأشياء المهمة التي تحدد ما إذا كنا نستطيع أن نتشارك الحياة والحب والسعادة والرفاهية. كنت أحاول أن أترك لديه انطباعًا جيدًا ولا أريد أن يرفضني. مَنْ منا يود أن يواجه بالرفض، لا سيما في المرة الأولى؟

هناك قرع خفيف على الباب وصوت غير محدد يخبرنا: «علي، إنهم ينادونك، يريدون المغادرة».

سألته: «هل تعرف ماذا سيحدث بعد ذلك؟».

أجاب بشجاعة: «أعتقد أن عليك أن تُطلعي والديك على الحديث الذي دار بيننا وعن شعورك تجاهي». لم ألح في طلب نصيحته فكلانا في نفس

الموقف، لكن ليس في الطرف نفسه طبعًا. تبادلنا مجاملات الوداع وتسرَّب الارتباك إلى الغرفة ثانية، بعدما كنا نجحنا في إخماده.

احمر وجهي عندما عدنا إلى غرفة الجلوس، فالجميع يعرفون أننا كنا معًا «نتحدث» في مكان مفتوح. شعرت بالإحراج، على الرغم من أن حديثنا كان هو سبب الزيارة، وبدأت أتساءل في ارتياب إن كانوا يفكرون في أننا ربما نكون قد... (تعرفون ماذا أقصد)، لكن بالطبع لم نفعل وهم يعرفون. إن حرجي هو وحش من صنع خيالي.

فجأة انطلق صوت حفيف الملابس وهي تتحرك، وصوت المفاتيح وهي تقرقع في الجيوب، والطاولات والكراسي وهي تزاح إيذانًا بالانصراف. وقف الضيوف. أومأ علي في اتجاهي فابتسمت بشكل تلقائي، ثم احمرَّ وجهي. نظرت أمي إلينا نحن الاثنين وابتسمت. ثم بدأت التمثيلية المعتادة فقالوا معتذرين: «علينا الذهاب». وأجابهم أبي وهو يجاريهم في التمثيلية: «لا تذهبوا أرجوكم، دعونا نتناول كوبًا آخر من الشاي، فالوقت لا يزال مبكرًا». أجابوه: «علينا أن نذهب فطريقنا بعيد». إن جوابهم يعني أنهم يعرفون كيف يشاركون في آداب المغادرة، فبيتهم في الحقيقة لم يكن يبعد أكثر من ثلاثة أميال عن بيتنا.

تحركوا في اتجاه الباب ببطء؛ فالإسراع في هذه الأحوال يفسَّر على أنه نوع من الفظاظة. همستْ عمة علي في أذن أمي ببضع كلمات، وهذه الكلمات التي تنطقها السيدتان كفيلة بتزييت عجلة الزواج وتسريعها. اتفقت الاثنتان على الاتصال بالخَطَّابة التي رتبت للاجتماع كي تعطياها تقرير ما بعد المقابلة. إذا كانت الآراء إيجابية من الطرفين عندها ننتقل إلى الخطوة التالية التي تتضمن لقاءً ثانيًا مع مفاوضات على مستوى أعلى من الجدية. يدَّعي الجميع بأنهم لم يسمعوا الحديث، على الرغم من أن همساتهم كانت مسموعة، كلنا نعرف الهدف من الزيارة وفحوى الحديثِ. أما البقية فتتظاهر بأن هذه الزيارة لا

تخرج عن كونها زيارة اجتماعية في يوم إجازة. نردد بصوت واحد: «كرروا الزيارة». فيردون هم أيضًا بصوت واحد: «دوركم الآن لزيارتنا، لقد أمضينا وقتًا ممتعًا معًا». «يا له من بيت جميل!». «أنا متأكد أنني سأراك في المسجد قريبًا». «من فضلكم بلغوا سلامنا للعائلة». «علينا أن نلتقي ثانية». التفتت عمّة علي نحوي وتفحصتني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم ربَّتتْ على خدِّي. التفتَت ونظرَت إلى علي بحنان، ثم نظرت إليَّ ثانية وقالت بيقين: «لقد سمعت عنكِ كثيرًا قبل أن نأتي، وقد كان جميلًا أن نلتقي أخيرًا». «شكرًا يا خالتي، لقد أسعدني لقاؤك أيضًا، استمتعنا بزيارتكم». ابتسمْت لها باحترام. إنها أكبر مني وأنا أتعامل معها باللباقة التي تستحقها.

نظر الرجال بارتباك في الممر وهم يتمنون الانتهاء من الأمر سريعًا، فهم لا يستمتعون بقصة المجاملات هذه.

«إن هذا بيد الله»، قالت المرأة وهي توجه حديثها بوضوح إلى أمي. تُرى هل هي تعبر عن إيمانها أم إنها تمهد لرفض وشيك؟ واستطردت قائلة: «كله قسمة ونصيب».

ودَّعونا وخرجوا من الباب الأمامي وهم يتدافعون إلى سيارتهم المحترمة المجهولة الهوية. وقف أبي عند الباب، إحدى يديه على المقبض والثانية يلوِّح بها مودعًا الضيوف المغادرين. تأملهم وهم يركبون السيارة ويغلقون الباب ويسيرون. لوَّح لهم بنشاط لمدة دقيقة حتى اختفت السيارة وهي تحمل أميري إلى الأفق البعيد.

* * *

عدنا إلى غرفة الجلوس وارتميت بتثاقل على أحد الكراسي الكبيرة. شكوت قائلة: «أنا متعبة». خلعت حجابي وأزلت العصابة التي كانت تثبت

شعري وتمنعه من التسلل من تحت الحجاب، وفي الحال شعرت بالراحة والاسترخاء.

قالت أمي وهي تربِّت على رأسي: «يا لحبيبتي المسكينة».

التفت إليَّ والدي الذي كان يجلس على كرسيه الخاص ويحمل جهاز الـ«ريموت كونترول» ليبدأ متابعة آخر الأخبار. وقفت بينه وبين «صندوق الدنيا» قائلة: «ما رأيك يا أبي، هل أحببته؟».

أكد قائلًا: «يبدو لطيفًا، لكن الأمر يعود إليك الآن. افعلي ما تريدين». فتجهَّمت.

ثم تابع: «نحن والداك. يمكننا أن ننصحك، لكنك أنت من ستعيشين معه بقية حياتك». سألت: «وماذا عن الباقين؟».

قالت زوجة أخي وهي تمدد ساقيها على الطاولة: «أعتقد أنه يبدو لطيفًا، كما أعتقد أنه سيكون زوجًا طيبًا وأنك ستسعدين معه، فعائلته طيبة وعمله جيد وهو متدين ووسيم». توقفَت فجأةً، ثم نظرت إليَّ وهي تدَّعي الحرج.

«ماذا؟ ماذا؟ ألا يمكنني أن ألاحظ إن كان الرجل وسيمًا أم لا؟»

استدرت إلى أمي أطلب رأيها. «تعلمين، في الماضي كانت العائلة تقبل بأول عريس ابن عائلة يتقدم للابنة». توقفتْ ثم تابعت: «إنه خيار جيد يجب ألا تفوتيه». أضعف التردد قوة كلماتها، فأنا أعرف مباشرة أن مشاعري تعكس مشاعرها، لكنني أُقدر نصيحتها، فهي، كامرأة وزوجة وأم، مرَّت بهذه الرحلة التي أوشِك على الإبحار فيها. «إنه لطيف لكن هل هذا هو كل ما تصرُّون على قوله؟ لطيف، لطيف، لطيف. كيف لي أن أعرف؟ كيف أعرف؟» نظرت إلى الجميع برجاء. تساءلتْ عيونهم: وهل ستعرفين أبدًا؟

إنه العريس الأول، فارس من بين عدد من الفرسان. كل واحد منهم قادر على منحي حياة مختلفة، فكيف أختار؟

سأل الجانب الرومانسي فيَّ: هل خفق له قلبكِ؟

والخالات السمينات: هل هو لقطة؟

وسأل الدين: هل هو متديِّن مثلك؟

احترت لاعتقادي الخطأ بوجود تناقض بين هذه المناظير المختلفة للحب، مناظير تأتي من الدين ومناظير تأتي من التقاليد الثقافية الآسيوية، لكن كل الأسئلة تجمَّعت في سؤال واحد: هل هو الرجل المطلوب؟

ابنة الرجل الصالح

في الصباح التالي اتصلت الخطابة، وهي مسؤولة في لجنة الزواج التابعة للمسجد المحلي. تتألف اللجنة من مجموعة من السيدات اللاتي كرّسن كل اهتمامهن على خَلْق نوع من التواصل بين عائلات الشبان والشابات المستعدين للزواج. فعندما يصبح أحد الأولاد جاهزًا للزواج تبدأ الأم بالتقرب من اللجنة، وتخبر القيِّمات عليها أنها بصدد البحث عن شريك حياة لابنها أو ابنتها. تبدأ سيدات اللجنة مباشرة بعرض شبكة اتصالاتهن الواسعة التي تتناسب ورغبات المقبلين على الزواج، وهن في ذلك لا يبخلن لا بالوقت ولا بالجهد لتحقيق الهدف. فالمجتمع حريص فعلًا على أن يحصل الشباب على حياة سعيدة ومستقرة. إن الزواج السعيد المتكافئ من أهم عناصر الحياة.

عندما اتصلت الخطابة بمنزلنا للمرة الأولى قدمت ديباجة لبقة طويلة حول أهمية عثور الشباب على شركاء حياة مناسبين، معتبرة أن مساعدتهم على تحقيق ذلك واجب على المجتمع. كان بيان الخطابة الافتتاحي غاية في التهذيب والود. إن الزواج هو قضية اجتماعية، ومن تتبرع بلعب دور الخطابة إنما تلعب دورًا حيويًا في حماية كيان الأسرة. وحسب الفكر الإسلامي فإن الشخص الذي يجمع رأسين في الحلال له ثواب كبير عند الله. نوَّهت الخطابة لأمي أنه،

وبما أنني قد وصلت في دراستي إلى المرحلة الجامعية، فقد آن الأوان كي تبدأ عملية البحث عن زوج لي. كان من المقبول أن تنهي الفتاة دراستها الجامعية قبل أن تتزوج، إن أرادت ذلك.

ثم نصحت أمي بلهجة العارفة ببواطن الأمور قائلة: «هذه الأمور تأخذ وقتًا، وإذا وجدت الشخص المناسب، عندها يمكن لشيلينا أن تتزوج وتتابع الدراسة، أو يمكن أن تتم الخطوبة ويتزوجا بعد التخرج».

ثم أضافت محذرة: «إن الشباب الجيدين يطيرون بسرعة هذه الأيام».

توقفتْ قليلًا ثم سألتْ: «هل تريدين مني البدء في البحث عن عريس لها؟» عرفت كلٌّ من أمي والخطابة أن هذا السؤال هو من قبيل الاحتشام فقط؛ إذ إن كلتيهما كانتا قد بدأتا البحث فعلًا. فعيون الأهل تبقى في حالة بحث دائمة عن الشريك المحتمل لأبنائهم، منذ الطفولة، على أمل أن يتذكروا ذلك عندما يكبرون. ومن المهم أن تتم عملية البحث على الموجة الطويلة، فأصول اللباقة تتطلب جوابًا، وقد أجابت أمي الخطابة شاكرةً إياها على اهتمامها، ومعترفةً بالتحديات والمصاعب التي تواجهها، ومؤكدةً لها من جديد عِظم الثواب الذي ستحظى به لالتزامها بتنفيذ واجباتها الإسلامية.

قاطعتها الخطابة: «الديَّ شاب أود اقتراح اسمه، إنه شاب لطيف جدًّا».

ردَّت أمي بصوت مشجِّع فبدأت الخطابة بسرد التفاصيل. استمعت أمي إليها بانتباه وهي تشخبط على دفتر أمامها وتومئ بحيوية بينما كانت الخطابة تعدد مزايا العريس. وصفت عائلته وأقرباءه، حتى عرفت أمي من هم بالضبط، ثم توسعت في ذكر تفاصيل الحالة المادية للعائلة، مواصفاتها، سمعتها ومستواها التعليمي، وأعطت بعض التعليقات عن حماة المستقبل، وعن متطلباتها بالنسبة إلى عروس ابنها، ثم أنهت خطابها بوصف مختصر عن الولد نفسه.

أجابت أمي: «سأتكلم مع شيلينا وأسمع رأيها في الموضوع، ثم سأتصل بك وأعلِمك بالمستجدات». توقفتْ ثم تابعت: «شكرًا جزيلًا لك لتفكيرك في شيلينا، إننا نقدر لك ذلك أعظم تقدير».

نقلت أمي المعلومات إليَّ وإلى العائلة. إنه متديِّن ومتعلم، ولديه عمل جيد، وهو من عائلة محترمة. عمره مناسب ويبدو أنه وسيم أيضًا.

علقت: «يبدو واعدًا». وافق الجميع، فاتصلت أمي بالخطابة لتؤكد لها اهتمامنا بالأمر. عندما اتصلت الخطابة ثانية كان ذلك لتأكيد الموعد والساعة.

أضافت الخطابة: «إنهم متلهفون ويتطلعون إلى لقاء شيلينا».

ها هي ذي الآن تتصل ثانية بعد اللقاء لتسمع رأينا. لا بد أنها قد تحدثت مع عائلة الشاب أولًا، فهم أول المعنيين بالأمر.

ضغطت أمي على زر مكبر الصوت في الهاتف كي أسمع الحديث. تحدثتا فترة وتبادلتا المجاملات والسلامات، ثم سألتها فجأة: «ما رأي شيلينا؟». تلكأت أمي على الرغم من أنها كانت تتوقع السؤال، وطبعًا كان جوابها هو الهدف الوحيد المنتظر من هذه المحادثة.

ناورت أمي بدهاء محاوِلةً تجنب الإجابة أولًا. سألتْ بدورها: «لماذا لا تقولين لي ما رأي علي؟». فإعطاء الجواب هو مسألة معقدة؛ إن بادرنا نحن بالقول إنه أعجبني وهم قالوا آسفين، فسيضعنا هذا في موقف ضعيف ومحرج، وإن قلنا نحن «نعم» وهم قالوا «نعم» فهذا يجعلنا مندفعين، وإذا قلنا نحن «لا» وكانوا هم يخططون لقول «نعم»، سيغيرون رأيهم ويقولون «لا» لتجنب الرفض، وفي هذه الحالة لن نعرف رأيهم أبدًا. لكن لو بدأوا هم بقول «لا» عندها لو قلنا نحن «لا»، فسيبدو الأمر كما لو كنا ننوي أن نوافق

لكننا رفضنا لأنهم رفضوا. علاوةً على ذلك، نحن متأكدون من أننا سنقابل هؤلاء الأشخاص وأقاربهم في المسجد والمناسبات الاجتماعية مستقبلًا، وعلى الرغم من أن أحدًا لن يذكر اللقاء إلا أن الجميع سيفكرون فيه. يجب أن تُعالج هذه العقدة الدبلوماسية بحنكة لتجنب الإحراج والإهانة. أذعنت الخطابة وقالت: «لقد أعجبته كثيرًا وهو يرغب في لقائها ثانيةً، إن كانت شيلينا ترغب في ذلك». كان من الشائع في هذه الأيام عقد اجتماع ثانٍ شبيه بالاجتماع الأول، وشبيه أيضًا بالذهاب لرؤية منزل للمرة الثانية بهدف شرائه. في بعض شرائح المجتمع الإسلامي الآسيوي أصبح اللقاء الأول، الذي كان يعتبر في السابق مخاطرة، من الأمور العادية، كما أصبحت حدود ما هو مقبول ثقافيًّا تتسع لاحتواء اجتماع ثانٍ. إن الحداثة تأخذ مجراها.

في الماضي كان من الشائع أن تتقدم عائلة العريس بطلب يد العروس بعد اللقاء الأول. وفي الحقيقة فقد كانوا يرسلون طلبهم من دون لقاء، فالمراجع العائلية كانت كافية. لكن في هذه الأيام أصبح من المرجح حدوث لقاء ثانٍ أو ربما ثالث. بعدها يجب على الشاب أو الفتاة اتخاذ القرار فيما إذا كان الطرف الآخر يصلح لأن يكون شريك المستقبل. وفي الحقيقة بعد تمضية جلسات مكثفة مع الطرف الآخر، لا سيما حين يكون المرء مسلحًا بهذا الكم من التفاصيل والمعلومات عن حياته وعائلته ومقاصده وسمعته وتطلعاته، كيف لن يستطيع أن يقرر؟

يجتمع الشاب والفتاة ليعرفا فقط إن كان أحدهما يحب صحبة الآخر، ويكون لدى كلٍّ منهما تاريخ مرجعي كامل عن خلفية الآخر وسمعته وعمله (بما في ذلك راتبه) وهواياته ونشاطه الاجتماعي، ووضعه الديني ووضعه في المسجد، حتى معدلاته الدراسية، مع تقرير من الـ«سي آي إيه» والـ«إف بي آي» والـ«كي جي بي» والـ«ناسا» لو أردت. كما يمكن معرفة تاريخه العائلي،

وتعقب سجل العائلة، وطريقتها في التعامل مع شركاء الحياة، ومعدلات الزواج والطلاق فيها. يجب أن يكون الحوار مفتوحًا وتناقَش الأمور على المدى البعيد. يجب أن يعرف الشخص كل شيء عن الشخص الآخر وأهدافه وتطلعاته. إنها طريقة موثوقة جدًّا ومجربة ويبدو أنها ناجحة. وكما تقول الخالات: «أليست هذه هي كل المعلومات التي تحتاجينها لاختيار الشخص المناسب الذي تودين بناء علاقة ناجحة معه؟».

أية مخاطر تتوقعين حدوثها جراء الزواج بعد فترة قصيرة من التعارف، يمكن معالجتها عن طريق الهيكل الاجتماعي. فتكون العائلة مستعدة لدعم الثنائي الجديد، بتلبية احتياجاتهما وتخفيف قلقهما، ويكون الوالدان والأقارب جميعًا مستعدين للإجابة عن تساؤلات العروسين وحل المشاكل المرافقة لمراحل الزواج الأولى. وعلى العروسين الجديدين أن يكونا مستعدَّين للانتظار؛ فهذه العلاقة تحتاج إلى وقت كي تستقر، قبل أن يبدأ مفعول قصص «عبير» بالسريان.

سألتني الخالات: «ما الذي يجعل معرفة الشخص لثلاث سنين أفضل من معرفته في ثلاثة لقاءات مكثفة؟». تصعب معارضتهن في هذه النقطة؛ فهن يرين العالم من خلال خيار عملي بسيط، يفصل بين الحب الجارف الرومانسي الناري من جهة، والتقييم المنطقي لقضايا الحياة العملية الحساسة من جهة أخرى. يقدم لك الأول الخطر والاستبعاد والمجازفة وتحدي الأعراف، بينما أثبت الثاني تاريخيًّا أنه يوفر لك الاحترام والمكانة الاجتماعية والتقدير.

سيستغرق الأمر مني بضع سنوات قبل أن أدرك أنني كنت أعيش مفارقة الاعتقاد بأن الخيار كان بين نعم ولا، والتوق في الوقت نفسه إلى الحصول على الاثنين معًا. لقد اعتقدت أنني مميزة وأنني أستطيع الحصول على الاثنين، بل إن هذا ما يجب أن يحدث. كان لا بد لي أن أبدأ رحلة البحث عن إيماني، كي

أكتشف أن حدسي على حق، وأن الحب والحياة العملية يُكمل أحدهما الآخر. بدأت أمي بالقول: «شيلينا...».

تدخلت الخطابة قائلة: «أليس الشاب لطيفًا؟ أخلاقه ممتازة وهو وسيم جدًّا. قال علي إن شيلينا لطيفة جدًّا وودودة». حاولت أمي ثانيةً: «شيلينا...»، ثم توقفت في منتصف الجملة. «نعم إنه شاب لطيف وعائلته تبدو عائلة طيبة أيضًا». وحالما فتحت أمي فمها لتقول الجملة التالية اتضح مسار حياتي أمام عيني:

«شيلينا لا تريد أن تكمل معه.»

ارتفع حاجبا الخطابة على الهاتف حتى وصلا إلى مفرق شعرها وفتحت فمها دهشة، ثم زعقت بسرعة وجلبة وهي تحاول أن تخفي صدمتها: «لِمَ لا؟».

تابعت أمي: «حسنًا...» ماذا تقول؟ يجب أن تقول شيئًا تسترضي به الخطابة، هذا بالإضافة إلى أنها لم تكن موافقة تمامًا على قراري. فعائلتي شجعتني على لقائه ثانيةً.

كنت في التاسعة عشرة، وكان هو أول رجل أتعرف عليه، أول مرشح للزواج أفكر بقضاء بقية حياتي معه. كان الوضع مقيدًا ومتكلفًا والإشارات والمشاعر والجاذبية كلها لم يكن لها ذلك المفعول السحري. لم أكن أدرك أن الافتعال في حلبة اللقاء امتص كل الانجذاب الفطري له. من خلال جهلي لهذه الحقيقة لم أستطع أن أفهم أن هذا هو سبب غياب المشاعر. لقد استخدمت الاختبار الخطأ لإيجاد الشريك.

إن السهولة التي رفضت بها عريسًا بهذه المواصفات الممتازة كانت تعبر عن السذاجة؛ فكل ما كنت أبحث عنه هو «ذاك الشعور». في التاسعة عشرة

كانت لديَّ آمال في العثور على فارس الأحلام. الآن وحين أعود بتفكيري إلى الماضي أعتقد أن عليًا كان سيكون زوجًا طيبًا، وفي الحقيقة فقد تزوج، وزوجته تبدو دائمًا سعيدة ومشرقة. أتساءل أحيانًا ماذا كان ليحدث لو تزوجته؟

كانت عائلتي تتحمل مسؤولياتها الدينية بجدية تامة، ما يعني أنه كان عليَّ أن أوافق على شريك المستقبل برغبة وسرور. إن ما قُدِّم إليَّ كان زواجًا عائليًا مدبرًا، وهو مختلف تمامًا عن الزواج الإجباري. أحد أجزاء الزواج المدبر هو التعريف بالشاب المناسب، وتقديم النصح والدعم والحكمة في اختياره. إن لم يعجبني الشخص الذي قدموه إليَّ ينتهي الموضوع، فاختياري كان هو العامل الأهم. إن التزام والديَّ بالعقيدة الإسلامية كان يعني عدم إكراهي بأي شكل من الأشكال على اختيار الزوج، إضافةً إلى عدم إجباري أبدًا على فعل شيءٍ ضد إرادتي.

يكنُّ والداي لي الاحترام كإنسان مستقل. والأهم من هذا أنهما لو أصرَّا على إتمام الزواج من دون رغبتي، فعندها لن يكون الزواج شرعيًا. لكن لم يكن هناك ما يمنعهما من المساعدة في ترتيب لقائي مع الشخص المناسب. من يمانع في مساعدة أي أحد على إيجاد حب حياته؟ وكانا على أتم الاستعداد للمساعدة في أثناء عملية الاتفاق. إن وجود من يدعم العلاقة حين تصبح الأمور جدية له الأهمية نفسها كالمساعدة على العثور على الشخص المناسب في المقام الأول.

لقد تعلم والداي كثيرًا من هذه التجربة، فأنا كنت تجربتهم الأولى في تزويج البنات، والقواعد تبدو مختلفة جدًا بالنسبة إلى الفتيات. لو أنهما عرفا صعوبة الدرب الذي اخترت أن أسير فيه، لربما كانا ألحَّا في تشجيعي على الزواج من علي، لكنني أعتقد أنهما هما أيضًا كانا يؤمنان بوجود فارس الأحلام. وكيف كان لهما أن يرضيا بأقل من ذلك لأميرتهما الحبيبة؟

قالت الخطابة: «يجب على شيلينا أن تراه ثانية، من الصعب على الصغيرة المسكينة أن تقرر من المرة الأولى. لا بد أنه كان عصبيًا وهي أيضًا عصبية. لم يكونا على طبيعتيهما».

تريد أمي لي ما تريده كل الأمهات لبناتهن: السعادة والحب. ومهما كانت تجربة الأم إيجابية في الزواج إلا أنها دائمًا ترغب في شيء أفضل لابنتها. لذا لجأت أمي لاستخدام إحدى العبارات العصرية، وقالت: «تقول شيلينا إنها لم تشعر بشرارة الحب».

نظرتُ إلى أمي باحترام وحب شديدين؛ فقد كانت تؤمن بالشرارة. ولم تكن هذه مفاجأة بالنسبة إليَّ، فإحدى قصص القرآن المفضلة لديها كانت قصة موسى عليه السلام وابنة الرجل الصالح.

وصل موسى عليه السلام الشاب القوي الوسيم إلى مجرى مياه في المدينة، وكانت ابنة الرجل الصالح وأختها تمنعان أغنامهما عن الماء حتى ينتهي الرعاة من سقاية أغنامهم، فسقى المواشي لهما بنفسه. اقتربت منه إحدى البنتين ودعته إلى بيت أبيها. وكان للأب تجارة فنصحته باستخدام موسى عليه السلام فهو الشخص المناسب للعمل، بقوته وكرم أخلاقه.

أتساءل دائمًا إن كانت قد قالت لوالدها إنها أُعجبت بهذا الفارس النبيل. يبدو أنها كانت صريحة مع عائلتها، وأنه في مثل هذه الأوضاع لا تتحرَّج الفتاة في أن تخبر أباها أنها مهتمة بشخص ما. ربما تكون ابنة الرجل الصالح قد نقلت إحساسها بهذه الشرارة إلى والدها. دُعي موسى عليه السلام إلى لقاء الأسرة كي يتم تقييمه بشكل مناسب، وسرعان ما تزوج موسى عليه السلام من ابنة الرجل الصالح.

كان أبي وأمي يقدِّران هذه القصة، فعلى الرغم من غياب مفهوم «الشرارة» من الأعراف التقليدية للزواج إلا أنهما كانا مدركينِ له ومنفتحينِ على

استكشافه وفقًا لما جاء في الدين. لقد كانت رغبتهما في تعلُّم قصص القرآن وقصص الأنبياء مستمرة، كما أن إشراك العائلة في هذه الأمور لم يكن شيئًا سيئًا على الإطلاق.

فهو لا يعتبر تدخلًا، بل هو نصح ودعم يلقيا الترحيب الشديد. الجميع معنيون بقضايا الحب والزواج، فهي تؤثر على جميع أفراد العائلة. هذا بالإضافة إلى أن الأبوين لديهما الخبرة وحكمة الحياة المطلوبتين لاتخاذ القرارات والخيارات الكبيرة.

وفي عملية اتخاذ القرار لرفض أحد الخُطَّاب كنت قد بدأت رحلة أكبر، ألا وهي: رحلة البحث عن حب حياتي. لقد كانت تجربتي مع علي هي السابقة الأولى وكانت مهمتي هي إيجاد الشخص المناسب، وفي بحثي عن الحب، وجدت نفسي وإيماني والحب الإلهي في الطريق.

لقد أعلنت إطلاق عملية البحث رسميًا.

الباب الثاني

الارتباط

البراءة

في سن الثالثة عشرة كنت متأكدة من أنني سأتزوج «جون ترافولتا»، وأنه سيصل إلى عتبة بيتي في شمال لندن يومًا، ويغرم بي بجنون، ويطلب مني الزواج، ثم يُسلم ويصبح مسلمًا متدينًا.

كانت لصديقاتي في المدرسة أحلام مشابهة باستثناء مقطع التحول إلى الإسلام. لقد كنت مراهقة تحلم بكل خيالات المراهقة الطبيعية ما عدا موضوع الدين، فمن كتب له أن يكون فارس أحلامي عليه أن يكون مسلمًا أو أن يصبح كذلك قبل الشروع في أية قصة رومانسية. هذا سيؤدي بنا مباشرة إلى الزواج وسيكون الطريق قصيرًا بين المرحلتين، إذ لن يكون هناك من رقص ومتعة قبل الزفاف. ومن خلال عيوني الشابة كنت أرى نفسي هدفًا جذابًا لدرجة أن التحول إلى الإسلام كان مسألة واضحة بسيطة وخيارًا سهلًا للرجل المحظوظ.

مكتبة الرمحي أحمد

لقد أخبرتني الخالات السمينات أنني مراهقة غير جذابة، نحيلة جدًّا، وبي عيب يُعتبر عند الآسيويين أسوأ من الموت، وهو أنني «سمراء». الآسيويون لهم سمعة سيئة في اهتمامهم بقضية اللون: فبياض بشرة المرء تعني أنه جميل،

وأما السمار فيعني القُبح. إن بياض البشرة دليل على سمو المكانة الاجتماعية، وهي صفة مرغوبة جدًّا في كَنَّة المستقبل.

في الغالب تقوم أم البطل بعملية اختيار الفتاة التي ستُقدم لابنها كمرشحة للزواج، والحموات يفضلن عرض عرائس فاتحات البشرة على أبنائهن؛ لذا فقد كبرت وأنا أعتقد أنني غير جميلة ولا حتى جذابة. وعندما كانت الخالات يشعرن بيأسي وحاجتي إلى إطراء ما، كن يعلقن على مدى فتنتي، أو تسأل إحداهن الأخرى: «أليست ملامحها مميزة؟» أما عند رؤية فتاة بيضاء فكن يبدأن في نظم الشعر: «يا الله كم هي بيضاء وجميلة!».

في طفولتي كنت فاتحة اللون وحبوبة. كان شعري كثيفًا لامعًا ووجنتاي حمراوين مكتنزتين «خلقتا للقرص» كما كان الكبار يقولون لي. كنت طفلة نبيهة جدًّا وسعيدة، وكنت أمضي ساعات في اللعب وحدي.

أما أهم ما كان يميزني فهو اجتهادي في المدرسة، وقد ظهر في سن مبكرة جدًّا. كنت أحب الذهاب إلى المدرسة وأحب كتابة الواجبات المدرسية. كل مساء كان أبي يسألني إن كنت قد أنهيت دروسي وواجباتي، وغالبًا ما كنت أسبق الصف في كتابة التمارين وتحضيرها. أمي وأبي حاضران دائمًا في ذكريات طفولتي، إذ أمضيا معظم وقتهما معي. لقد نعمت بحبهما وكبرت وأنا أشعر بأنني الطفلة المعجزة.

كان يسمح لي بالسهر حتى الثامنة لمشاهدة التلفزيون، ونادرًا ما رأيت أحدًا لونه كلوني، أو ثقافته كثقافتي تبرز من تلك النافذة الصغيرة التي تحتل زاوية غرفة جلوسنا. لقد كبرت في العصور القديمة، قبل اختراع الـ«ريموت كونترول»، وبما أني كنت أصغر أطفال العائلة، كان من واجبي القفز إلى التلفزيون لتغيير القناة كلما أراد الكبار ذلك. وكانت الحالة لا تزال بدائية جدًّا

في ذلك الحين، بوجود أربع قنوات فقط. كانت برامج مثل «راقب لغتك»، و«في الصحة والمرض»، و«لكنها لا تزال باردة يا أمي»، بالتنوع العرقي المحدود للشخصيات فيها، ووجوهها المطلية وعباراتها الهزلية، تعكس نظرة بريطانيا للمهاجرين الآسيويين والسود الآتين من المستعمرات البريطانية القديمة، والذين كانوا قد بدأوا يشكلون جزءًا من نسيج الثقافة البريطانية. نحن أيضًا انجرفنا مع ندرة التصوير وبساطته، وكنا سعداء بأن يأتي ذكرنا في التلفزيون مهما كانت طريقة التقديم. على الأقل بدت الشخصيات التي تمثلنا في هذه المسلسلات الكوميدية بشرية ومرحة، وليست بربرية أو مضطهدة أو متمردة. «أنت باكستاني؟ أين عِمَّتُك؟! وأين الخبز الهندي؟!» كنا نضحك لسماع ذلك، أو «أنت هندي؟ أين الفيل؟!» كنا نهلل ونهز رؤوسنا من دون سخرية.

والأكثر ندرة كانت البرامج القليلة حول المسلمين. فبعد تقليب الكثير من صفحات الجرائد التي تضم قوائم ببرامج التلفزيون، كانت شبكة الاتصالات الهاتفية من الأصدقاء والأقارب وإليهم تبدأ في العمل لتخبر الجميع أن يبقوا في البيت مساءً لمشاهدة هذا البرنامج أو ذاك. كان يتبع مثل هذه البرامج تحليل مكثف. كنا نتجمع أمام الشاشة لنراقب كل مشهد بدقة، وعندما أصبح لدينا فيديو أصبحنا نسجلها من أجل الأجيال القادمة. وفي الغالب كانت هذه البرامج غير دقيقة، وفارغة، وكانت تنقل معلومات خطأ عن الإسلام، وكانت النتيجة في الغالب أبحاثًا رديئة ومعالجة ضعيفة للموضوع. أتذكر تمامًا مسلسلًا بعنوان «سيف الإسلام» كان يصور مجموعة من المحاربين المسلحين بالسيوف، وهم يعصفون في أرجاء الجزيرة العربية وآسيا، ويبدون مثل عُصبة من مصاصي الدماء تهاجم أعناق الأطفال. رُوِّع والداي من تصوير الإسلام بهذه الطريقة الغريبة والمنمطة، فنحن لم نَدخل الإسلام بالسيف. عائلتنا هي عائلة تجار تعرَّفوا على الإسلام من خلال

أسفارهم. وقد عرفت أن قصة السيوف هذه ما هي إلا خرافة، على الرغم من أنني كنت مجرد طفلة. وخلصت إلى نتيجة هي أن العاملين في التلفزيون لا يعرفون ما يتحدثون عنه.

عندما بدأت أذهب إلى المدرسة، كان أصعب سؤال يواجهني هو: «من أين أتيت؟» ولم يكن يعني كيف ولدت، فالإجابة عن هذا السؤال بسيطة، إذ إن الأطفال يخرجون ببساطة من بطن الأم، وبمجرد النظر إلى وجوههم تَعرف جنسهم. حتى إني صُدمت مرة عندما سمعت حديثًا بين أمي وخالتي بعد ولادة طفلها الأول. سألتها أمي: «لماذا لا تنجبين طفلًا آخر؟ عليك أن تحاولي إنجاب طفل ثانٍ». صُعقت، ؛ إذ كيف يمكن لخالتي أن تتسبب في إنجاب طفل؟ فالأمر ليس بيدها، هذا واضح، إن الأطفال يأتون لأن الله يرسلهم في الوقت الذي يريد.

«من أين أتيت؟» هي مسألة متعلقة بأصولي، وتلك مسألة أخرى. فتاة بريطانية شرق أفريقية آسيوية مسلمة، تعيش ضمن ذاك المزيج العرقي المتضارب لشمال لندن، في فترة الثمانينيات حيث الثقافة الوحيدة السائدة هي الثقافة «الأنجلوساكسونية». كل هذا صعَّب عليَّ شرح أصولي بإيجاز ووضوح.

عندما تكون في السادسة ويسألك أحد من أين أنت، أول ما يتبادر إلى ذهنك هو إعطاؤه عنوان البيت. وهو الجواب الذي يمكن أن يعطيه أي شخص آخر غيري لا يشعر بأنه مختلف. لكن في حالتي أنا كنت أعرف أنهم يريدون المزيد؛ فهم يريدون أن يعرفوا لماذا لا يبدو لون بشرتي ورديًا قشديًا مثل بقية سكان شمال لندن، ويريدون أن يعرفوا لماذا ألبس هذه الألوان البراقة والملابس غريبة الشكل، ولماذا تبدو رائحة طعامي غريبة، ولماذا آكل بأصابعي بدل استخدام أدوات المائدة مثل الشعوب المتحضرة، ولماذا تزيِّن يديَّ أحيانًا

بعض الرسومات البنية. لم يَصُغ أحد أسئلته لي بهذا الشكل في حياتي العادية كما كان يحدث على لسان الشخصيات العنصرية في المسلسلات الكوميدية مثل «آلف جارنيت»، بل كانت الأسئلة تقبع، متهِمة ومُحِطَّة ومهينة ومندسَّة بين الشفاه والأسنان؛ فقد كان من الأسهل إخفاء الأشياء وإنكارها وفصلها. وطالما لا يوجد تقاطع بين العالمين لم يكن هناك أي خطر، لكن الخوف من التصادم كان دائمًا موجودًا.

ما كنت لأذكر أمام أحد أننا نأكل «الكاري» في المنزل ولم أكن أصلِّي أمام صديقاتي، ولم أذكر أمامهن أنني أذهب إلى المسجد. كيف يمكن أن تشرح كل ذلك لطلاب المرحلة المتوسطة المنحدرين من عائلات كبيرة ومستقرة، حيث الأب لديه مهنة محترمة، والأم ربة منزل، وقد التقى الاثنان على مقاعد الدراسة في الجامعة وتزوجا، ثم اشتريا منزلًا في منطقة «وينشمور هيل» الوارفة، ورُزقا بالأطفال مباشرةً، ثم أرسلا أولادهما ليعيشوا دورة الحياة نفسها؟ مؤخرًا وبعد أن أصبح العالم أصغر وتفتحت عيون الناس على تعقيدات الثقافات العالمية، وبعد أن زادت ثقتي بديني وثقافتي، مؤخرًا فقط أصبحت لديَّ إجابات تحمل موقفًا واضحًا عن طرق الانصهار، وعن المطبخ ذي النكهات المميزة، وعن فنون الحنة الجميلة، وعن ديني وعن الإيمان القادر على تقديم الكثير.

لقد سافر أجدادي من «جوجارات» في الهند ليستقروا في شمال أفريقيا أواخر القرن التاسع عشر، وكانوا جزءًا من موجة كبيرة من الهنود انتقلت من المستعمرة شبه القارية للإمبراطورية البريطانية إلى مناطق شمال أفريقيا النامية. وقد شجع البريطانيون كثيرًا من الرجال على المشاركة في هذه الهجرة من أجل تأمين اليد العاملة اللازمة لبناء السكك الحديدية في شمال أفريقيا والبدء في تطوير المنطقة. أما النساء فبدأن في الهجرة لاحقًا، إذ هاجر بعضهن بسبب المجاعات التي اجتاحت مناطق «جوجارات» و«البنجاب»، وهاجر البعض

الآخر لتحسين وضعه الاقتصادي. وصل المهاجرون الآسيويون إلى أطراف جنوب أفريقيا وتوغلوا غربًا كما صورتهم رواية «قلب الظلمة» لـ«جوزيف كونراد» وصولًا إلى وسط القارة المترامية العشوائية. وقد تجاهل الإنجليز حقيقة أن هذه الأراضي كانت تسكنها شعوب لها حياتها المستقلة وتاريخها وعاداتها. وسرعان ما استقرت أوضاع آسيويٍّ شبه القارة، فحوَّلوا مناطق مثل «نيروبي»، عاصمة «كينيا» الحالية، من مناطق متأخرة إلى أخرى متمدنة ثم إلى مدن في لمح البصر.

انضم الآسيويون إلى كتلة تعجُّ بالأعراق؛ فقد كان البريطانيون والألمان يحتلون أفريقيا الشرقية. كذلك اقتطع الفرنسيون والبرتغاليون مساحات لهم في الكونغو وموزمبيق المجاورتين. أما المناطق الساحلية فكانت تحكمها عُمان، التي أثرتها تجارة تصدير البخور. فهذه الأشجار المذهلة بنُسغها العطري العبق لم تكن تنمو إلا على الساحل الجنوبي لعُمان. وقد كان هذا البخور يُحوَّل إلى عطر ويباع في أنحاء العالم بأسعار باهظة. استخدم العمانيون ثرواتهم ومهاراتهم البحرية لتوسيع إمبراطوريتهم التي امتدت خصوصًا إلى الجنوب على الحدود البحرية الشرقية لأفريقيا. وهم من أطلق على عاصمة تنزانيا الحالية، التي أمضى والداي سنوات زواجهما الأولى فيها، اسم «دار السلام». كما أطلق العمانيون على الشطآن اسم «السواحل»، ومن هنا سُمِّيت اللغة التي نتجت عن الامتزاج باللهجات المحلية «السواحلية»، أي لغة الساحل. وهي اليوم اللغة الرسمية للعديد من الدول، من بينها تنزانيا، موطن والدي وأجدادي.

في أواسط خمسينيات القرن التاسع عشر، وقبل أن يبحر أجدادي من «جوجارات» باتجاه ما كان يدعى حينذاك «تانجانيقا»، كان مجتمعهم الهندوسي الصغير قد اعتنق الإسلام. تشير القصص التي تتناقلها العائلة إلى الشغف والبساطة في اعتناق الناس للدين الجديد ومحاولتهم بناء حياتهم

حوله، وتكشف رغبتهم البريئة في الروحانية وإدراكهم البسيط للحقيقة. وبالطبع، لم يكن الإنترنت متوفرًا، ولا خدمات التوصيل السريعة، ولا الطيران حول العالم، لتسهيل عملية التعليم والتعلم. كان مُعلمون يُرسَلون إلى هذه المجتمعات من قلب العالم الإسلامي القديم في منطقة الشرق الأوسط. كان هؤلاء المفكرون الذين يصلون من المعاهد الدينية العربية يبدأون بتعلم اللغات المحلية. وأخذت الكتب، ومن بينها القرآن الكريم، تترجم من العربية والفارسية والأوردو إلى «الجوجاراتية».

في ذلك الوقت كان من النادر أن يتعلم الناس العربية، فظلت جدتي، وعلى الرغم من أنها عاشت طويلًا، تعتمد على الآخرين، ومن بينهم ابنتها، كي يقرأوا لها أية نصوص بالعربية، إذ إنها لم تتعلم اللغة أبدًا. لكن هذا تغيَّر تدريجيًا وأصبحت قراءة القرآن بلغته الأصلية من الممارسات الاجتماعية السائدة، ولجأ الكثير من الرجال إلى تعلُّم اللغتين العربية والفارسية - إذ كانت الفارسية اللغة الإدارية في الهند حتى مطلع القرن العشرين.

في سياق ألف وخمسمائة عام من التاريخ الإسلامي، تُعتبر عائلتي ومجتمعي من الوافدين الجدد إلى هذا الدين. وحتى اليوم، ما زلنا نتمتع بالنشاط وبالتعطش إلى معرفة المزيد عن ديننا، فهو يعود إلى بضعة أجيال فقط، ونحن نراه بأعين هندية وأفريقية، والآن بريطانية.

لقد عاش والداي وترعرعا في تنزانيا تمامًا مثل والديهما من قبل. وكان مجتمعهما هنديًا صرفًا لكنه ضمَّ معظم الأطياف الدينية من مسلمين ومسيحيين وهندوس وسيخ. وقد عاشوا معًا جميعًا كجيران متحابين، وتشاركوا القيم والثقافات، ودعموا بعضهم بعضًا في ممارساتهم الدينية. في عائلة أمي كان تعليم الفتيات أمرًا مهمًا. ولمساعدة أمي على الذهاب إلى المدرسة، اشترى لها والدها دراجة هوائية، فكانت أول فتاة في مدينتها تركب الدراجة لتذهب إلى

المدرسة. وفي الحقيقة لم يكن أحد قد سمع عن هذا من قبل، وسبَّب الأمر صدمة للجميع. لكن جدي أصر على أهمية الدراسة، وعلى وجوب تأمين المواصلات لابنته من المدرسة وإليها. كان التعليم جزءًا من الدين، وقد نُسب إلى النبي ﷺ قوله: «اطلبوا العلم ولو في الصين». في ذلك الوقت كانت الصين من أبعد الإمبراطوريات وأكثرها غموضًا لأنها في الجانب الآخر من العالم. وكان لإصرار جدي تأثير كبير على إيمان أمي، لأن تغلُّب الإيمان على التقاليد استمر في تحديد نهجها في الحياة حتى الآن.

بعد فترة قصيرة من زواج والديَّ أعلنت تنزانيا استقلالها. كانت عائلة والدي من رعايا بريطانيا في الخارج منذ وقت طويل، فأجبره الوضع السياسي الجديد على الاختيار بين تنزانيا وبريطانيا. في أواخر الستينيات، في فترة حافلة بالتغيرات العالمية والاجتماعية، كان عليه الاختيار بين الإثارة المتولدة عن البقاء في الدولة المستقلة الحديثة التي عاش وترعرع فيها مع عائلته، وبين فرصة العمر الوحيدة بأن يقتلع نفسه وعائلته الصغيرة وينتقل إلى بريطانيا، البلد البعيد المجهول، حيث لا يعرف ماذا يخبئ له القدر. وبما أنه كان من الرعايا البريطانيين، وكان هذا البلد يجري في دماء عائلته منذ عقود، دفعه الشباب والحيوية والتفاؤل إلى المخاطرة. وصل والداي إلى شواطئ إنجلترا ومعهما حقيبتان و٧٥ جنيهًا إسترلينيًّا.

يذكر والداي هذه الفترة الآن كفترة من المصاعب المنسية والمتعة المضخمة. ويتذكران قائلين: «كنا نتغاضى عن الصعوبات، لأننا كنا لا نزال شبابًا، وكنا نريد اختبار العالم من حولنا». لقد استبدلا شقتهما الفسيحة العصرية في وسط دار السلام بغرفة نوم واحدة باردة في ضواحي مدينة لندن الرمادية الشتوية. كانت للغرفة دورة مياه خارجية، وحمام ومطبخ مشتركان. رُفضت الطلبات التي تقدم بها والدي للعمل بسبب أصوله الآسيوية، وأصر مدير

أحد البنوك على إيداع ٥٠٪ من مبلغ القرض عند شراء والديَّ لمنزلهما الأول لمجرد أن أبي كان آسيويًا. كما شنَّ الجيران حملة لمنعه من شراء المنزل. لكنهما تحملا التمييز وصمما على بناء حياة متينة لنفسيهما. إن مشاهدة عائلتيهما وهما تعيشان كأقليات في شرق أفريقيا، والجهود التي بذلتها العائلات لبناء الثروة والمكانة لا تزال ذكراها حية في أذهانهما. أما الآن وقد وجدا نفسيهما يعيشان ظروفًا مشابهة كأقلية في المملكة المتحدة، فقد صمَّما على مباشرة العمل لبناء حياتهما في ديارهما الجديدة.

تمثلت مفاتيح النجاح بالنسبة إلى أبي في العلم والاجتهاد. وقد استطاع، بفضل اجتهاده، أن يقدم لولدَيه تعليمًا من الطراز الممتاز. كان يكرر دائمًا القول القديم: «أعطِ الرجل سمكة فتطعمه يومًا، علِّم الرجل الصيد فتطعمه إلى الأبد». وكان يحذرنا قائلًا: «لا تعتمدوا على النجاح والثروة المادية». ويسألنا بأسلوب خطابي: «ألم تروا ماذا حدث لآسيويي أوغندا؟ لقد كانوا أناسًا طيبين يعيشون حياة كريمة. وفي ليلة سوداء أُجبروا على التخلي عن كل شيء وأصبحوا لاجئين بلا مأوى. هذا يثبت لكم أن الثروة والرخاء يمكن أن يجيئا بسهولة ويزولا في غمضة عين». إن ظهور «عيدي أمين» المتعطش إلى الدم كان قصة تحذيرية للآسيويين المهاجرين الذين تم نفيهم وتهديدهم بالإبادة إنْ هم لم يرضخوا لأمر النفي من أوغندا في أوائل السبعينيات.

لقد أقنعتنا الحياة العصرية بوجوب توفير بعض الحاجات، كالراحة والأناقة والمكانة والحب. لكن هذه الأشياء ليست في الحقيقة ضرورية، فالدرس الذي تَعلمه المنفيون هو أن الحياة في أساسها صراع مرير من أجل البقاء.

كان أبي يتوقف عن الكلام برهة، ثم يتابع بلهجة تحذيرية عطوفة: «ما مدى استقرار وضع الإنسان في أي بلد؟ ليكن أهم شيء بالنسبة إليكم، الشيء

الذي نعلمكم إياه ونحثكم دائمًا على الحفاظ عليه، الشيء الذي سيحافظ دائمًا على صدقكم مع أنفسكم، وعلى حسن تعاملكم مع الآخرين، هو التزامكم بدينكم وأن تتذكروا الله دائمًا».

كان والداي محبَّين للسفر، وقد يكون السبب هو شهوة المهاجر التي تسري في عروقهما. على الرغم من أننا لم نكن أثرياء، كنا نقوم برحلات إلى الخارج في إجازاتنا المدرسية، نزور فيها أماكن مثيرة وغريبة. كنا نسافر كل سنة إلى أماكن جديدة نستكشف كنوزها المكنونة، وتجمعت في ذاكرتي جعبة من الأشخاص والأماكن والتجارب شكلت حيِّزًا كبيرًا من خيالي الجامح المتعطش، وحددت معالم شخصيتي المحبة لاستكشاف عالم كان عليه أن يستعد لمواكبة شهيتي للحياة.

أول ذكرياتي عن الأسفار هي رحلة قمنا بها إلى تنزانيا، وكنت في الرابعة من عمري، لزيارة العائلة هناك. ولا يزال لدينا فيلم مصور، ولقطات من تلك الرحلة. إنه ذاك النوع من الأفلام القديمة الملفوفة على أسطوانة، وعندما ينتهي العرض يُصدر صوتًا مضحكًا، ويظهر ضوء أبيض على الشاشة. أما المشهد الذي لا يزال يدهشني كلما رأيته الآن، فهو لقطة لي على شواطئ دار السلام الرملية الجميلة. لم أعرف حينها أن هناك كاميرا تصوِّرني، ولم أكن آبَه بالقيود الاجتماعية. كنت في الصورة أرتدي بنطلوني القصير الأحمر المفضل وقميصي القطني الأحمر الذي يحمل صورة كارتون «ماوكلي»، والذي لم أعترف بصغره عليَّ إلا بعد سنوات من ارتدائه. كنت منهمكة جدًّا باللعب بالمجرفة والدلو، بينما تحلَّق الصبية الصغار من حولي ينفِّذون كل كلمة أقولها ويطيعون تعليماتي، محاولين نيل رضاي.

* * *

في سن الثالثة بدأت أذهب إلى روضة الأطفال. وكان أبواي قد تعمَّدا التحدث إليَّ بـ«الكوشية» فقط في البيت، وهي اللهجة «الجوجاراتية» التي نتكلمها؛ لذا عندما ذهبت إلى الروضة لم أكن أعرف كلمة إنجليزية واحدة. وفي خلال بضعة أسابيع أصبحت أتكلمها بطلاقة. وكنت قادرة في سِن الرابعة على قراءة الإنجليزية البسيطة بإتقان. وفي الوقت نفسه بدأ والداي يعلمونني قراءة الخط العربي، لاقتناعهما الراسخ بأنني يجب أن أتمكن، كمسلمة، من قراءة القرآن بلغته الأصلية. كنت أجلس فرِحة كل مساء في حضن أبي وأتدرَّب على قراءة صفحة من دليل الأطفال لقراءة القرآن. كنت أعشق هذه الحميمية مع أبي، وكنت أسابقه في قراءة الصفحات.

كان الخط العربي مثل الأحجية، وكنت أستمتع كثيرًا بكشف أسراره، إذ لم يكن غريبًا عنا بل جزءًا من هويتنا. ودليل آخر على ذلك كان موضع سرير والدي في زاوية الغرفة، كي يتسع المكان لسجادتيْ صلاة متجاورتين، إحداهما لأمي والأُخرى لأبي. كنت أركض لأفرش سجادتَي الصلاة لوالديَّ، ثم أقف قرب أمي التي كانت تعلمني برفق ما ينبغي عليَّ فعله. وفي نهاية الصلاة، كنت أتلو آخر مقطع حفظته من القرآن.

في سن الخامسة أنهيت قراءة دليل الأطفال وبدأت بقراءة النص العربي الكامل للقرآن نفسه، وأكملته عندما بلغت السادسة. وقد وجدت من السهل الاستمتاع بالإيقاعِ المتناغم الذي تتميز به العبارات العربية. عندما بلغت السادسة والنصف شاركت في مسابقة في المسجد لإلقاء خطبة عن النبي محمد ﷺ وعما يجب أن نتعلمه من حياته وسيرته. وقد حرصت على تحضير الخطاب بجد، ببراءة طفلة صغيرة وبساطتها. كان خطابي يدور حول السلوك الطيب للنبي ﷺ ولطفه ورحمته. وأعترف هنا ببعض الانتحال الأدبي، إذ إنني نسخته

بالكامل تقريبًا من كتاب عن الرسول ﷺ، بعد تغيير بعض الكلمات الطويلة والصعبة التي لم أفهمها ولم أستطع لفظها في عُمر السادسة.

في نهاية الخطاب أضفت واحدة من قصصي المفضلة المنسوبة إلى الرسول ﷺ. كان يسير يوميًّا في طريق تقطنه امرأة عجوز كانت تتعمد رمي القمامة عليه لأنها لم تكن تؤمن بدين الإله الواحد الذي كان ينشره. وكان يصل إلى البيت يوميًّا وهو مغطى بالقمامة الكريهة الرائحة. وفي أحد الأيام عبَر الشارع ولم تكن المرأة هناك. وبدل أن يُسر لاختفائها كما كان معظمنا سيفعل، سأل لماذا لم تكن تمارس نشاطها المعتاد فاكتشف أنها مريضة. فذهب لعيادتها ليرى إن كان يستطيع تقديم المساعدة إليها. دُهشت المرأة حين لمست إنسانيته ورحمته بعد مضايقاتها الطويلة له. لكن النبي محمدًا ﷺ أخبرها أن العناية حتى لمن يسيء إلينا والرأفة به هما جوهر الإسلام. لقد كنت مقتنعة تمامًا بأن وضع هذه القصة كخاتمة لخُطبتي سيحقق لي الفوز بالتأكيد.

كان المكان في الأصل مركزًا اجتماعيًّا صغيرًا تحوَّل إلى مسجد. كانت بعض المساجد في مبانٍ شُيدت لهذا الغرض، وأخرى في بيوت صغيرة حُوِّلت إلى مساجد؛ ومنها أيضًا ما كان عبارة عن أماكن عبادة قديمة أُغلقت أو تهدمت، ثم أعيد ترميمها وإصلاحها لتصبح مساجد. في جميع الأحوال، كان المسجد مركزًا للحياة الاجتماعية. فإلى جانب الصلوات تُنظم فيه دروس تعليم القرآن للأطفال ودروس دينية للكبار وغيرها من المحاضرات والمناسبات الدينية. كان المسلمون يقصدون المسجد لأنه مركز للعلم والعبادة، ولأنه مكان للقاء الأصدقاء وتواصل العائلات وتجمعاتها.

عند وصولنا إلى المسجد، لم أذهب مع أمي إلى القسم المخصص للنساء، بل وجب عليَّ هذه المرة، من أجل المشاركة في المسابقة، أن أتوجه إلى قسم الرجال لألقي خطابي. وبما أنني كنت في السادسة من عمري فلم يكن هناك أي مانع. شعرت بشيء من الغرابة لأني كنت الفتاة الوحيدة في غرفة ملأى

بالرجال، كلهم يحدِّقون فيَّ وينتظرون ما ستقوله هذه الفتاة الصغيرة. بدأت أضواء الفيديو تلمع ودارت الكاميرات بينما وقفت هناك بكل ثقة، بِطولي الذي لا يتجاوز المتر، ورحت أتلو خطابًا مرتلًا من دون أخطاء تُذكر، متوقفة من حين إلى آخر في الأماكن المناسبة لكي أعطي المستمعين التأثير المطلوب. تكلمت مدة خمس دقائق كاملة من دون أن أنظر في الورقة ولو مرة واحدة.

على الرغم من ذلك، حللتُ في المرتبة الثانية، بعد صبيٍّ في العاشرة امتدحوا فطنته وتحليله الديني العميق. واستأت كثيرًا وفكرت في أنه من البديهي أن يكون خطابه أعمق وأفضل من خطابي ما دُمت في السادسة وهو في العاشرة.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، طُلب مني تحضير خطاب قصير للعرض الذي تقيمه المدرسة في نهاية الفصل الدراسي الأول، والذي كان هذه المرة عن أديان الطلاب. وبدل شعور الحماسة الذي شعرت به عند مشاركتي في مسابقة المسجد، ترددت كثيرًا هذه المرة. كان في صفي فتاة مسلمة أخرى من والدينِ تُركيين، لكنهم طلبوا مني وحدي التحدث عن الإنسان المسلم.

لماذا لم يطلبوا منها هي التحدث؟ تذمرتُ بشكل غير معهود، إذ لم أكن أرغب في الوقوف أمام المدرسة بأكملها لأتحدث عن تفاصيل الحياة الإسلامية، التي كانت جزءًا من حياتي الخاصة خارج نطاق المدرسة.

قالت أمي: «ربما يعتقد مدرِّسوكِ أنك، نظرًا لمهاراتك الخطابية الممتازة، قادرة على شرح ماهية الإسلام بطريقة أفضل». شعرتُ بالغيرة تجاه إيمانها الواثق، وتجاه التلقائية التي يدخل بها هذا الإيمان في كل تفاصيل حياتها، حتى مع صديقاتها غير المسلمات. وعلى الرغم من أنها لم تحاول مرة واحدة أن تخوض معهن في مواضيع دينية، إلا أن حكمتها ونصائحها المشبعة بالإيمان

كانت تظهر تلقائيًا في كلماتها وتصرفاتها. لم تكن تسهب في الحديث عن الإسلام، لكنها كانت تحياه في كل لحظة من حياتها. أما أنا فكنت أتنقل بين عالَمين منفصلين، بينهما سلسلة من الحلقات المفككة المزعجة، بينما كان عالماها مترابطين ومليئين بالابتسامات السعيدة المحترمة.

كنت أحب حضور المدرسة الدينية يوم الأحد والتي كنا نطلق عليها اسم «المدرسة» بالعربية. لم يكن المسجد كبيرًا بما يكفي لتوفير تسهيلات دراسية مناسبة للمئات من الطلاب الذين يحضرون الصفوف مرة في الأسبوع، فكان يتم استئجار إحدى المدارس المحلية في صباح يوم الأحد من أجل هذا الغرض. كنا نُقسَّم إلى مجموعات حسب العمر وكنا نأخذ أربعة دروس، كل درس يقدمه مدرس مختلف، غالبًا ما يكون من الأهالي الذين يتبرعون بوقتهم وجهدهم للتحضير وإعطاء الدرس. كل أسبوع كنا نُعطى واجبًا منزليًا، وفي نهاية الفصل تُعلن النتائج، يلي ذلك احتفال آخر الفصل الدراسي، تمامًا مثل المدرسة العادية.

حين كنت في المرحلة الابتدائية كنا نمضي الدروس في تعلم مبادئ الدين. كنت أحب سماع قصص الأنبياء وقصص الناس الذين عاصروهم، وكان هذا هو الجزء المفضل لديَّ من دروس «المدرسة». تعلمنا هناك أيضًا أن الله رؤوف رحيم، وأنه خلق الكون وما عليه، وأما البشر فكانوا أفضل ما خلق الله. ولطالما حازت هذه الفكرة على إعجابي الشديد، فأنا ابنة لوالدين آسيويين: وحده الأفضل كان مقبولًا، في أي حال. وأخيرًا علمونا أن العالم الذي نعيش فيه ليس هو النهاية، بل إنَّ ثمة مزيد آتٍ، وهي الجنة، وقد تخيلت الجنة في ذلك العمر مثل مصنع الشوكولاتة في رواية «روالد داهل».

وبما أني كنت الطالبة الأولى في «المدرسة»، فقد وقع عليَّ الاختيار لأظهر في فيلم فيديو يُعلم الأطفال طريقة أداء الصلاة. ألبستني أمي في ذلك اليوم أفضل

أثوابي الآسيوية التقليدية المؤلفة من السروال والقميص الطويل وعقدَتْ شعري في جديلتين وثبتَتْ حجابًا أبيض قطنيًا حول رأسي. حشرني والدي في السيارة وانطلقنا متجهين إلى البيت الذي كان سيتم فيه التصوير في الطرف الآخر من لندن. كنت سأصبح نجمة أفلام، لقد نادتني الشهرة مبكرًا.

قد يذيع صيتي في كل مكان، وتتقاطر عليَّ طلبات الزواج من كل حدب وصوب... لكن ليس في سن السادسة طبعًا. لقد وضعت هذه الشهرة الأسس لشخصيتي العامة في أذهان حلقتنا ومحيطنا الاجتماعي. كما غرس والداي في قلبي بذور الإيمان والحب والخدمة الاجتماعية.

وكنت أرى أن حياتي ستبدأ بالتفتح تمامًا مثلما يحدث في أفلام ديزني الكارتونية. كنت أعرف أنني عندما أكبر ستُكشف أمامي أسرار فرسان الأحلام والزواج، وقتها كان كافيًا أن أقرأ حكايتي المفضلة، «الجميلة والوحش»، ليخفق قلبي وتضطرب معدتي. لقد كانت قصة حب مثالية ملأى بالحقيقة الرومانسية الأبدية: فبطل القصة كان وسيمًا جدًّا حين كان أميرًا، أما حين أصبح وحشًا فقد كان مثالًا للعنفوان والصبر. وسواء أكان وحشًا أم إنسانًا فإنه في كلتا الحالتين كان صادقًا ومخلصًا في حبه. كانت البطلة رشيقة وجميلة، واستطاعت أن ترى جمال الوحش الداخلي. تدور القصة كلها حول شجيرة الورود البيضاء. كان الوحش يقطف إحدى الورود الرائعة كل ليلة، ليقدمها للحسناء عربونًا عن محبته، حتى كسب ودها. كانت في حديقتنا الخلفية أيضًا شجيرة ورد أبيض رائعة، تتفجر بتلاتها بالنقاء الثلجي نفسه الذي تُصوره رسوم الحكاية. كانت الورود تتمايل ببراءة، ناشرةً عطرها الساحر في مواسم الصيف الملأى بالحكايات في طفولتي.

الخبز

كل الآباء الآسيويين يريدون لأولادهم أن يتزوجوا ويستقروا، هذه حقيقة معروفة عالميًّا. إنه الواجب الأخير والأهم الذي ينبغي على الوالدين تقديمه لابنهما أو ابنتهما. كما أن مساعدة الأولاد في إيجاد الشريك المناسب هي من المسؤوليات الدينية. ولا يهنأ بال الأب والأم إلا عندما تتزوج ذريتهما. عندها فقط يستطيعان تنفس الصعداء. ونظرًا لجسامة الالتزام وأهميته والتأثير الضخم الذي قد يترتب عليه، يبقى الوالدان في حالة قلق بشأن إيجاد الشريك المناسب لابنهما أو ابنتهما بدءًا من لحظة الولادة. وتصبح مهمة الوالدين والحموات والخالات والعمّات إطلاق شبكة بحث محمومة ووضع قوائم بالمرشحين المحتملين. ولا داعي لتدخل الولد أو البنت، إذ يكفي أن يظهرا في اليوم المحدد، للضرورة فقط، لكي يحضرا الاجتماع العائلي كما فعلنا أنا وعلي.

وتُحدد الأعراف الثقافية كيف تتم عملية اللقاء؛ فقد تتضمن حضور أفراد من كلا الطرفين طبعًا إلى جانب تقديم الواجب والشاي والاختبارات اللطيفة، والصارمة في الوقت ذاته، للطرف الآخر. ويمكن ألا يحضر الولد أو البنت. الشيء الوحيد المؤكد هو أن هذا اللقاء قد يُحدث تغييرًا مهمًّا جدًّا في حياتهما.

أما الخالات السمينات، تلك الأمهات الممتلئات الصدور بسراويلهن وقمصانهن التقليدية المصنوعة من النايلون، وأوشحة الشيفون الملقاة بمهارة على رؤوسهن، فلهن سلطة هائلة على التحكم في مصائر الشبان والشابات، كذلك في مصائر الأهل الباحثين عن شريك لحياة ابنهم أو ابنتهم، بحكم دورهن كخَطَّابات. فخلف الأبواب المغلقة وحول فناجين الشاي والمقالي المقرمشة، تقوم الحموات المحنَّكات والعمات لابسات النايلون والجدَّات بدور الخطابات إلى جانب الخالات، كل واحدة منهن تتحدث بلسان السلطة التي منحتها إياها الحكمة والخبرة، تتحدث إلى الأم المتلهفة لإيجاد عروس لابنها.

الأم الملهوفة: «لقد كبرتُ على العناية بأحمد وحدي».

العمة «نايلون»: «لقد حان الوقت كي تجدي له زوجة».

الأم الملهوفة: «أعرف، ولكن أين أجد الفتاة المناسبة؟ فتاة تستطيع أن تطبخ وتهتم بالبيت جيدًا كما فعلنا، وتمنحني أحفادًا، ولا تذهب هنا وهناك متخلية عن مسؤولياتها. بنات هذه الأيام لا يهتممن إلا بأنفسهن، ولا يملكن صبرنا ولا جَلَدنا. ها أنتِ جدة الآن وقد تدبرت أمر زوجات أبنائك بشكل جيد. إن الأمر صعب جدًّا مع فتيات هذه الأيام».

العمة «نايلون»: «أنت على حق، هذا صعب جدًّا؛ فكثير من الشبان يتزوجون ويطلِّقون شئت أم أبيت. وابنك أحمد ولد طيب. هل طرحت عليه فكرة العودة إلى البلد لاختيار العروس؟ إن الفتيات هناك هن الأفضل، فهن مدربات ومطيعات، ويعرفن تمامًا كيف يعتنين بالحماة».

الأم الملهوفة: «أتكلم مع أحمد عن الذهاب إلى البلد للبحث عن عروس؟ يااااه! إنه لا يرغب بفتح حديث الزواج أصلًا؛ فهو لا يشعر بحاجتي لمن

يساعدني في أعمال المنزل، إضافةً إلى أنه (ويرقُّ صوتها) يحتاج إلى امرأة وأنا كبرت. من سيعتني به عندما أموت؟».

العمة «نايلون»: «هذا خطؤك، فالأولاد لا يستعدون لهذا الأمر أبدًا، عليك أن تباغتيهم. اعرضي عليه بعض الفتيات الجميلات، حتى الولد الذي يرفض الزواج لا بد أن يقع في حب إحداهن. لا يمكن للأولاد مقاومة فتاة جميلة. يتعين عليكِ تشجيعه وإقناعه قليلًا، أو ربما تدفعينه دفعًا، وصدقيني سيشكرك في النهاية».

تتوقف العمة «نايلون» وتنظر بمكر في كل الاتجاهات بأسلوب رجال المافيا في فيلم «العرّاب»، وعلى الرغم من أنه لا يوجد أحد على مرمى السمع إلا أنها تتكئ بطريقة المتآمرين وتتابع الكلام.

العمة «نايلون»: «سأخبرك كل ما تحتاجين إلى معرفته للعثور على كَنَّة. أربعة أشياء فقط وبعدها سترتاحين وتفرحين وتسعدين. أولًا: يجب ألا تُدخلي ابنك في الموضوع، فهو لا يعرف ما يريده، ولن يفعل شيئًا سوى تعقيد الأمور. ثانيًا: تجنَّبي الفتيات من نوعية: «أنا-مستقلة-وأعتمد-على-نفسي»، فهذه ليست من الصفات المطلوبة في كَنَّة المستقبل، وهذا النوع غير قادر على الالتزام».

الأم الملهوفة: «همممم، نعم... همممم. هذا حكيم جدًّا، حكيم جدًّا. نعم أنت على حق. يا لها من حكمة رائعة!».

العمة «نايلون»: «ثالثًا: احرصي على أن تكون جميلة وأن تتقن فن الطهي، وكلما كانت أحدث سنًّا كان ذلك أفضل. وأخيرًا ابحثي عن فتاة من الثقافة نفسها كي تتفق معك».

عندما أكبر ويصبح لديَّ العديد من الأبناء الذين أقلق على تزويجهم، عندها سوف أكتب جزءًا ثانيًا لهذا الكتاب وأسميه «عروس بوشاح النايلون».

قوانين الخالات السمينات

إن البيئة الطبيعية التي تنتعش فيها الخالات هي الأعراس والتجمعات وحفلات العشاء وغيرها من الأماكن التي تتواجد فيها الشابات العازبات. وأكثر ما يميز الخالات هو صدورهن العامرة وبطونهن المكورة وأيضًا حُبهن لمضغ أوراق نبات التنبول. وهن إما متزوجات من قبل ولادة فرقة «الرولينج ستونز»، وأولادهن الكثر قد تزوجوا وأنجبوا قبيلة من الأحفاد، ما يجعل منهن خبيرات في الزواج، أو هن عوانس وحيدات ممن كرَّسن أنفسهن الآن لتزويج الأجيال الأصغر سنًّا.

وكفتاة شابة كانت لديَّ شكوكي العميقة وانتقاداتي اللاذعة للخالات؛ فقد كن يظهرن لي مثل الجِنيَّات اللواتي لا هدف لهن سوى إشعاري بالتفاهة والعجز. لقد كنت مقتنعة أن سبب وجودهن في الحياة هو إتعاسي وتعقيد حياتي، وذلك بالحط من شأن طموحاتي وأحلامي. وفي المقابل كان عليَّ أن أكون مهذبة ولطيفة معهن، لأنهن يحملن مفتاح الوصول إلى أميري وفارس أحلامي، وهن مفتاح الحياة السعيدة. وطبعًا كان عليَّ الالتزام بقوانين البحث التي يجب أن تبقى غير معلَنة:

١- يجب أن يلعب طرف كبير ثالث دور الوسيط ويُفضَّل أن تلعب إحدى الخالات هذا الدور، فمن المعيب على أحد الطرفين أن يدق الباب على الطرف الثاني ويقول: «مرحبًا، لِمَ لا يتعرف ولدانا بعضهما على بعض؟».

٢- يجب على الطرفين القيام بالكثير من الاستفسارات عن طريق المعارف لاكتشاف ما يحتاجان إلى معرفته عن الطرف الآخر وعائلته. ولا يستطيع الطرفان الانتقال إلى المرحلة التالية من العملية، ألا وهي ترتيب اللقاء، ما لم تتوفر لديهما المعلومات والتوصيات الكافية.

٣- يجب أن تصدر المبادرة من طرف الولد، فطرف الفتاة لا يمكن أن يبادر وإلا ستُتهم عائلتها بالتهافت. وإن رغبت عائلة الفتاة بالمبادرة في التعرف على شاب ما فعليها أن تفعل ذلك من خلال طرف ثالث يجعل الأمر يبدو وكأنه فكرة أهل الشاب.

٤- يجب أن تكون الفتاة أصغر من الشاب ولو بيوم واحد، والسبب لا يعود إلى تجنب الرجل لتجاعيد المرأة، بل ليتمكن من فرض سيطرته عليها، وأيضًا لكي تكون الفتاة «مرنة». وكلمة «مرنة» هذه هي كلمة خاصة وحصرية بطرق الزواج الآسيوية. تشير «مرنة» إلى قدرة الفتاة على التكيف مع عادات عائلة الولد وطرائقها، فكلما كانت الفتاة صغيرة في السن سهل تشكيلها كالعجين.

٥- يجب أن تكون الفتاة أقصر من الولد حتى بعد ارتداء الكعب، لتحقيق التناسب الجمالي عند وقوفهما جنبًا إلى جنب. ويمكن للولد استخدام «الجِل» لرفع شعره ليكتسب طولًا إضافيًّا.

٦- على الفتاة أن تكون أقل تعلمًا من الولد، ليتمكن الزوج من الإجابة عن أي سؤال بالقول: «لأنني زوجك وأكثر ثقافةً منك لذا فأنا على حق. لا تحاسبيني!». ويجب أن يقولها بطريقة واثقة ومليئة بالعنفوان.

٧- يجب أن تكون عائلة الولد أغنى من عائلة الفتاة كي يستطيع أن يتكفل بها ماديًّا. ويجب أن يكون لدى الولد عمل ثابت، ويفضَّل أن يكون له لقب مثل طبيب أو طبيب أسنان أو محاسب.

٨- يجب أن تكون الفتاة فاتحة البشرة.

٩- ومن المهم أن تكون «ربة منزل» و«بيتية الهوى». تعني «ربة منزل» أن تكون ماهرة بأمور التنظيف والطبخ والغسيل وأعمال المنزل الأخرى، أما «بيتية الهوى» فتعني أن يكون لها ولع طبيعي بهذه الأعمال.

١٠- «أخلاق حسنة، تديُّن، ومن عائلة طيبة. هذا ما يجب أن تبحثي عنه». هكذا أخبروني مرارًا وتكرارًا. يعني الزواج في التقاليد الآسيوية أن تصبح المرأة جزءًا من عائلة جديدة؛ لذا فاختيار العائلة «الطيبة» هو عامل مهم جدًّا، وهو يعني أن يكون لأفراد هذه العائلة سمعة طيبة قائمة على التقوى والإيمان، وأن يقوموا بأعمال خير وعطاء مثل تقديم الخدمات للمجتمع وتوزيع الصدقات. يمكن للفضائح أن تدمِّر سمعة العائلة لسنوات، وأن تؤثر سلبًا على فرص زواج أبناء العائلة. كان الناس يحاولون إسكات الفضائح بالسرعة القصوى. ومن أهم معايير العائلة «الطيبة» هي أن تكون من البلد نفسه «في الوطن» ومن الإقليم نفسه ومن المدينة نفسها والقرية نفسها، والأكثر إثارة للجدل أنه في بعض المجتمعات لا تقبل طلبات الزواج إلا إذا كان المتقدِّم من الطبقة الاجتماعية الهندية نفسها، مع أن الدين الإسلامي يصرُّ على أن الناس كلهم سواسية ويعارض فكرة الطبقات تلك.

إن هذه القواعد الثقافية غير المعلَنة تتعارض مع الكلمات التي جاءت على لسان الرسول الكريم ﷺ والتي تلخص معايير ومواصفات الشريك المرتقب بحكمة وبساطة: «من تزوج امرأة لمالها وَكَلَهُ الله إليه، ومن تزوجها لجمالها رأى فيها ما يكره، ومن تزوجها لدينها جَمع الله له ذلك».

على الرغم من كل القوانين الثقافية إلا أنه من المهم للطرفين ألا يُظهرا الكثير من الحساسية أو الانتقائية عند اختيار الشريك. فالخَطَّابات قد يفقدن اهتمامهن بالعائلات التي ترُد الخاطبين خائبين لأسباب واهية. ومن المهم أيضًا ألا يُظهر الطرفان لهفة كبيرة، لأن رائحتي التهافت واليأس مكروهتان في كل الثقافات. لكن الشروط أكثر صرامة في العادات الآسيوية، إذ يُعاب على الفتاة إظهار رغبتها في الزواج مهما كانت مُلحة. فاهتمام النساء يجب ألا

تثيره الترَّهات الدنيوية كالرجال. وربما في المجتمعات التقليدية القديمة، حين لم يكن للمرأة أي حق تقريبًا في اختيار شريكها، لم يكن أحد يلقي بالًا لاهتمامها ذاك. وإن سألت إحدى الخالات أو الحموات المحتمَلات الفتاة: «هل أنتِ راغبة في الزواج؟» عليها أن تحمرَّ خجلًا وأن تغضَّ بصرها بخفر وتهمس قائلة: «هذا الأمر بيد الله، كل البنات يرغبن في الزواج طبعًا».

إن شيئًا ما في جوهر هذه العملية كان يجعل الفتيات يتشنجن والشبان يهربون فزعًا. هذا الشيء هو الحرج. كلنا نعاني من هذا التقليد أولادًا وبناتٍ. أما الآباء والحموات والخالات فهم المتحكمون فيه وهم الممثلون الرئيسون وهم الكومبارس، أما الشاب والفتاة فيظهران كضيوف شرف في هذه المسرحية. وقد أُخبرنا أن الأمور قد لا تسير بشكل رائع، لكن البحث عن الشريك حسب التقاليد قد أثبت نجاحه على مدى الأجيال. «هل تريدون تغيير الكون، أو إنكم تعتقدون أنه من البساطة إيجاد زوج رائع والعيش معه بثبات ونبات؟»، من يجرؤ على معارضة قول كهذا؟

* * *

اعتدنا في صغري على الخروج في نزهة عائلية بالسيارة بعد ظهر يوم الأحد، وأحد أهم أسباب هذه النزهة هو الاستماع إلى إذاعة «نور الشمس»، وهي أول محطة إذاعية آسيوية كبيرة في لندن. كان برنامج بعد الظهر يستقبل مكالمات من أشخاص راغبين في العثور على نصفهم الثاني، وكان مخصصًا للشعوب شبه القارِّية التي تضم مسلمين وهندوس وسيخ وحتى مسيحيين. كان المتصلون على الأغلب من الأمهات الباحثات عن زوجات لأبنائهن أو شبانًا آسيويين ممن وصلوا إلى إنجلترا حديثًا ويرغبون في الحصول على زوجة تحمل جواز سفر بريطاني. وعلى الرغم من صغر سني إلا أنني كنت أجد

البرنامج مضحكًا وطريفًا، إذ كنت حينها غافلة عن تأثير تلك المواقف على حياتي عندما أكبر. وربما لهذا السبب كان الجميع يتتبعون البرنامج بجدية.

قالت السيدة العجوز بلكنة ثقيلة تخللتها بعض الكلمات باللغة الأُردية: «أنا أبحث عن زوجة لابني»، فسألتها المذيعة بصوت ناعم جاد: «أخبريني ما مواصفات الفتاة التي تبحثين عنها؟». كنت دائمًا أتساءل عما إذا كانت المذيعة تكتم ضحكاتها، فعلى الهواء كانت تبدو في غاية الاهتمام والجدية.

«أريد فتاة في حوالي الثامنة عشرة، بيضاء، ربة منزل وبيتية الهوى، وبنت عائلة. ولا بد أن تكون بيضاء ونحيفة وأن تكون أنهت دراستها بامتياز. لا أريدها طويلة. أرجوك بيضاء وبيتية الهوى وماهرة في أعمال المنزل.»

«حسنًا» تابعت المذيعة الآسيوية: «أخبريني ما مواصفات ابنك؟».

«إنه في الثلاثين، طوله ١٦٢ سم، بنيته قوية، ويدرس المحاسبة». ابتسمتُ وانتظرت أن تتدخل المذيعة العذبة اللسان لتكشف التعارض بين ما كانت المرأة تقدِّم وما كانت تطلب. لكن لم يبدُ أن أحدًا قد لاحظ هذه المفارقة إلا أنا.

«ما لون بشرته؟»

«إنه أسمر غامق وقد اكتسب بعض الوزن مؤخرًا بسبب طبخ أمه». بدا صوتها وكأنه يشرق بتألق عبر موجات الأثير.

«وهل تريدين أن تكون الفتاة عاملة؟»

«لا نمانع في عملها قبل الزواج، إننا متمدنون جدًّا، يمكنها أن تستقيل بعد حصول ابني على شهادة المحاسبة لتعتني بنا نحن الاثنين.»

ومع إصرار الحماة على نقطة التمدن كنت متأكدة أنهم غيروا أسماءهم الآسيوية الجميلة إلى أسماء إنجليزية.

«شكرًا لك. كانت معنا السيدة «شوجر» من «هونسلو» وهي تبحث عن زوجة لابنها «هاري» الذي يبلغ الثلاثين من العمر، وطوله ١٦٢ سم، أسمر غامق، ممتلئ الجسم ولا يزال يدرس، ويعيش مع أمه التي تبحث له عن زوجة بيضاء، ربة منزل وبيتية الهوى، بنت عائلة، تبقى في البيت للعناية بأمه. الرقم ٣٣٧٨، الدعوة مفتوحة لكل الآنسات الجميلات.»

لقد كانت لعبة غير متكافئة لكن القواعد، على الأقل، واضحة.

التداخل

«الحب يأتي بعد الزواج». هذه هي اللازمة التي كان يرددها إمام مسجدنا دائمًا. كان الإمام شخصية مهمة جدًّا في مجتمعنا، وكان محبوبًا ومحترمًا جدًّا. وكانت هذه واحدة من عباراته المفضلة عن الزواج. كان يقول: «ما هذه الشرارة التي يبحث عنها الناس؟ عندما تتقابلان للمرة الأولى يأتيك مصففًا شعره واضعًا أفضل عطر لديه. أما الفتاة فتتزين وتصل بينما تتقدمها الروائح العطرة. ويتصرف الاثنان بألطف طريقة ممكنة ويبدوان مرتاحينِ وهما يظهران أفضل ما لديهما. ثم يفكران آااه! لقد وقعت في الحب. إنه رائع جدًّا. وهو يقول: ها هو حلمي يتحقق. لكن عندما تستيقظان في الصباح وتشمين بخر أنفاسه، وأنتَ حين ترى شعرها المنفوش كالعفريتة، عندها فقط تدركان ما هو الحب!».

طبعًا لم تكن هذه القصة تشبه قصة «جميلة والوحش» أو الوقوع في حب «جون ترافولتا». لم يكن الإمام مناهضًا للحب، بل كان مناهضًا للحب الأعمى. وقد كان يتحدَّى القصص المنتشرة حول العثور على الشخص المطلوب والوقوع في حبه، ثم الزواج منه والعيش معه في سعادة إلى الأبد. هو لم يفسر ذلك، بل قال إن الأفلام تنتهي فجأة عندما يلتقي «أحمد» بـ«منى»،

وعندما يعثر الأمير على سندريلا، وعندما يحصل الفتى على الفتاة. وفي ذروة الفرح تنتهي القصة. ولكن ما الذي تعنيه جملة: «وعاشا في سعادة إلى الأبد»؟ هل هذا الأبد نسمة صيف لا تنتهي ونظرات لامعة حالمة، أم إنه خلافات حول غسيل الأطباق القذرة، وأقساط المنزل التي لا تنتهي، والفواتير غير المدفوعة؟

إن الحب في الحقيقة تجربة عاطفية بشرية، وهذا أمر لم يكن الإمام يشكك في صحته، فالحب يمكن أن يغير الأشخاص لكنه قوة يجب ترويضها وتوجيهها، ومكانها الصحيح هو داخل إطار الزواج، حيث يمكن لفضائلها الكثيرة أن تشرق من دون حدوث تعقيدات. يمكن للحب أن يزهر وينتعش فقط ضمن هذا الإطار من الالتزام الذي يوفر الأمان الرسمي للزوج والزوجة، وفقط بموافقة رسمية تُعطى للرجل والمرأة للبدء في علاقتهما. إن الزواج هو فعل من أفعال العبادة، والحب هو الهدية التي تُمنح للزوجين في المقابل.

كان الإمام واضحًا جدًّا في كلامه عن أهمية شيئين: موافقة الشخصين نفسيهما وعقد خطي رسمي يعزِّز العلاقة ويعطيها شرعيتها. وحسب كلامه فإن الزواج هو الفرق بين الاتفاق الشفوي والعقد المكتوب. فعند التعامل مع القضايا المهمَّة يطالبك القانون بعقد خطي لحفظ حقوق الطرفين، ويحدد طبيعة العلاقة. عند التعامل مع العلاقات الشخصية، يجب أن تطبق القوانين نفسها. لذا يجب أن يكون الزواج عقدًا بين طرفين يحدد العلاقة التي يتفقان عليها.

شكَّل الحديث عن الحب والزواج والشراكات جزءًا مألوفًا وطبيعيًّا من مراحل نُموي. منذ الطفولة المبكرة علموني أشياء عن الحب، ليس فقط عن الزهور والشوكولاتة، بل أيضًا عن مصاعب الحب وتضحياته ومعانيه المقدسة وأفراحه ومسراته. وعلموني أن هبات الحب الكثيرة والمتعددة لا تأتي

بسهولة، بل تحتاج إلى الكثير من الوقت والصبر. وهكذا كنت أسمع هذه النصيحة، مرارًا وتكرارًا، كنوع من التحضير التدريجي للحب.

كان الإمام يشرح: «ليس الزواج والحب عاطفتينِ عظيمتين مجردتين موجودتين خارج وقائع الحياة». ثم يضيف: «إنهما يأتيان مكبلينِ بكدح الروتين اليومي». وهذه حقيقة يفضِّل معظم الناس، وبخاصة المراهقون الرومانسيون مثلي، تجاهلها. ويتوسَّع الإمام في الشرح قائلًا: «ومع هذا فكل عمل تقومون به كمسلمين هو فعل عبادة».

«وحسب ما جاء على لسان الرسول الكريم ﷺ فإنه من البسيط جدًّا أن تكون إنسانًا، ويكمن ذلك في معرفة الله وخدمة الإنسان، وحتى حين تعتقدون أن مهامكم مملة، ولا ترغبون في القيام بها، فإن قيامكم بأدواركم في الحياة سيرشدكم إلى الطريق الحق - حتى وإن كانت أدواركم بسيطة مثل غسل الملابس ومسح الأرضيات.»

كانت آراء الإمام مصمَّمة لتكون اختبارًا حيًّا للحب، وقد شجع الناس على الحب شريطة أن يتذكروا دائمًا أن الحياة ليست وردية على الدوام، وأن الإخلاص في الأعمال اليومية مثل أعمال المنزل والكنس مهمٌّ مثل الإخلاص في الصلاة والتأمل.

كنا نحضر الكثير من حفلات الزفاف، ربما واحدة كل ثلاثة أو أربعة أسابيع، وكانت كلها مناسبات اجتماعية يُدعى إليها الجميع بصرف النظر عن قرب أو بعد العلاقة. فمن غير اللائق عدم دعوة فلان وعلان من الناس. ودائمًا يأتي المئات والمئات من الناس للاحتفال باتحاد العروس والعريس وعائلتيهما. أما حضور الحفلات فيعتبر واجبًا اجتماعيًّا ضروريًّا والتغيُّب عنه - من دون إبداء سبب مقنع - كان نوعًا من قلة الاحترام لأصحاب الزفاف ونقطة سوداء سيتذكرها الجميع مستقبلًا.

ونظرًا لأعداد الضيوف الهائلة فقد كانت الأعراس تُقام إما في المسجد أو في إحدى الصالات الخاصة بالاحتفالات الكبيرة. كانت الأعراس التي حضرتها كلها منفصلة؛ يتجمع الرجال حول العريس وعائلته من جانب، بينما تجلس النساء في الجانب الآخر سافرات الوجوه، يرتدين أجمل الملابس. كنت أحب الملابس التي نرتديها في الأعراس، فألوانها جميلة قرمزية ووردية ولازوردية وفيروزية وبنفسجية، وغالبًا ما تكون مطرزة بالترتر البراق والكريستال والخرز، وكانت تبدو أجمل لأنها مطرزة على أقمشة أنثوية فاخرة مثل الحرير والشيفون والجورجيت. كنت أرتدي السروال والبلوزة الطويلة التقليديين في الأعراس. وعندما كنت صغيرة، كنت ألبس بلوزة صغيرة مع تنورة. أما النساء والفتيات الأكبر سنًّا فكن يرتدين أثواب «الليلنجا»، وهي عبارة عن صديري حريري مزين بكثير من الخرز مع تنانير طويلة كأثواب الأميرات. كنت أرغب أن أرتدي أنا أيضًا هذه الملابس الخارجة من القصص الخيالية. وكنت أتوق أكثر إلى لبس الساري الذي كانت النساء يرتدينه بأناقة شديدة بحيث يظهر مفاتنهن. لكن الفتيات الشابات لم يكن يُسمح لهن بارتداء الساري. كان عليَّ أن أنتظر حتى أكبر.

تدخل العروس القاعة ترافقها أمها أو إحدى السيدات الكبيرات ووشاحها يغطي معظم وجهها، أما يداها وقدماها فيجب أن تُزيَّن بنقوش الحنة الجميلة. بعض العرائس كن يرتدين أثوابًا حمراء، لكن في تقاليدنا يجب أن يكون ثوب الزفاف أبيض، وقد تختار العروس أن ترتدي ساريًا تقليديًّا. وإن كانت عصرية ترتدي ثوب «الليلنجا». حين كنت صغيرة كنت أركض مع الصغيرات الأخريات إلى جانب العروس كي نتأمل ثوبها وجمالها عن قُرب. وكنت أعود راكضةً إلى أمي وأقول لها لاهثة: «إنها جميلة جدًّا! هل أستطيع أن ألبس ثوبًا كهذا؟» وعندها كانت أمي تقول: «طبعًا، إن ثوبك سيكون أجمل من هذا بكثير».

يبدأ حفل الزفاف بخُطبة، وهي محاضرة قصيرة يلقيها الإمام أو الشيخ يشرح فيها فضائل الحياة الزوجية. وتتم بعدها إجراءات الزواج، حيث يطلب كل من العروس والعريس شخصًا لتمثيلهما في النكاح وهو احتفال الزواج الإسلامي. يبدأ الزواج بأن يسأل ممثلُ العروس إن كان العريس موافقًا على هذا الزواج. وهذا يحدث للتأكد من أنَّ العروس راضية بهذا الزواج. يجيب ممثل العريس بالموافقة. وتستخدم في هذه المرحلة كلمات عربية لإتمام الزواج، فتقول العروس: «أنكَحتُ» ويجيب العريس: «قبلتُ». ومن ضرورات الزواج أن يقدِّم العريس هدية للعروس تُدعَى المهر، وهو في الحقيقة مبلغ صغير من المال يقدمه العريس كعربون محبة لبدء حياتهما الجديدة. تحدد العروس نوع الهدية التي تريدها والتي يمكن أن تكون أي شيء من مصاريف دراسية أو رحلة سياحية أو سيارة، أو أي شيء على الإطلاق. بعدها يتلو الإمام بعض الصلوات ليبارك العروسين. لا تستغرق عملية الزواج أكثر من بضع دقائق.

وحسب القرآن فإن الله يضع المودة والرحمة في قلبَي العروسين، كما يذكر هذا الحب بنوع من التقديس، فيصفه بحس من الطهارة والروحانية كان يبدو لي أعز من الحب الرومانسي العادي. هذه المودة مخصصة للعلاقة الملتزمة، وهي هبة خاصة للذين يلتزمون بعقد الزواج. لذا كنت أريد الزواج: فمقابل الالتزام والإيمان والتكريس، كان هناك وعد قاطع بأن الحب يأتي بعد الزواج، وأنه سيكون لطيفًا وطيبًا وحنونًا. كان الحب والزواج مثل الحصان والعربة، أم كانا العربة والحصان؟

تسبق حفلة العرس عدة احتفالات تقيمها سيدات العائلتين، وما أذكره كفتاة صغيرة هو جلوسي في هذه الاجتماعات وأنا أصغي بانتباه إلى حوارات تشرح طرق إنجاح الزواج. كانت نقاشات الحب والزواج تعني المجتمع كله بما فيه اليافعين من أمثالي. وقد غُرست فينا الرغبة بإنجاح الزواج والعائلة منذ

نعومة أظفارنا، بمنحنا الإرشادات والوسائل اللازمة لهذا الغرض. حتى في المدرسة الدينية علمونا كيف نختار زوج المستقبل. ما المواصفات التي يجب أن نبحث عنها؟ وكيف نغذّي علاقة الحب؟ وكيف نجعلها تدوم طويلًا؟ ربما كنا صغارًا جدًّا في ذلك الحين، لكن الدروس نُسقت بشكل يجعلها تتغلغل في القلب وفي جوهر الكيان.

كان هناك شيء واحد يزعجني، فكل النصائح والتحضيرات بدت وكأنها موجهة فقط للفتيات. وبدا لي من الظلم والغباء ألا يتم إعداد الشبان بالطريقة نفسها. أليسوا هم أيضًا بحاجة إلى أن يكونوا مستعدين للعلاقة؟

جاء في القرآن أن الرجل والمرأة هما ثنائي، خُلِق كل منهما ليكمل الآخر ويساويه ويعادله، لكن الخالات اللواتي يمثلن قوانين التقاليد كنَّ هنَّ أيضًا واضحات جدًّا في آرائهن التي تقول إن نجاح الزواج هو في يد المرأة. لم أكن مرتاحة لهذا العبء، فقد كان يتصادم مع أفكاري عن العدل وفهمي للإسلام.

من ناحية أخرى، كان إمام مسجدنا يعبِّر دائمًا عن حزنه وخيبة أمله من الآمال الضخمة التي يعلقها الشباب على الزواج. كان يعتبر أن على الناس أن يتعلموا كيف يكونون أكثر قناعة، وأن ينظروا إلى الصورة العامة، إذ إنه من المستحيل أن يشعروا دائمًا بجذوة الحب الغامر. وكان يشعر أن الناس تراخوا: «يأتي إليَّ الأزواج اليوم وهم على حافة الطلاق قائلين: «لم أعد أحبه» أو «لم أعد أحبها».» كان يقول هذا ويتنهد تنهد العارف الخبير بهذا العالم ثم يكمل: «لا يمكن أن تستسلمي لمجرد أنك لم تعودي تحبينه، إنه زوجك. لا يمكن أن تحبيه ثم تكرهيه». كان الإمام في العادة حياديًّا وهادئًا، لكن هذا النوع من الاستهانة بالحياة الزوجية كان يزعجه فعلًا.

في سن المراهقة أعطوني كتابًا اسمه «الزواج والأخلاق في الإسلام»، لأتزود منه بمعلومات إضافية تساعدني في الاستعداد للزواج. إن إصدار مطبوعات عن الزواج كان صناعة قائمة بذاتها، وكان الكتاب، مثل غيره من الكتب الإسلامية المشابهة، يعالج الحقائق الضرورية لإيجاد الشريك وكيفية التحضير للزواج وكيف (احم..احم) تحدث العلاقة الحميمة بين الطرفين، وكيفية الحصول على السعادة الزوجية. الهدف من الكتاب هو فتح عيون الشباب على ما تعنيه العلاقة، وكيف يتم بناء العلاقة المتينة والطويلة. كان كل ذلك يرتكز على آيات من القرآن والتقاليد الإسلامية. وبينما كانت صديقاتي يقرأن في مجلات المراهقات كيف يستطعن التقبيل بمشبك تقويم الأسنان، كنت أقرأ عن ضرورة ارتداء الملابس الجميلة والتعطر لاستقبال الزوج في المساء، وعن أهمية امتداحه لجمالي ولطفي. لقد كنا نصل إلى النضج من خلفيات ووجهات نظر مختلفة. هنَّ تعلمن كيف يقلن لا عندما لا يشعرن بالراحة تجاه موضوع ما، وأنا تعلمت أن أكون سعيدة بقول نعم في الظروف المناسبة.

قرأت العديد من هذه الكتب وأعدت قراءتها إلى جانب قراءتي لمجلات المراهقات حتى امتزج النوعان تمامًا.

«أهمية الزواج»

إن الحصول على زوج أو زوجة هو شيء طبيعي؛ فالبشر لم يُخلقوا للوحدة والتبتل.

الزواج هو التزام طويل المدى يرافقه الحب الذي يزداد قوة بمرور الزمن.

جاء في القرآن الكريم: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، كما أن الزواج جيد للذكر والأنثى على حد سواء.

والجنس أمر جيد ولا موجب للخجل والحرج منه، فهو نعمة ويحافظ على متانة الزواج. لكنه يجب أن يتم ضمن إطار الزواج.

وبعد أن تضع الكتبُ الأسسَ، كانت تنتقل بسرعة إلى:

«كيف تعرفين أنه الرجل المناسب؟»

إن الحضور والشخصية والإيمان بالله هي النقاط الأساسية. فهي التي تجعلكِ تتأكدين من أن الرجل سيعاملك دائمًا باحترام. والخيار لك، فلا أحد يستطيع أن يجبرك على الزواج من شخص ما، وإن لم يكن من سبب مقنع للرفض، فلا أحد يمكن أن يمنعه أيضًا.

الثروة والعِرق والطبقة الاجتماعية ولون البشرة و«اسم» العائلة ليست هي معايير الاختيار وفقًا للدين.

الشكل مهم، لكن لا يجب أن يكون هو معيار اتخاذ القرار.

يجب أن تبحثوا عن آباء جيدين لأطفالكم.

* * *

ولطالما تسببتْ عملية الزواج في بعض التشويش والحيرة حول تعقيدات الدين والتقاليد؛ الأمر الذي لم أستطع فهمه، فالقواعد التي تذكرها التقاليد تختلف عن تلك التي يذكرها الدين، ومع هذا فإن الفصل بينهما شبه مستحيل. وخلال نشأتي لم أكن قادرة على لمس الفرق وحتى التناقض بين الاثنين.

لقد خلقت التعاليم الإسلامية أملًا في تحقيق علاقات مثالية فاضلة، وكانت تبدو بسيطة واضحة: اعثري على زوج طيب وتزوجيه والله سيعينك ببث المودة والرحمة في هذه العلاقة. كانت المبادئ الإسلامية تؤكد على أهمية احترام ومحبة الناس لشخصهم، وليس لمواصفاتهم الخارجية. كان الأمر يتعلق بالإيمان والروحانية والطيبة. أما الأصل والثروة والثقافة والطبقة الاجتماعية فلا علاقة لها بالموضوع. لقد مكنت هذه القواعد الأميرة ياسمين ابنة السلطان من الزواج من علاء الدين الفقير الذي كان مثل ماسَة تحت الركام.

أما التقاليد التي تسيطر سيطرة كبيرة على الواقع، فيبدو أنها مختلفة تمامًا عن الدين فيما يتعلق بعملية البحث المحموم عن العريس. يهندس العملية ويديرها معماريان أساسيان: الخالات اللواتي تتفرع منهن الخَطَّابات، والحموات، ويُقصد بهن أمهات عرسان المستقبل. تعود جذور عملية ترتيب الزواج هذه إلى بعض الأساطير الثقافية الضبابية الغامضة التي لا يستطيع أحد فك طلاسمها أو إيضاحها، والتي استمرت حتى يومنا هذا ببساطة. لا أحد ينكر أن العملية تتسم بنوع من الاعتدال: جمع الطرفين معًا، إجراء نوع من التقييم، اتخاذ القرار. الجميع يريدون نتائج إيجابية: تناغم في زواج متين وجيد، عائلتان سعيدتان، وعلينا ألا ننسى الزوجين السعيدين.

* * *

أما ثقافة الإعلام من حولي فكان لها آراؤها القوية عن الحب والرومانسية أيضًا، فقد شاهدت أفلامًا مثل «جريز» و«سندريلا» مرات ومرات بعيون متسعة تواقة إلى العثور على رجل يكملني. مَن الشابة التي لا تفتنها قصة حب «ساندي وداني» أو «سندريلا والأمير»؟ كنت مستعدة أن أكون الأميرة شرط أن يكون أميري الفاتن هو «جون ترافولتا». لا بد أننا سنتقابل يومًا، ونرى

شعلة الحب الصادق تلمع في عيوننا نحن الاثنين، وهذا الحب سيؤدي بنا إلى الزواج في النهاية. أما الزواج فسيقدم لنا السعادة إلى الأبد. هذه هي أسطورة الحب في أبهى صورها. الأفلام والمجلات تؤكد صحتها. لكن معنى الحب لم يكن واضحًا تمامًا، فالقصص كانت تنتهي قبل أن تشرح لنا تمامًا ما سبب أهمية الحب؟ وماذا يعني بالنسبة إلى الحياة اليومية؟

كانت حفلة الزفاف الفاخرة تتوج قصص الحب دائمًا، وهكذا يفترض أن تكون حياة الجميع. وإن لم تستطع تحقيق ذلك فهذا يعني الفشل. فالحب ببساطة لا بد أن يأتي إذا انتظرتِ وقتًا كافيًا وإن كنتِ جميلة بما فيه الكفاية.

بالنسبة إلى النساء، الحب انتظار عاجز، مثل قصة «الجميلة النائمة» الممددة في انتظار وصول الأمير لينقذها. إن «العثور» على الحب هو طموح فيه مفارقة كبيرة، فهو ضروري، وفي الوقت نفسه لا يمكن الحصول عليه إلا بالانتظار.

تبدأ قصة الحب حسب المعايير الإسلامية بالعكس: في الإسلام يتزوج الرجل والمرأة فيكملان دينهما أولًا، ثم تحل عليهما نعمة الحب، شرط أن يتذكرا طوال الوقت أن يعملا بنفسيهما على تأجيج هذه العلاقة. فيجلب الحب لهما السعادة، والرومانسية، والرضا الطويل المدى، والتكامل. إن الحصول على شريك يعينك على أن تكوني إنسانة أرقى ومسلمة أفضل، وعلى أن تتقربي من الله عز وجل.

الحب استباقي، تعملين على تطويره أنت، وعائلتك، والرجل المعني، وعائلته، وفي الحقيقة المجتمع بكامله. ليس إيجاد الشخص إلا الخطوة الأولى: إن طريقتك في التعامل مع ما يحدث بعد الزواج هو مفتاح النجاح. فالزواج مجرد بوابة، والسحر كله يكمن في الجهد الذي تبذلينه في سبيل إنجاح هذا الزواج، مع أن الجهد ليس أمرًا باهرًا كالرومانسية.

تركز صفوف «المدرسة» ومحاضرات المسجد وخطب الأعراس، وحتى نصائح أفراد العائلة ومرشدي المساجد على ماهية الزواج وضرورته وتبعاته. كانت هناك نصائح كثيرة حول طرق إيجاد العريس، تمامًا كما كانت هناك نصائح أخرى كثيرة للاحتفاظ به.

يقول الأعمام الكبار وهم يلوِّحون بأصابعهم: «الزواج لا يعني حياة وردية».

تقول الخالات محذِّرات: «الزواج صعب في أول سنتين. افعلي كل ما يطلبه منك خلال هاتين السنتين، وبعدها سيصبح كالخاتم في إصبعك حتى آخر أيامكما معًا». تمثلي الطريقة في النجاح في استقرار الوضع كي تحصلي على ثمار الزواج. إنها خطة استثمارية للراحة والسعادة في المستقبل.

كنت أريد أن أجد الرجل المطلوب من خلال الطرق التقليدية المجرَّبة، كي أصل من خلالها إلى الرومانسية، وأقع في الحب وأكمل ديني. وبما أننا - نحن الاثنين - نشترك في العقيدة نفسها، فسوف نعمل على إيجاد السلام والرضا اللذين وعدَنا بهما الله كزوجين. وبعدها نعيش في ثبات ونبات إلى الأبد، آمين.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت أريد أشياء كثيرة. كنت أريد الأمير الوسيم والحب الرومانسي والعيش بسعادة إلى الأبد. كنت أريد اتباع العادات في إيجاد العريس واتباع أخلاقيات الإسلام في الزواج. وكنت أريد اكتشاف الحب والتناغم الروحيين أيضًا. كنت أريد الاقتراب من روح الله أكثر.

لكن ما أردته فعلًا كان بسيطًا جدًّا: أن أفهم التناقضات الطاغية والتعقيدات التي تواجه مسيرتي كامرأة مسلمة شابة.

الباب الثالث

عملية إعداد الأميرة

السيرة الذاتية

تلا لقاء التعارف الأول سيل ثابت من الخُطَّاب كانوا يندفعون داخلين وخارجين من بوابة البيت، مصحوبين بأهلهم وأصدقائهم، أو بالأئمة والأقارب. وأحيانًا قليلة كانوا يأتون وحدهم، كي يعطوا الانطباع بأنهم يمتلكون ثقة كافية بالنفس لمواجهة الأنسباء المحتملين من دون معونة من أحد. وكنا نصنع السمبوسك كل أسبوع.

وعلى الرغم من تدفُّق العرسان، كان من المهم ألا نفقد التركيز، فإيجاد الشخص المناسب هو حجر الأساس. وببساطة لم يكن هناك وقت لنضيعه؛ فزواجي، مثل زواج أي شخص آخر في العائلة، هو مسعى جماعي، وكنت أنا مِحوره، وكان من البديهي أن يشارك الجميع في المشروع. وفي النهاية سيتم اختيار زوجي من بين قائمة من المعارف جمعتْها العائلة والأصدقاء والخَطَّابات. وكلما قابلنا أشخاصًا أكثر اتسعت دائرة الاختيار. إحصائيًّا كان هذا سيعطيني عددًا أكبر من الخيارات واحتمالات أكبر في إيجاد الرجل المطلوب.

وللمشاركة في طقس الزواج كان على كل مرشح أن يكتب وصفًا ذاتيًّا لنفسه يُعمَّم على كل العائلات المرتقبة والخطابات. كانت هذه العملية تتم عادةً كلاميًّا، لكن أحيانًا كانت المعلومات تُكتب في وثيقة تشبه وثائق السيرة

الذاتية، وقد تضم صورة شخصية. وبعد اختراع البريد الإلكتروني والإنترنت أصبحت هذه الوثائق تُرسل إلكترونيًا لتسريع عمليات التعارف، ونشر المعلومات عن الشركاء المرتقبين حول العالم. كانت إلكترونات متعطشة إلى الحب تُبعث الواحدة تلو الأخرى. بعد ذلك كانت هذه التفاصيل الشخصية للغاية تُرفق بوصف لشخصية البطل المرغوب والمواصفات والمزايا التي يبحث عنها لدى الشريك. كانت دقة هذه العملية تفوق دقة أعمال المخابرات السرية في تتبع المنشقين والمعارضين.

وبصراحة لقد أسرتني كلمة «السيرة الذاتية» بشدة، لكن ونظرًا لكوني باحثة رومانسية عن الحب، فقد أثارت الرعب في قلبي أيضًا، فهذه القائمة التقنية أزاحت كل العاطفة والإنسانية من عملية البحث، حتى «جون ترافولتا» نفسه ما كان لينجح في هذا الامتحان بالتأكيد. وقد قاومت كتابة لائحتي الخاصة قدر الإمكان لأني لم أرد لإنسانيتي أن تُسلب مِني حين أُدرج مواصفاتي في سلسلة من النقاط. ولكن، بما أنه لا يمكن ترتيب الزواج المرتقب من دون هذه اللائحة، فقد استسلمت للأمر على مضض.

واتضح أنها وثيقة مفيدة للغاية للباحثين بالنيابة عني. فقد ساعدَتهم فعلًا في تحديد مواقع المرشحين المناسبين والتعرف عليهم من دون الحاجة إلى وجودي، تمامًا مثل عملية البحث عن الموظف المناسب في المكان المناسب. وقد تعلمت أهمية أن تكون المعايير واضحة، إذ إن المعايير الغامضة قد تجذب بعض الخيارات غير المناسبة. لكن كان من المهم أيضًا ألا تكون المعايير متزمتة جدًّا، بل كان يجب أن يكون هناك انفتاح على تقبل بعض الهفوات والنواقص، لتجنب تهمة التكبر والعناد واستبعاد الفرص عمدًا.

التقطت قلمًا وورقة وبدأت أكتب وصفًا لنفسي. تَخيّلوا حياة كاملة، وشخصًا كاملًا، وعالَمًا مختبئًا في الروح، كلها مختصرة في بعض الكلمات.

في أوائل العشرينيات، لم يسبق لها الزواج، جامعية، متدينة، محجبة، الطول متر واثنان وستون سنتيمترًا، رشيقة، من عائلة محترمة.

بكتابة هذه الكلمات القوية ودعمها بتوصيات شخصية من الخَطَّابة، أو من حزب الباحثين من طرفي، بالإضافة إلى سمعتي وسمعة عائلتي في المجتمع، كان لا بد لآمالي في الحب والزواج أن تنتعش، فهذه الكلمات هي قائمة ترشيحي للزواج.

بعدها كان عليَّ أن أعثر على الكلمات التي أحدد بها مواصفات العريس المثالي:

وسيم

الطول بين متر وثلاثة وسبعين ومتر وثمانية وسبعين

أنيق جدًا

أكثر رجال العالم وسامة، فأنا ببساطة ما كنت لأتزوج من هو أقل من ذلك.

رائحته عطرة

وسيم (هل سبق وذكرت «وسيم»؟)

* * *

هل أنا في الثالثة عشرة؟ نظرت إلى القائمة بهلع، لقد كتبت القائمة نفسها، مجموعة من الكلمات انبثقت من روايات «عبير» ومجلة «سفنتين» و«بريدجت جونز» وتبدت كلها أمامي على الورق. لقد كانت حديثًا جانبيًّا تافهًا لفتيات مراهقات وإضافة إلى موسوعة غراميات المراهقين الصغار. إن ما ذكرته في القائمة هي أمور مفروغ منها؛ فالجميع يرغبون في شخص جميل وأنيق، لكن هذه الأمور ليست مهمة كشخصية العريس. ألا يدعوني ديني وثقافتي إلى النظر إلى الشخصية والطبع قبل كل شيء؟

إن الوصف الذاتي الذي يكتبه المتقدم لا يكشف شيئًا عن شخصيته، تمامًا مثلما لا تكشف الكلمات التي كتبتها شيئًا عن شخصيتي. يمكن للمرشح أن يلبس أفضل ملابسه وأن يسرِّح شعره ويمشط لحيته ويصل في أبهى حُلة على شرف اللقاء. وفي الواقع فإن الضغط والقيود التي تفرضها العملية قادرة على كشف كل ما تحتاجين معرفته عن شخصية الشاب. فالعملية محفوفة بالمخاطر والتوتر، ما يدفع شخصية المرشح الحقيقية إلى الطفو على السطح صارخة، كاشفة لك الحقيقة برُمتها.

يجب ألا يكون هدف البحث عن الحب عذرًا للسلوك السيئ. فنوعية البحث وطريقته والتعامل مع القضية برمتها تكشف شخصيتكِ للطرف الآخر.

لقد كتبت وصفًا مناسبًا صنَّفت من خلاله متطلباتي وقسمتها إلى فئتين: «الصفات الضرورية»، و«الصفات المستحبة».

الصفات الضرورية

ذكر

عازب

من المهم الإعلان عن البديهيات.

مسلم متدين

كان هذا أمرًا مهمًا بالنسبة إليَّ، إذ لم أكن أتخيل أن أتزوج من شخص غير مسلم. كنت أشعر أنني بالزواج من مسلم سأكون قادرة على مشاركة قيمي وأهدافي مع شريك حياتي. لم أكن أريد شخصًا مثلي تمامًا، بل كنت أريد

شخصًا يؤمن بمبادئ شبيهة بمبادئي. وكونه مسلمًا يؤكد على هذا الإطار ويسمح بتحقيق هذه الأمنية. كنت أريده متدينًا لكي يفهم الدين ويسعد بممارسته، وهذا يعني ألا يتقبل العادات والتقاليد التي تدَّعي الدين من دون نقاش. لم أكن أريد شخصًا يتقبَّل كل ما يراه أمامه من تقاليد اجتماعية كما هي ويعيد تعليبها باسم الدين.

في العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات

لم يكن لديَّ مانع إن كان أصغر مني بسنتين أو ثلاث. ولا بأس إن كان أكبر مني بسبع سنوات. كانت الخَطَّابات تضعن الحد الأقصى لفارق العمر ثماني أو عشر سنوات.

مهتم بالأنشطة الاجتماعية

كنت أريد شخصًا يهتم بالمشاركة فيما يجري من حوله، ويحاول جعل العالم مكانًا أفضل. كان لديَّ شعور قوي تجاه العمل الاجتماعي، وكنت مشارِكة فعالة في شؤون المجتمع، وكنت أتوقع الشيء نفسه من شريكي. لم أكن أريد أن أكون زوجة لرجل مهووس بكرة القدم، بل أردت رجلًا يستطيع مساندتي، ويفخر بالعمل الذي حققناه معًا عندما نكبر ونجلس جنبًا إلى جنب في مقعدنا المريح أمام الموقد، والتجاعيد تملأ وجهينا، أنا أحيك الصوف وهو يقرأ الجريدة.

أن يكون سعيدًا بحجابي

شعرت بأنه يجب عليَّ أن أذكر بدقة هذه المسألة تحديدًا، مسألة أن يرحب رجل مسلم بارتدائي الحجاب والملابس المحتشمة، لأن هذا، في رأيي، من أهم متطلبات الإسلام. كان يبدو أن الكثير من الرجال المسلمين لم يكونوا

يرحبون بارتداء زوجاتهم الحجاب. لم أكن أريد منه أن يطالبني بفعل ذلك، بل أن يؤيد قراري على الأقل. لم أكن أريده أن يتباهى بجمالي، بل كنت أريده أن يدعم الخيارات التي أتخذها لحياتي، أكثر من تفكيره في رد فعل الناس تجاه ارتداء زوجته الحجاب. كنت أريد رجلًا يبحث عن زوجة يفخر بها ويحترمها، ويكون منجذبًا إليها بشكل كبير عندما يكون معها على انفراد.

ذكي

كنت أريد شخصًا حاد الذكاء، سريع البديهة، شخصًا يتحداني ويستميلني بحديثه، ومن المؤكد أن الرجل الذكي سيرغب في امرأة ذكية مثلي.

* * *

تابعت مضغ طرف القلم وأضفت: «شخصًا أستطيع التحدث معه». إن أهم شيء بالنسبة إليَّ هو الاتصال أو التواصل.

بدأ «جون ترافولتا» المُسلم يتشكل في ذهني، وحين تجسَّد وجدتُ نفسي أحبه أكثر من ذي قبل، وفي سياق تشكيل قائمة أمنياتي للرجل الكامل بدأتْ تظهر عبارة أبي الأشهر عن الزواج. إنها كلمات حكيمة، لكن عنفوان الشباب وتفاؤله بدَّداها فذهبتْ أدراج الرياح. «إن ضمَّت قائمتكِ ست رغبات فسيكون من الجيد أن تحصلي على أربع منها؛ إذ من المستحيل أن تحصلي على كل شيء». لكن أية أربع منها تكفي؟ ولماذا لا أحصل على الست كاملة؟ ولِمَ لا يحصل كل إنسان على ما يريده؟ لكنه كرر وبكل جدية «أربع من ست». إن نصيحته المخلصة كانت تتعارض مع روايات «عبير» وأفلام هوليوود وبوليوود وكل قصص الأميرات التي تنتهي بعبارة: «وعاشا في سعادة إلى الأبد».

حاولت التركيز لأتمكن من وضع قائمة سداسية. كنت قد وضعت ثمانية بنود في قائمة الأساسيات، لكنني لم أحتسب أول بندين، فبقيتْ ستة بنود ضرورية ستقود رحلتي وتدفعها: مسلم متدين، سِنه مناسب، اجتماعي، يرحب بارتدائي الحجاب، ذكي، وأتمكن من الحديث معه. لكنني كنت أريد المزيد وأتوق إلى المزيد وأرغب في المزيد وأستحقه. يجب أن أحصل على كل شيء! نعم! نعم!

حدثتني نفسي، ومن وجهة نظر عملية، بأنه سيكون من الأفضل وضع قائمة أكثر تحديدًا، ما من شأنه تسهيل عملية العثور على فارس الأحلام، إذ تُسلط القائمة الضوء على أكثر ما يهمني في الشاب. وقد بررت الإضافات التي زدتها على القائمة بتصنيفها كصفات غير إجبارية.

الصفات المستحبة

جذاب

نعم، لقد زحفت الكلمة عائدة إلى القائمة؛ حتى التعاليم الإسلامية تقول إنك يجب أن «تولعي» بشريكك!

جامعي

هذا عامل جيد للتجارب المشتركة، واللغة المشتركة، والتواصل المشترك. لم يكن هذا البند من الضروريات، لكنني كنت مقتنعة بأنه سيكون أساسًا جيدًا.

وُلِد في بريطانيا أو كندا أو أمريكا أو عاش فيها منذ سن الثامنة عشرة على الأقل

لقد تعرفت على أولاد من كل أنحاء العالم، خصوصًا من «الوطن» أي من

أفريقيا الشرقية، وكلمة الوطن هنا تشمل أيضًا كلًّا من الهند وباكستان. كنت بالتأكيد سأقابل رجالًا من كل أنحاء العالم، لكن خطر في بالي أنه سيكون من الأسهل التواصل مع شخص يشاركني الخلفية الثقافية نفسها. شعرت أن نشأتي في بريطانيا أعطتني مفهومًا آخر للزواج وللحياة كمسلمة، وتوقعات مختلفة. أردت شخصًا ينسجم مع ذلك، لا شخصًا أقضي سنوات زواجي الأولى معه في محاولة التأقلم مع خلفيته. والجدير بالذكر أن هذا المعيار كان يعني أيضًا تجنب الشبان الباحثين فقط عن جواز سفر بريطاني. أردت أن أكون زوجة لا بطاقة مرور إلى الجنسية البريطانية.

لديه حلقة اجتماعية، ولا يكتفي بالعمل ولعب كرة القدم

لقد صدمني عدد الرجال الذين استبعدتْهم هذه العبارة البسيطة.

كنت قد وصلت إلى مرحلة الحلم؛ لذا أطلقت العنان لخيالي وآمالي وقلبي.

يحب القراءة والسفر، شخص ساحر بشكل عام، شخص مسلٍّ، يرغب في تغيير العالم من حوله وجعله مكانًا أفضل، لديه رؤية وحيوية، عصري... نعم آخر موديل!

تنهدت. ها هو رجلي المطلوب قد أصبح جاهزًا ولم يبقَ إلا أن أجده على سطح الأرض. قال قلبي: إن هناك حتمًا رجلًا تنطبق عليه هذه المواصفات، وهو في انتظار أن يُعثر عليه. تساءل عقلي: كيف لي أن أعثر عليه. امتنعت عن إطالة قائمة المواصفات. كانت أصوات الخالات في رأسي تحثني على كبح جماح رغباتي: على الفتاة ألا تكون متطلبة إلى هذا الحد. هذا عيب!

لقد كنت محظوظة، إذ تفهمتْ عائلتي المواصفات وكانت متأهبة للتدقيق معي في نتائج البحث. كنت أشعر أننا فريق واحد نعمل كلنا من أجل

سعادتي، ولم أتخيل كيف كنت سأقوم بالبحث عن أهم شخص في حياتي من دون دعمهم وتشجيعهم. لقد سخَّروا جميع إمكاناتهم في خدمة البحث عن الشخص الذي سيُسهم في منحي الحياة السعيدة المتكاملة.

لكن حكمتهم وخبرتهم أجبرتاهم أن يحقنوا تفاؤلي بجرعة من الواقعية. قرأوا قائمتي وتظاهروا بالجدية بشأن طريقة العثور على هذا البطل الملائكي.

سأل والداي: «هل تتوقعين أن يسقط الرجل عليكِ من السماء؟»، ثم أردفا باستفزاز: «أو ربما تجدينه معروضًا للبيع في واجهات محل «وولورث»؟».

وضعت على وجهي تعبيرًا مملوءًا بالرعب وشهقت قائلة: «ألم تجدا مكانًا أفضل من «وولورث»؟ ما رأيكما ببضاعة مطابقة للمواصفات من «هارودز» أو «هارفي نيكولس»؟».

ذكراني وهما يضحكان بحب: «لقد حصلنا عليك من «وولورث»!» فقد كانت هذه هي الطريقة التي شرحا لي بها كيف يولد الأطفال حين كنت صغيرة، وقد ذهبت النكتة مثلًا في العائلة: «عريس من «وولورث» يناسبك تمامًا».

شركاء الحياة لا يأتون على شكل بضاعة تفصيل، وأعتقد أن وصف والدي لفارس الأحلام بالبضاعة الجاهزة كان أكثر دقة. دائمًا سيكون هناك بند ناقص من اللائحة، لكن عن أي بند من البنود كنتُ مستعدة أن أتخلى؟ يقول أبي: «اختاري أربعة». كيف أستطيع التخلي عن الاثنين الآخرين؟ رفضت تخفيض معايير اختياري، فدخلت كلماته الأبوية الحكيمة من أذن وخرجت من الأذن الأخرى. وبمرور الوقت بدأ ينصحني بتخفيضها إلى ثلاثة. وأخذ تصميمه يضعف، ودخلنا الأيام السوداء فطلب مني أن أكتفي باثنين من أصل ستة. كان يقول: «لا يمكنك أن تتمسكي برأيك هكذا»، محاولًا تلطيف توقعاتي

بشكل واقعي متفهم. وينصحني قائلًا: «اثنين نعمة يا «بتي». نريدك أن تكوني سعيدة».

أسفر البحث عن طبيب أسنان من «برمنجهام»، وطبيب من جنوب لندن، ومحاضِر من «بريستول»، وعدة استشاريين في تقنية المعلومات، ورجال أعمال، وصيادلة، ومهنيين آخرين لا أذكرهم. وقد كانوا كلهم يُقدَّمون إليَّ بحسب المهن التي يزاولونها. وكلما ارتفع اللقب المهني في مفهوم الخَطَّابات (وهو أمر لم يكن يعكس الواقع دائمًا) زاد تهافتهن على ترشيحه للزواج المرتقب.

كان المجتمع يهوى زواج ذوي الألقاب، والإعلان عن خطوبة من هذا النوع كان مثل إعلان نتائج اليانصيب. «طبيب وطبيبة، يا للروعة، يا له من زواج موفق!» «طبيب وطبيبة أسنان، لا بد أنهما سيفتحان عيادة مشتركة ويعملان معًا!» «الاثنان لهما بشرة بيضاء وجميلان، سيرزقان بأولاد بيض البشرة ووسيمين».

وبشكل عام كنت أنا التي أرفض، وكانت العائلة دائمًا تتوقع أن يُفتن العريس بي. «ومن لا يفعل؟» كانت أمي تسأل ثم تتابع: «إنك جميلة وذكية ولطيفة ومتدينة». كنت أخجل من إطرائها وأقول: «أنت أمي، طبعًا ستقولين هذا». وفي بعض الحالات النادرة أتى الرفض من الشاب. وفي هذه الحالات كنا نستغرب ونغضِّن جباهنا في عجب. فلماذا يرفضني الشاب؟ لقد كان التواضع صفة غير ضرورية في عالم المنافسة في البحث عن العريس.

فالنتاين لذيذ

كان الدين والعقيدة جزءان مهمان من حياتي، فلقد تربيت كمسلمة منذ ولادتي وترعرعت في بيت مسلم. كنت أصلي وأصوم شهر رمضان وأتصدق، أقرأ القرآن وأرتدي الحجاب. كنت أحاول أن أكون بارَّة بوالديَّ، وأن أساهم في العمل الاجتماعي، وأعيش حياة صالحة. كنت أحلم بالحج إلى مكة. وباختصار يمكن وصفي بأنني مسلمة ملتزمة وسعيدة بذلك. لقد كانت حياتي تتمحور حول إيماني وحول جهودي لأكون إنسانة صالحة كما يراها الإسلام.

وفي طفولتي كانت كل الخيارات التي تتم من أجلي تلتزم بالمبادئ الإسلامية، كما يفهمها والداي. فلقد قادتهما مبادئ الإسلام إلى محاولة العيش بطريقة جيدة، وإلى مساعدة أنفسهما وأبنائهما ومجتمعهما على النجاح في الحاضر ماديًّا ومعنويًّا. إن الإيمان بالخالق وبالحياة الأبدية دعَّم أفكارهما وحياتهما.

وحتى في طفولتي تدربت على الاختيار اعتمادًا على هذه المبادئ، فغريزيًّا كنت أعرف أنني يجب أن أمتنع عن تناول لحم الخنزير، لأن هذا محرم في الإسلام. وقد فهمت حين كنت في الرابعة أنه يجب ألا آكل النقانق في المدرسة، فهي تصنع من لحم الخنزير. كذلك كنت أرفض تناول «فطيرة الراعي»، لأن

اللحم الذي صنعت منه لم يكن حلالًا. أما «بودينج الأرز» فقد كنت أرفض تناوله لطعمه المقرف فحسب.

وكانت ثمة مبادئ أخرى مشتركة بين الإسلام وغيره من النظم الأخلاقية، مثل الاهتمام بالآخرين والعطاء والصدقة واحترام الكبير. وكلما قرأت واستمعت وتعلمت، ازداد شعوري بقدرة الإسلام على إعطاء نظرة شاملة مقنعة عن العالم. فهو يهتم بحياتي وبسعادتي؛ لذا وعلى الرغم من أنني ولدت مسلمة، إلا أنني اتخذت قرارًا عمليًا بأن أكون مسلمة عن قناعة حقيقية. لقد قدم لي الدين الأمان والإرشاد في عالم طاغٍ ومشوش، وألهمني أن أتفوق وأستكشف وأكتشف. لقد دفعني إلى التعرف على نفسي، وعلى كل شيء حولي، وشجعني في طريق النجاح بمعياريه: الحالة المادية، والرضا المعنوي.

للإسلام قواعد غير قليلة، كما أن لكل إنسان قواعده الخاصة، يتوقف عن ملاحظتها عندما تصبح جزءًا من حياته. إن القواعد الخارجية تعكس دائمًا معاني داخلية. كنت أتساءل عما إذا كنت أفهم بعض القواعد بشكل صحيح نظرًا لثباتي في المكان والزمان. هل أنا سبب المشكلة في الفهم، أم نحن، أم هو الوقت الراهن؟ كنت أفكر في القناعة الراسخة التي حملتها أوروبا في القرون الوسطى أن العالم مسطح، أو في الظروف التي اكتشف فيها أينشتاين نظرية جديدة، أو في خطأ المبدأ القائل بأنه لم يبقَ شيء ليُكتشف، إذ ثمة اكتشافات تنتظرنا دائمًا. كنت أفكر كيف أَوجد العلم الحديث نموذجًا لم يكن ليخطر في بال أحد من قبل. أليس من المحتمل أن يحدث هذا ثانيةً؟ وثالثةً؟

لم أبدأ من فرضية أن القواعد هي أمر عفا عليه الزمن؛ فالمبادئ الرئيسة للطيبة والبحث عن المساواة والعدالة واللطف والتعاطف كلها متينة، لكنني بدأت أتساءل عن المناطق التي تحولت إلى الغموض في التقاليد والسلطة

وسوء التفسير. يحب البشر أن يُقَولبوا الأشياء بشكل يتناسب مع مطالبهم الأنانية، وأن يحوِّروها لمصالحهم ثم يدَّعون بأن هذه هي الحقيقة. يكمن التحدي الذي يواجهه كل جيل جديد في إعادة النظر في صحة المبادئ التي كانت تُعتبر شاملة.

كان يبهجني أن يكون كل جزء من أجزاء حياتي مهمًّا وأساسيًّا وخاضعًا للإرشاد الروحي. كانت رهافة المعاني والأعماق المكنونة وتعقيداتها توحي بوجود عالم مصغر داخلي، عالم في انتظار الاكتشاف. لقد اكتشفت أمر عالمي الداخلي وتفاصيله من خلال الإسلام، ومن خلال الحكايات والأقوال والتعاليم. كانت بي حاجة إلى شريك يرافقني في هذه الرحلة، وإن كان عليَّ أن أجد رفيقًا لنفسي، فلا بد أن نهتدي معًا بالخارطة نفسها، وإلا فكيف نستطيع السفر على الدرب نفسه؟

* * *

أول بطاقة وصلتني بمناسبة عيد الحب كانت من شاب غير مسلم.

وجدتها مثبتة على باب غرفة نومي في الجامعة في وقت مبكر من صباح عيد الحب. مزَّقت الظرف والتهمت الكلمات. احتوى الظرف قصيدة مكتوبة بخط اليد التقليدي. قرأتها ببطء وابتسمت. كانت القصيدة مرحة ذات وزن وقافية رائعين.

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اسم إلا أنني عرفت المرسل مباشرة. وقد أشبع هذا غروري؛ فقد كان الشاب ذكيًّا وساحرًا، ومن الشبان المحبوبين في الجامعة. إنه لأمر مفرح أن يحبني شخص ما إلى درجة إرسال بطاقة في عيد الحب تحوي قصيدة كتبها بنفسه.

يمكن ذكر العواطف المتأججة بصياغة جملة، أو أسلوب معبر، أو بانسياب الكلمات الأنيقة التي تخلق صورة أو إحساسًا ما. الشِّعر هو طريق الإغراء المطلق وأنا كنت حساسة لسحره مثل أجيال كثيرة من النساء سبقتني. وكنت أفكر دائمًا أنه ربما لهذا السبب أُنزل القرآن بهذه الصيغة المنظومة ليوحي بالحب، والإسلام هو حب خالق الكون. اللغة العربية بسيطة وموزونة ومعانيها تحمل أبعادًا كثيرة، تكشف المزيد عن نفسها في كل مرة تعود إليها. كان العرب في ذلك الزمان مأخوذين بأناقة وسحر الكلمات. لقد عرفوا قوة الأفكار وبلاغتها وقدرتها على إغراء الروح وتفجير ثورة.

رأيت مرسل البطاقة في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان يجلس ضمن مجموعة كبيرة من الأصدقاء المشتركين في الحديقة، ومن بينهم كانت حلقة صديقاتي المقربات. كان مساءً ربيعيًّا جميلًا، السماء صافية مليئة بالنجوم اللامعة. مشيت في الممر المفروش بالحصى وأنا أستمتع بأزهار الثلج والزعفران وهي تمدُّ رؤوسها بشجاعة داخل العالم. كنت قد أمضيت فترة ما بعد الظهر مبتسمة لنفسي بهدوء أتخيل ما قد يحدث. لقد بعثت القصيدة الحياة في المراهقة الرومانسية الكامنة في داخلي، فبدأت أسأل نفس الأسئلة التي كنت أطرحها في سن الثالثة عشرة عن «جون ترافولتا». تُرى هل هو مهتم؟ هل سيعتنق الإسلام؟ كالعادة كان الشرط الأساسي هو أن يكون مسلمًا. لكن مرسل البطاقة كان لطيفًا، هكذا فكرت وعليَّ أن أستكشف هذه الأسئلة الهائلة، أسئلة الدين والإيمان والروح ونرى أين نجد أنفسنا. وحتى مع وجود حدود الاحتشام الحذرة في التعاطي، فإننا نستطيع على الأقل أن نتحدث، ونستطيع أن نرى إلى أين ستأخذنا الحياة.

مشيت في اتجاه المجموعة وشعرت بأن اللياقة تقضي أن أشكره على ما فعله. لا بد أنه احتاج إلى شجاعة كبيرة كي يعبِّر عن مشاعره. وطبعًا استمر

ذلك الصوت الصغير، صوت القدر الشاعري يهمس في أذني قائلًا: «ماذا لو... ماذا لو... ماذا لو... أصبح مسلمًا!».

قلت له: «مرحبًا».

أجابني: «مرحبًا».

ابتسمت.

سألني بجدية: «هل انتهيت من كتابة مقالك؟».

أجبته من دون أي صلة بالحديث: «شكرًا لك».

قال وشفتاه تتحركان بشيطنة: «شكرًا؟ على ماذا؟».

«البطاقة.»

ابتسم: «هل تشربين الشاي معي؟».

كان يعرف أنني مختلفة وأعتقد أنه كان يحب ذلك. كان يعرف أني لا أشرب الكحول، وأنه لم يكن يستطيع أن يدعوني إلى الشرب في إحدى الحانات، كما كان يحترم احتشامي، وكان ينظر إلى الإنسانة التي وراء الحجاب. في السنوات التي تلت التقيتُ بكثير من المسلمين الذين ولَّوا هاربين بسبب الحجاب، الذي كان شيئًا لا يستطيعون تخطيه. لم يفكروا في الشخص القابع خلف الحجاب، وكل ما رأوه كان كتابًا متحركًا من القواعد الدينية، رسمًا كاريكاتيريًّا منمَّقًا بائسًا. لكن ها هو ذا شاب غير مسلم ينجذب إليَّ، إليَّ أنا.

«ها أنا ذي أجلس هنا الآن، أليس كذلك؟» ابتسمنا بعصبية واستمتعنا بالأمسية بصمت. كنا محاطين بالأصدقاء، وسرعان ما عادت الثرثرة من حولنا إلى مجراها الطبيعي.

نظرت إلى السماء فتهدجت أنفاسي من جمال النجوم. كانت جميلة إلى درجة لا تصدق. تساءلت ماذا يوجد وراءها. لكن النجوم هي مجرد أجرام. ما هو الخالق إذًا؟ إنه قدرة لا يمكن تخيل شكلها، وهو غير نهائي في عظمته، إنه الفنان الأكبر الذي أبدع كل هذه العوالم الرائعة الجمال. نسيت الناس المحيطين بي وتُهت.

هل ينبغي عليَّ متابعة بحثي هناك في السماء لأجد إجابات عن أسئلتي، عمَّن أكون وعن معنى كل ذلك؟ لقد فُتن البشر على مدى آلاف السنين بالنجوم والأجرام السماوية حتى إنهم عبدوها. أما بالنسبة إليَّ فالنجوم آية من آيات الخالق، إبداعات جميلة تخطف الألباب، مما يعني أن لها خالقًا قد أبدعها. بهذه الطريقة تحدث النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى كوكب فسأل: «هل هو ربي؟»، لكنه عندما شهد اضمحلاله مع بزوغ الفجر، عرف أن هناك مَن هو أعظم منه. هل العلم اليوم يشبه هذا؟ هل يخفي نور الاكتشافات العلمية المتلألئ الخالق وراءه؟ أم إن العلم يكشف في الواقع عجائب إبداعات الله وبالتالي يكشف لنا وجود الله عز وجل؟ هذا هو بحثي وهذه هي رحلتي لمعرفة الخالق وعشقه، وربما أضيع بين النجوم ومجراتها.

سألني الشاب بخجل: «كيف عرفت أنني مُرسل الرسالة؟».

«عرفت، أنا مكشوف عني الحجاب!»

«هذا ظريف، أنت ظريفة!»

تورَّد خداي وحاولت أن أغيِّر الموضوع. لم أكن ماهرة في هذه الأمور. سألته: «أليست النجوم جميلة؟ تلمع الآلاف منها بعيدًا جدًّا عنا، لكنها مع ذلك تبدو قريبة. من يعلم كيف يبدو شكلها في الكون وأين هي! يا له من خلق لا يصدق! تبهر أنفاسي حين أنظر إليها. أُراهِن أننا لو راقبنا هذا العالم

من الكون الخارجي لفهمنا ماهية الحياة، ولوجدنا معاني أكثر نعيدها معنا إلى هذا العالم».

كنت مذهولة. ساد صمت طويل، ونسيت وجوده.

بعد دقائق، تكلمت من جديد: «إنها تشعرني بوجود ما هو أكبر مني. أشعر أنها تحمل الكثير من الأسرار التي تحتاج إلى بحث واستكشاف. أشعر بالألوهية بكافة أبعادها».

نظرت إليه متسائلة عمَّا إذا كان قد فهم سؤالي، أو فهم ما كنت أحاول كشفه عن رحلة بحثي عن السمو. تُرى هل لديه المؤن لهذه الرحلة؟

كنت أنظر إليه وأنا مأخوذة بالسماء الكريستالية الغامضة. الليلة صافية والقمر ساطع. توقف، وابتسمت في ترقب. انتظرت وصفًا مؤثرًا عن أبعاد وأحجبة الكون، وعن جمال النجوم والكواكب الغامضة فوقنا. هذا الجمال المجهول والمحسوس في آن. أردت أن أسمع عن بحثه عن نفسه، وعن افتتانه بتعقيد الأشياء وضخامتها وبساطتها. أردت أن أعرف.

سألته أخيرًا: «ما الذي يخطر في بالك حين تنظر إلى النجوم؟».

نظر إلى السماء الغامضة وقال: «أتخيل نفسي أصل النقاط».

الرجال من المريخ

في بيت شيلينا، وصلت طقوس زيارة الخطَّاب إلى مرحلة الكمال. فعلى مدى أسابيع وشهور شققنا طريقنا ببطء ومنهجية بين صفين من فرسان الأحلام المحتمّلين. كنت معجبة بطاقتي على الاحتمال وعلى إعطاء كل رجل الوقت والاهتمام اللازمين. لقد أتقنَّا العملية تمامًا: عائلتنا، عائلته، أنا وهو، المكالمة الهاتفية مع الخَطَّابة في الصباح التالي طبعًا. أحيانًا كنا نجتمع ثانيةً، لكن في معظم الحالات كنا نأخذ موقفًا فلسفيًّا حاسمًا وننتقل مباشرةً إلى العريس التالي. لا بد أنه موجود! لا بد! كنت أقول ذلك لنفسي، كي أتأكد من وجود شخص مناسب في مكان ما. إن إيجاد الشخص المناسب شيء مهم للغاية.

أما مقعد العريس الساخن فكان يمتلئ أسبوعًا بعد أسبوع بكل من هبَّ ودبَّ من الشخصيات الأميرية.

* * *

كان ذا بنية قوية، وسيم المحيا. ابن صديقة لصديقة، يُدعَى سميرًا. أصابني القلق مباشرةً حال سماعي أنه لم يكمل تعليمه الجامعي، لكنني حاولت ألا أتوقف عند هذا الموضوع. فالجاذبية يمكن أن تشعَّ في أكثر الأماكن ظلمةً

وبين أبعد الناس احتمالًا. إن الاختلاف في المستوى الثقافي كان نقطة ثانوية، وربما تكون غير مهمة البتة. إن وضع إشارة «صح» في خانة التوافق الثقافي له محاسنه في عملية التزويج، وغالبًا ما ينجح، لكن سحر الأشياء غير المتوقعة هو الذي كان يصنع أفضل العلاقات في رأيي.

ترك سمير المدرسة ليؤسِّس عملًا خاصًّا به، وهو الآن من التجار الواعدين جدًّا. دخل بخطى واسعة، وجلس في كرسي والدي المريح. وطبعًا لم ينسَ والدي أن يعطيني نصيحته المعتادة قبل وصول سمير: إن حصلت على أربع من ست فهذه حصيلة ممتازة.

كان سمير مملوءًا بالثقة، حتى إنه لم يزعج نفسه بالمبادرة بالحديث، بل كان يجيب باقتضاب عن الأسئلة التي تُوجَّه إليه مباشرةً. واكتفى بالنظر من دون اهتمام من النافذة إلى حديقة والديَّ الجميلة التنسيق. تبادل والدِي المجاملات مع عم سمير وأمضيا الدقائق العشر الإجبارية في البحث عن الروابط العائلية بين العائلتين. وأخيرًا وجدا ابن عم بعيد من إحدى العائلتين متزوجًا من عمة كبرى من العائلة الأخرى.

وببعض العصبية، كالعادة، دخلت الغرفة بابتسامة، أومأت برأسي وقلت للحاضرين: السلام عليكم. جلست في كرسي مواجه للولد بيدين متشابكتين ونفس متقطع. هذه المرة كانت المزهرية ممتلئة بزهور قرمزية عبقة الرائحة. التفت يتأملني بتكبر، ثم عاد ليتأمل الجدار بتكبر أيضًا.

بعد عدة دقائق من الأحاديث المهذبة نهضت لأصنع الشاي، وقد أراحني الخروج لعمل شيء ما. عدت بالصينية إلى الغرفة، ووزَّعت عليها أكواب الشاي والقهوة بالترتيب المتسلسل إضافةً إلى الحلوى المنزلية التي لا غنى عنها، ثم عدت إلى الجلوس أمام الولد. فتح أبي ومرافق العريس باب الفناء الخارجي وانسحبا بأسلوب مسرحي إلى الحديقة، ليتركاني وسميرًا نجلس

ونحدق في المرج، ونواجه بعضنا بعضًا بارتباك مثل رجل وامرأة عجوزين ينظران إلى حديقة منزلهما في خريف حياتهما المشتركة.

رمقني بلامبالاة، ثم نظر إلى السقف والأرض ورفوف الكتب التي تحتل زاوية الغرفة. كانت الرفوف مثقلة بالكتب من كل الأشكال والألوان، ممتلئة لدرجة أن الكتب تكدست بعضها فوق بعض على كل الرفوف، وبعض الرفوف كان يحمل صفين أو أكثر من الكتب. مرَّت عيناه فوق أوعية الأدب الطافحة، وتسمَّر:

«لمن هذه الكتب؟» سأل بطريقة فيها الكثير من التعجب والدهشة. ابتسمت بخيلاء وقلت بفخر: «كلها لي».

التفت ونظر إليَّ بازدراء ثم قال: «أنا أكره الكتب، كل الكتب. أنا لا أقرأ أبدًا ولا أحب الذين يقرأون!».

* * *

صديقتاي سارة ونورين تبحثان أيضًا عن الزوج المناسب. لقد نشأنا معًا ومررنا بالمراحل نفسها تقريبًا لعملية الزواج.

كلتاهما تخرجتا من الجامعة وكانتا على وشك البدء في حياتهما المهنية، وكانتا تهتمان مثلي بالقضايا الاجتماعية. كانت قصصهما العاطفية مشابهة لقصصي. وصفت سارة، المحجبة أيضًا، قصة فيَّاض الذي أتى لزيارتهم برفقة إمام المسجد الذي كان قد أوصى به. كانت سيرته الذاتية واعدة، فهو متعلم ومتدين ومن عائلة طيبة ويرغب في فتاة محجبة، وعمله جيد ويحب السفر. يملك شقة خاصة به. إذًا هو مستقر ومستقل، كما أن الإشادات التي رافقته كانت خالية من العيوب.

أخبرتنا سارة أن الإمام كان محدثًا مفوهًا ككل أصحاب المسؤوليات الرعوية، وقد ضحكنا كثيرًا عند وصفها للاجتماع: «كان فياض يبدل من طريقة جلوسه مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار. في البداية كان صبورًا، لكن ما فتئ يرمقني بنظرات يائسة. بعد ساعتين التفت إليه الإمام وسأله لماذا لم يتحدث إليَّ بعد. دخلنا أنا وفياض إلى الغرفة الأخرى وفي الحال فهمت لماذا كان الإمام يتحدث ويتحدث». شرَحت لنا بأن فياضًا كان هادئًا بقدر ما كان مرافقه ثرثارًا: «خمس عشرة دقيقة مروِّعة من الصمت، استُدعينا بعدها إلى العودة. عندها رنَّ صوت الإمام قائلًا: لا بد أن الحديث كان شيقًا. قالها غامزًا لي بعينه. ثم قال: هذه الاجتماعات هههههه! كان لديَّ صديق يعمل إمامًا أيضًا ذهب مرة بالنيابة عن صديق لمقابلة فتاة، لكنها أعجبته كثيرًا فتزوجها هو! هههههه!». انفجرنا في الضحك بذعر أنا وسارة ونورين.

* * *

حكَت لنا نورين قصتها هي الأخرى: «كان جميل طويلًا ووسيمًا، وكان طبيبًا يبحث عن زوجة منذ فترة. ذكيًا، مرحًا وفاتنًا. لقد أحبه جميع من في العائلة حتى جدتي وابن أخي الصغير. كانت قصصه مضحكة، وقال إنه يريد زوجة تصلح للدين والدنيا، وقد اعتقدت أنه الرجل الكامل إلى أن تحدثت أمُّه معي».

غيَّرت نورين نغمة صوتها مقلدة صوت أم العريس:

«يا له من ولد لطيف، دائمًا يفكر في الآخرين، خصوصًا في أمه العجوز المسكينة.»

«ولم أصدق أذني حين سمعت أمي تشجعها قائلة: يبدو لطيف المعشر، أتعجب كيف لم تخطفه الفتيات حتى الآن!»

انتقلت نورين من جديد إلى تقليد صوت الحماة: «لقد أحب عدة فتيات، لكن تعرفين، أنا لم أحب أي واحدة منهن. هو دائمًا يقول لي: ماما أنت تعرفين أكثر مني، أنت قرري. أنا لا يهمني، يمكنني أن أنتظر سنوات حتى نجد الفتاة التي تروق لك».

وهكذا بقي جميل من دون زواج.

* * *

أحيانًا كانت أم العريس تأتي وحدها للزيارة، وكنت أقدم لها السمبوسك والشاي محاولة كسب ودها، فأحيانًا تأتي الأم من خارج البلد من دون ولدها من أجل البحث له عن زوجة. بعد أن يتم فحص الفتيات، وإنجاز عدد من الإجراءات الحساسة، يصل فارس الأحلام إلى لندن ويبدأ بمقابلة الفتيات الواحدة بعد الأخرى. فالأم هي حارسة البوابة التي يجب استمالتها أولًا كي تتمكني من الدخول. وكان علينا كعرائس أن نقوم بالعديد من المبادرات كي ننجح في الوصول إلى التصفيات النهائية التي تؤدي إلى الخطوة التالية. من هذه المبادرات أن تصنع الفتاة بعض الوجبات الخفيفة والحلويات بيديها، وترقب عيون الضيوف وهي تلمع سرورًا من كَنَّة المستقبل الماهرة التي تستطيع صُنع كعكة رائعة بالفراولة.

أما أكبر مخاوفي فكانت لقاء أم العريس في المسجد. فبعد انتهاء الخُطبة أو دروس الدين، كان يجب علينا أنا وأمي أن نركض للعثور على أم العريس والوقوف معها في إحدى الزوايا الهادئة لإتمام المقابلة. وبما أن هناك قسمًا مخصصًا للسيدات في المسجد، كنت أخلع حجابي وكانت أمي تحرص على أن يكون شعري وطلاء شفاهي طبيعيين، لأبدو أجمل. لم نخشَ - نحن الاثنتين - صعوبة العملية ومضايقاتها فقط، بل الجو العام المزعج أيضًا. فإن لم أكسب ود المرأة ببضع جمل فقط فلن أتزوج.

كانت بعض النساء يندفعن وراءنا ويقفن على شكل مجموعات قربنا وهن يتضاحكن بأصوات مرحة؛ لذا كان علينا أن نتكتم وإلا انتشر القيل والقال في الصباح التالي حول زواج محتمل، حتى قبل تقديم كوب من الشاي لعائلة الولد. وقد تُطرح أسئلة مثل: «من التي كنتِ تتحدثين إليها؟». لقد سمعت أن لديها ثلاثة أبناء وسيمين. لقد كان هناك من يتحدث إلى ابنتها الواقفة هناك من قبل. إنها تبحث عن عروس لابنها الكبير منذ سنوات، وأنا متأكدة أنه سيستقر مع أية واحدة تقبل به قريبًا.

* * *

بكى حبيب عندما تحدثت معه سارة. فعلى الرغم من أن والديه مطلَّقان منذ أكثر من خمس سنوات إلا أن الموضوع لا يزال يزعجه جدًّا. كان يريد الزواج، لكنه سيصاب بانهيار عصبي إذا ما اضطر إلى الطلاق. وقد غضب حين قالت له إنها قلقة من مناقشة هذا الموضوع في لقائهما الأول. وقلدته سارة وهو يرمي الكلمات في وجهها قائلًا: «الواقع، لا الرومانسية والخيال! الواقع!».

ثم قابلت نورين عقيلًا الذي اعتذر إليها قائلًا: «أنا مضطر إلى الذهاب الآن لمقابلة أصدقائي لنشاهد مباراة لكرة القدم».

عرفوني إلى بلال الذي قال: «أمي تتقدم في السن وتلح عليَّ كي أتزوج، والصراحة هي أنها هي التي تحتاج إلى الرفقة وليس أنا. أنا شخصيًّا لا يهمني».

وفي زيارة إلى سارة قال لها جواد: «أنت ذكية جدًّا وهذا لا يناسبني».

أما ميزان فقال لنورين: «أنا لست مقتنعًا بفكرة الزواج، لكنَّ والديَّ لا يفهمان هذه النقطة. أنا أريد أن أبقى عازبًا».

ثم اعترف لي ودود قائلًا: «أنا لم أكن أريد المجيء، لكن لم يكن أمامي خيار آخر، إما هذا، وإما الطرد من البيت!».

* * *

لم يكن أحمد رجلًا جذابًا ولا ذكيًا أيضًا. حاولت تجاهل شكله والتعرف عليه على حقيقته. عندما أتى ليزور عائلتنا جلس في كرسيه يتفحص الغرفة، كان منعزلًا وأشعرني صمته بعدم الراحة. في هذه المناسبة لم ننسحب إلى غرفة الطعام؛ إذ كان والدي قد طور نظام الانتقال بسهولة مع الضيوف إلى الحديقة عبر باب الفناء تاركًا إيانا وحدنا في الموقع بشكل يستطيعون به رؤيتنا وسماعنا من مكانهم في الخارج.

تكلم أحمد قليلًا وتجاوب أقل، كانت إجاباته القليلة حادة ولاذعة. استعملت كل التقنيات التي أعرفها لفتح حوار معه، لكنَّ عينيه الضيقتين كحبتي عدس كانتا تخترقانني. حاولت كسر الجليد ببعض المزاح حين تكلمنا عن أصدقائنا العاملين في قطاع الخدمات المالية. «كلهم محاسبون، برواتب جيدة». ابتسمت بتكلف وأنا أقلدهم؛ كي أضفي بعض المرح على الحديث. عرفت أنني كنت أقول عبارات نمطية مبسطة، لكن المجتمع الآسيوي بشكل عام يتندر بكثرة المحاسبين؛ لذا حاولت اللعب على الكلام ساعية لإيجاد رابط بيننا نحن الاثنين، أو نوع من الصورة الكاريكاتيرية المشتركة. رماني بنظرة قاتلة، أحسست معها بشعر رأسي يحترق من جذوره تحت الحجاب.

وقال بصوته الآمر: «المحاسبون لهم اختصاصات مختلفة ومهنتهم مختلفة عن باقي المهن المالية من صرافة وتأمين، على الرغم من أنها كلها تعتبر خدمات مالية. إنها حقيقة بسيطة وواضحة لدرجة أن أي شخص متوسط الذكاء يعرفها».

لقد ظن أني غبية، وأن رأسي مصنوع من المهلبية. لم أكن قد اختبرت هذا الشعور من قبل. فالشبان الآخرون الذين قابلتهم كانوا يقولون إن ذكائي أعلى من المستوى المطلوب؛ لذا كانوا يولون هاربين.

لم أهتم لكون أحمد أكثر من قابلتهم بلادة وتعقيدًا، لكنني ارتبكت من أنه وجدني سطحية.

اتصلت الخَطَّابة في اليوم التالي وسألت أمي: «ما رأي شيلينا؟». كنت قد لخصت لأمي افتقار الشاب للباقة الاجتماعية، وعدم قدرته على إجراء حوار، بالإضافة لانعدام الجاذبية لديه تمامًا. وكانت هي، للأمانة، قد لاحظت ذلك بنفسها، إذ أدركت أنه معقد جدًّا، وأدركت أيضًا أنه لم يبدِ أي محاولة لتسهيل عملية اللقاء التي كان فيها من التعقيد والإزعاج ما يكفي، فهو لم يشارك في الحديث حتى ولو بقول أشياء تافهة لا معنى لها. قد يدرك الاثنان من الوهلة الأولى انعدام الانسجام بينهما، لكنهما يحاولان، على الرغم من ذلك، المحافظة على حد أدنى من المؤانسة والتحضر. لا بد أن أحمد قد فوَّت هذا الجزء من الدورة التدريبية من منهج البحث عن زوجةٍ.

كان جواب أمي مختصرًا ومن دون مجاملات، ما أدهش الخطابة التي سمعتها وأنا في الجانب الآخر من الغرفة تصرخ على الهاتف: «ياه!، لكن أحمد أحب شيلينا حقًّا!».

انتزع هذا التصريح صرخة مشابهة من أمي، فمن حديثي المسهب عن أحمد فهمت أنه من المستحيل أن يكون قد استمتع باللقاء.

جمعت أمي شتات نفسها وبدأت بالقول: «همهمم، لكن شيلينا قالت إنه كان صامتًا وبدا تعيسًا جدًّا، وإنها اضطرت إلى التحدث طوال الوقت!».

«لقد شرح لي أحمد الموقف»، أجابت الخطابة، ثم أكملت شارحة: «ويقول إنه كان اختبارًا».

اختبار؟ لا بد أن الزواج والحب كانا معقدين كفاية، ولم تكن بي حاجة إلى أن أضيف إلى كل ذلك رجلًا غير صريح أو كاذبًا. لم يكن لديَّ وقت أضيعه مع رجل يريد أن يختبرني حتى قبل أن يعرفني. ومع هذا فقد وقفت الخطابة في صف الرجل، إذ أضافت:

«قال إنه كان يختبرها ليرى كيف تتجاوب، وقد تصرفت شيلينا بشكل جيد، ونجحت في الاختبار وهو معجب بها».

«هه؟»

«هل تريد شيلينا أن تراه ثانيةً؟»

* * *

كان اليأس قد بدأ يتسرب إلى قلبي. من أين يأتي هؤلاء الرجال؟ هل هناك شيء أجهله عن نوع الذكور بشكل عام؟

لقد كانوا جميعًا يبدون طبيعيين، لكن تحت ذلك الغطاء كانت لهم نزوات غريبة، ومشاركة الهموم والنوادر مع سارة ونورين أكدت ظنوني حول هذا الموضوع.

سألتُ أمي وصديقاتها: «هل كان الرجال دائمًا هكذا؟»، لأرى إن كانت تجاربهن ستلقي أي ضوء على الموضوع.

قلن لي: «إنهم صنف غريب من البشر، وعليك أن تكوني صبورة وتتركيهم يتصرفون على هواهم، إنهم مثل الأطفال».

لم يكُنَّ يتذمرن من الرجال أو يلمنهم، بل كن يبتسمن عند ذكر هذه المعلومة. أحسست أنهن على وشك إضافة: «ولهذا نحن نحبهم!». ربما يكنَّ قد تربين في زمن أكثر تفهمًا، زمن يُقبَل فيه الرجال على علاتهم، بمحاسنهم

ومساوئهم. وربما يكنَّ قد فهمن أن النزوات الغريبة هي التي تجعل الرجال ما هم عليه.

كنت من جيل الشباب الذي يعرف أنها مسألة وقت وجهد فقط، وأننا في النهاية سنقابل فارس الأحلام. وقد قلنا لأنفسنا إن الرجال الغريبين الذين قابلناهم حتى الآن لم يكونوا إلا استثناءات للقاعدة.

لقد كنا متفائلات؛ كسرنا القواعد القديمة، فتعلمنا وتخرَّجنا من جامعات مرموقة ولدينا أعمال ممتازة. نحن جذابات ومثيرات للاهتمام، لبقات ومتدينات ونعشق العائلة. لا بد أن يأتي مزيد من الفرسان، إنها مسألة وقت وجهد فقط.

لقد تعلمت أن أكون رابطة الجأش حيال هذه الاجتماعات. كنت مضطرة إلى ذلك؛ إذ كان من المهم لسلامتي العقلية أن أُبقي بصيصًا من الأمل، وأن أفكر بأن عازبًا من حَمَلَة الكروموزومات الذكرية المناسبة سيقدر أن يستفزني يومًا، ويدفعني إلى الزواج منه. أليس البشر مليئين بالمفاجآت؟

ساعدني هذا التفاؤل المستمر، المزود ببعض العناد البريطاني المكتسب، على الاستمرار في البحث بتصميم وصبر.

المسألة كلها كانت لعبة إحصاءات. أما السؤال الكبير فكان: أيٌّ من الإحصاءينِ سيكون له الغلبة؟ «العثور على الشخص المناسب»، أم «أربعة من أصل ستة»؟

الباب الرابع

التواصل الإلهي

الانتظار

كانت الساعة الرابعة صباحًا، وكان الظلام في الخارج قد بدأ يتبدد لينبلج الفجر الرمادي الشاحب. رنَّ المنبِّه في غرفتي بجنون رافقه صوت والدي يناديني من الردهة: «انهضي يا بُنيتي». إنه الفجر.

لطالما تعجبت من نشاط والدي وانتعاشه في الصباح الباكر. كان والداي مستيقظين منذ أكثر من ساعة لتأدية صلاة قيام الليل.

«إن الله يحب هذا الوقت من الصباح أكثر من باقي الأوقات. حين يهجر عباده فراشهم الدافئ ابتغاء مرضاته». هكذا أخبروني. كانت عيونهما تلتمع بالسعادة، وشيء من النور يشع من وجهيهما. وجهان صافيان، راضيان، يعكسان ما تعنيه كلماتهما.

«ومهما كانت الأمنيات فإن هذا الوقت هو الأفضل للطلب والدعاء». فالدنيا هادئة لا يعكر صفو سكونها شيء، لا أحد سواكما أنت وخالق الكون. هنا تبدو الإجابات معروفة وواضحة حتى قبل أن يطرح السؤال.

لم أشعر بالسمو ذاك الصباح. صرخت بصوت كالنعيب: «خمس دقائق أخرى!» أنزلت ساقي من فوق حافة السرير بألم ووضعت رأسي بين ركبتي، ثم

شددت نفسي بتثاقل وعينين نائمتين وشعور بالدوار بسبب ساعات النوم القليلة التي حصلت عليها. وعندما تذكرت أنني سأنهض من النوم ثانية بعد ثلاث ساعات لأذهب إلى العمل، حاولت أن أحافظ على حالة تقعٍ ما بين الصحو الكامل من أجل الصلاة، وبين الإبقاء على شيء من النعاس يمكّنني من العودة إلى النوم ثانيةً بسرعة. لقد تطلب الوقوف للصلاة الكثير من قوة الإرادة.

كان باستطاعتي سماع حركة والديَّ وثرثرتهما في البيت الهادئ بينما هما يستعدان للصلاة. إنها فترة الفجر السحرية، الوقت الذي ينام فيه معظم الناس. إن صلاة الفجر تنظم النهار وتعطيه إيقاعه. بعد الوضوء، مددت سجادة صلاتي. كانت مصنوعة من المخمل القرمزي، طولها حوالي متر وعرضها نصف متر. وجهتها صوب الجنوب الشرقي لتواجه الكعبة المُشرفة. غطيت شعري وكتفي بقطعة قماش طويلة وصلتْ إلى ما تحت خصري. تحتها كنت أرتدي بيجامتي الحريرية الزرقاء المفضلة. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن أركز.

أنهيت صلاتي، ثم جلست على طرف السجادة في حيرة. تذكرت حالة العزوبة التي أعيشها وتذكرت عملية البحث المؤلمة عن الشريك، وعدم جدواها. شعرت بوحدةٍ موحشة. أنا لا أريد أن أصبح عجوزًا وحيدة.

تساءلت عما إذا كانت الكبرياء هي التي تمنعني من قبول أشخاص لم يرتقوا إلى المعايير التي وضعتها لفارس الأحلام، لكنني لم أستطع أن أتذكر أي عريس رفضته كان يمكن أن يناسبني. أحنيت رأسي، ونزلت خصلات شعري فوق عيوني، وفكرت في الجهد الذي كنت أبذله في هذا الأمر.

ناجيت الله: «أليس من المفروض أن ألقى الثواب لجهودي؟ أنت قادر على تدبير الشخص المناسب لي في لحظة إن أردتَ، فأنت المتحكم بالكون وما

فيه، وأنت من قلت عن نفسك في كتابك الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)». قلت الآية وكأنني أُذكِّر الله بها، مع أنه لا يحتاج لمن يذكره بما قال.

فاضت عيناي وبدأت الدموع تسيل ببطء على وجنتي. رفعت يدَي مفتوحتين إلى الأعلى. ليس الله في الأعلى فقط فهو في كل مكان، لكنَّ يديَّ اتجهتا غريزيًّا إلى الأعلى بتضرع. «أنا أريد أن أتزوج فعلًا، أريد أن يكون لي زوج وأن أستقر. ألم تخبرنا أن الزواج هو نصف الدين؟ أريد أن أتبع تعاليمك وأنا أحاول جاهدةً أن أجد زوجًا. لماذا لا ترسل لي واحدًا؟» شكوت أمري إلى الله!

هبطت الدموع أغزر ولم أعد قادرة على إيقافها. بكيت ونظفت أنفي، ثم عدت إلى البكاء من جديد. لقد كانت في حياتي نِعم كثيرة: عائلة رائعة، وبيت جميل، وعمل جيد، ولديَّ فرص للسفر وأصدقاء مقربون. كان الزواج هو الشيء الوحيد الذي ينقصني! إنني أطلب شيئًا جيدًا ومشروعًا، أطلب شخصًا أعيش معه وأحبه، شخصًا يحبني ويقربني منه. من الصعب المرور بهذه العملية أسبوعًا بعد أسبوع مع كل هؤلاء الرجال الغرباء. أريد متابعة حياتي وحسب. تُرى هل أنا غير جاهزة للزواج؟ هل من أشياء يجب أن أتعلمها؟ أم إن فارس أحلامي ليس مستعدًّا لي بعد؟ ما الأشياء التي أحتاج إلى معرفتها واختبارها قبل أن أعثر على الشخص الذي سيكون رفيق حياتي؟

عليَّ أن أصبر، فالقدرة على الانتظار وضبط النفس بكرامة وامتنان لله عندما لا تستطيع الحصول على ما تريد أو عندما يتعذر عليك الحصول عليه، هي واحدة من أصعب الصفات التي يمكن أن يتحلى بها الإنسان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣). وذكرت نفسي بأن من صبر ظفر، ثم تساءلت كم عليَّ أن أصبر بعد.

لقد كانت حياتي قيد الانتظار، المدرسة تك (√) انتهت، الجامعة تك (√) انتهت، العمل تك (√)، السفر تك (√)، الزوج ( ). لا يزال هناك قوسان فارغان قرب خانة الزوج. لقد كنت عالقة، غير قادرة على التقدم في حياتي. هل كان الله يُعلمني الصبر كي أظفر بما أريد، أم إنني أنا التي كنت أمنع نفسي عن متابعة الحياة بشكل طبيعي؟ إذا فتحت قلبي للحياة وكرست نفسي للنضج، وسموت بروحي، واختبرت أشياء جديدة، وعملت في سبيل عالم أفضل، هل سيأتيني الحب؟ تُرى ما الدرس الذي ينبغي عليَّ تعلمه؟

* * *

مع مرور الوقت تغيرت القواعد التي كانت تحكم حياتنا، فمع الانتقال من بداية العشرينيات إلى أواسط العشرينيات أصبحت أقل اهتمامًا بالثرثرة. والثرثرة أصبحت أقل اهتمامًا بي. والأشياء التي كنت أراها في الماضي خبثًا أصبحت أراها الآن اهتمامًا صادقًا من جانب الخالات والخَطَّابات، على الرغم من أن هذا الاهتمام كان مُخبأ تحت السلوكيات المتأنقة السابقة نفسها. لقد وُلدن في زمان ومكان مختلفين، والمهمة التي كن ينفذنها كانت حساسة جدًّا، وتقليدية إلى أبعد الحدود، ومسؤولة عن حياكة وتمتين نسيج اجتماعي هش. لقد اكتسبن الحق بأن يكنَّ آمرات وكان عليهن المحافظة على هذا الحق. إن الزواج يحفظ المجتمع، وبما أنهن مهندسات الزواج، إذن كان على الجميع منحهن ما يستحققن من الاحترام والعرفان بالجميل.

همست الخالات وحواجبهن المُغضَّنة توحي بالقلق عليَّ: «علينا أن نزوجها في الحال، فسرعان ما تختفي الخيارات الجيدة، وتضطر إلى القبول بأيٍّ كان، أي رجل على الإطلاق». لقد كان قصدهن المساعدة والتشجيع، لكن ما فعلنه كان السماح لغيوم المصير الأسود الأبدي بأن تحوم فوق عتبة بابي، لكنني رفضت الاستسلام للخوف.

لم يعد الزواج هو البوابة التي يجب أن تدخل منها الشابة إلى عالم الأنوثة كما كانت الحال في السابق. ولم تعد القيمة الشخصية تعتمد على الزواج وإنجاب الأطفال فقط. كانت فكرة الزواج من أجل دواعٍ اجتماعية قد بدأت تندثر ببطء من نظامنا التقليدي. وفي بعض الأحيان، كان يساء تفسير هذه الفكرة بالقول إنها رفض الزواج أو رفض التقاليد أو رفض الرجال. لكن ذلك كان بعيدًا كل البعد عن الحقيقة.

فنحن لا نزال متيّمات بفكرة الزواج، لكن ليس من أجل الوضع والمكانة الاجتماعية، بل من أجل الرفقة والمؤانسة والحب. ونحن اليوم لسنا مضطرات إلى الشعور بالذنب أو الحاجة إلى تبرير بحثنا عن الزواج. لم يعد الضغط الاجتماعي هو السبب، بل اعترافنا وتقبلنا لحاجاتنا كبشر: نحن نريد شريكًا ونريد أن نكون شريكات. إن التغيير الذي كنا نبشر به كان ثوريًّا، وكان على النظام الاجتماعي أن يحاول تفهمه واللحاق به.

للتقدم في العمر حسناته، فقيود العيون الضيقة كحبات العدس، واللقاءات التقليدية بدأت تخف، والثرثرة صارت تطول الفتيات الصغيرات. أما أنا فقد أصبحت قادرة على الاستفادة من أساليب أحدث وأقل رسمية في لقاء الخطّاب؛ إذ أصبحت هناك فكرة بأن المحيط الأقل تكلفًا قد يؤدي إلى سهولة تقدم الشاب إلى الفتاة وسهولة قبول الفتاة طلبه. وهكذا خرجت للقائي الأول مع أحد الخطّاب خارج منزل العائلة. حتى إن سارة ونورين مرّتا بهذه التجربة قبلي، وكانتا تمازحانني بالقول إنني خارجة في «موعد عاطفي أول مع رجل مجهول»، وكنت أجيبهما بأن كل اللقاءات التي قمنا بها من قبل هي «مواعيد عاطفية أولى مع رجال مجهولين».

كان سيد يعيش في «ليستر»، على بعد حوالي الساعة ونصف الساعة بالسيارة عن وسط لندن، حيث اتفقنا على اللقاء. أردت الابتعاد عن البيت

وعن العيون الفضولية، فاقترحت اللقاء في مقهى صغير يقع في منطقة مزدحمة من المدينة، حيث تتوفر مواقف السيارات بسهولة، لتناول فنجان من القهوة بعد الظهر. القهوة كانت مناسبة جدًّا، فإن سارت الأمور على ما يرام يمكننا أن نبقى لتناول العشاء. أما إذا لم تَسِر الأمور كما هو مخطط لها فعندها يمكن إنهاء كل شيء بسرعة. اتفقنا على اللقاء في الساعة الخامسة مساءً. كان محاسبًا، يكبرني بأربع سنوات، مُجازًا في العلوم. تحدثنا بإيجاز على الهاتف لترتيب اللقاء وحاولنا حصر الحديث بذلك. كان صوته منطلقًا ومرحًا مما أشعرني بالراحة فورًا. لقد بدا ظريفًا ومرتاحًا.

وصلت إلى الموعد متأخرة خمس دقائق. يطيب لي أن أعتبر هذا التأخير أنثويًّا وعصريًّا. تفحَّصت الغرفة، لكنني لم أجد أثرًا لرجل يجلس وحيدًا يتلوى من العصبية والانتظار. كل الطاولات كانت مشغولة بأزواج يحدِّق أحدهما في الآخر، بينما يشربون الشاي من الفناجين الناعمة وابتساماتهم الوردية تخلق جوًّا ملائكيًّا حالمًا. تفاءلت وقلت لنفسي: ربما يعطِّر حبهم جو الغرفة وتنتقل العدوى إلينا!

اخترت طاولة مضاءة لتمنحنا شعورًا ما بالانتعاش، وجلست مقابل لوحة جدارية جميلة في آخر المقهى، بشكل ينعكس فيه الضوء على حجابي الأخضر الفاتح الذي اخترته بعناية. لطالما نُصحت بارتداء الألوان الفاتحة، فيبدو أن الشبان يحبونها. كما أن اللون الأخضر هو لون الجاذبية. خلعت سترتي وجلست وحقيبتي على ركبتي، وأخذت أفتش على هاتفي المحمول داخلها. وجدته أخيرًا في أعماق حقيبتي النسائية الكبيرة، ووضعته على الطاولة بترقب.

الساعة الخامسة والربع: بدلت مقعدي وجلست مقابل الباب تفاديًا للإحراج من الالتفات المستمر إلى المدخل.

الخامسة والثلث: نقلت سترتي من على كرسيه إلى ظهر كرسيَّ.

الخامسة والنصف: سألني النادل إن كنت أرغب في طلب القهوة، لكنني هززت رأسي قائلة إنني أنتظر شخصًا ما. رفع حاجبيه وابتعد. تأخر سيد نصف ساعة. إنه آتٍ من مكان بعيد. نظرت إلى الهاتف، لم يتصل ليخبرني أنه سيتأخر.

الخامسة وخمس وثلاثون دقيقة: تُرى هل يجب أن أتصل به لأعرف أين هو؟ قررت أن هذا تصرف غير مقبول في اللقاء الأول.

الخامسة وأربعون دقيقة: تُرى هل هو بخير؟ ربما يكون قد وقع له حادث، وربما هو مستلقٍ مضرَّج بدمائه على الطريق العام. ربما يكون في سيارة إسعاف تحمله الآن إلى المستشفى. لا بأس، أنا فتاة ولا أستطيع الاتصال، وعلى أية حال فاتصالي لن يفيد بشيء.

السادسة إلا ربعًا: طلبت كابوتشينو. سواء أتى أم لا، ما زلت أرغب في شرب القهوة.

السادسة: تُرى هل يعرف عنوان المقهى؟ هل نسي رقم هاتفي؟ لقد تأخر ساعة. قررت أن أتصل به؛ لأعرف على الأقل إن لم يكن قادمًا، عندها أعود إلى البيت. هناك أطراف أخرى معنية بهذا الاجتماع، ولديها اهتمام شديد بالنتائج. عليَّ أن أحرص على القيام بكل ما أستطيع لإنجاح الموعد، كي لا يقع اللوم عليَّ لاحقًا. من المهم ألا أبدو مستسلمة.

ضربت رقمه وانتظرت. أجاب أخيرًا وسمعت صوت المذياع قربه. بدا مرتاحًا: «آه نعم أنا في الطريق. ازدحام الطريق العام، كما تعرفين. الازدحام العادي. أنا قريب. لا تقلقي. سأكون عندك خلال نصف ساعة».

تنهدت وأنا نصف غاضبة ونصف مرتاحة. كيف يمكن أن يتأخر ساعة ونصف من دون أن يفكر في الاتصال ليعتذر؟ إن هذا يكشف الكثير عن شخصيته. تُرى هل أريد أن أمضي بقية عمري مع شخص يتأخر بهذا الشكل، من دون أن يكترث حتى بإخباري؟ لقد كشف الكثير عن شخصيته حتى قبل أن أراه.

ومن ناحية أخرى، لقد طبعوا في ذهني أن عليَّ ألا أقفز إلى الاستنتاجات حول الأشخاص بسرعة. ماذا لو كان لديه سبب مقنع؟ ماذا لو كان لا يريد الاتصال في أثناء القيادة؟ ربما كانت الشوارع خطرة وأراد التركيز في القيادة. ربما... ربما... ربما... لا بأس في تقبل الأمور بإيجابية، أليس كذلك؟

شعرت بالراحة وحاولت أن أبذل قصارى جهدي لأشعر بالحماس من جديد. هو لم يتركني. ولن أعود إلى الخَطَّابة بخفَّي حُنين، فأنا لا أريد إثارة شفقتها بفشلي في تأمين موعد مع رجل على فنجان قهوة. إن كان متأخرًا أم لا، على الأقل هناك فرصة. لا نعرف، ربما يكون هو العريس المطلوب.

السادسة والنصف: بدأت أشعر بالجوع فطلبت بعض البسكويت بالشوكولاتة البيضاء والبندق. ابتسمت عندما وصل الطلب، فالبسكويتات كانت على شكل قلب، ربما تكون هذه إشارة ربانية.

الساعة السابعة: أمسكت بالهاتف لأتصل، لكنه وصل في تلك اللحظة، متأخرًا ساعتين كاملتين. ابتسم ابتسامة واسعة، طوله حوالي ١٧٨ سم، رشيق، يرتدي سروال جينز أزرق وقميصًا أبيض، شعره بني قصير ومرتب، وتفوح منه رائحة عطر ناعم رقيق.

جلس ومدد نفسه في كرسيه. التفت إلى النادل وطلب قهوة ثم شرح قائلًا: «الطريق طويل». أومأت برأسي موافقة. لم يكن بوسامة «إنديانا جونز»، لكنه لطيف وأنا مرتاحة لوجوده. ربما يكون الانتظار درسًا آخر عليَّ أن أتعلمه.

قال كمن يقدم عذرًا: «أحتاج إلى شيء حلو المذاق كي يساعدني على ابتلاع القهوة». أشرت إلى البسكويت، لكنه رفض بتعبير من وجهه.

قلت بابتسامة تآمرية: «إنهم يصنعون كعكًا لذيذًا هنا أيضًا».

رفع حاجبيه قائلًا: «حقًّا...؟» بدا مسرورًا وظهرت غمازة على خده. الغمازات هي نقطة ضعفي. نقطة ضعفي الأخرى هي العيون العسلية، لكن عيونه ليست كذلك.

تحركت غمازته بإغراء وهو يقول: «شوكولاتة؟».

أومأت ثانية بتشجيع هذه المرة: «أنا أحب الشوكولاتة أيضًا». نظر إليَّ بجرأة، ثم رفع صوته وهو يكلم النادل عن بُعد: «قطعتَي كيك بالشوكولاتة!». التفت إليَّ وهو يبتسم. شعرت بالحرج من صراخه، لكنني أعجبت بالراحة والسهولة التي فعل بهما ذلك. كما أن النادل بدا سعيدًا لتنفيذ طلبه. كيف يستطيع فعل ذلك؟

وصل الكيك، غامقًا وطريًّا ولذيذًا. أكلت قطعتي بلقيمات صغيرة، وكانت شوكتي تغوص بين طبقات الشوكولاتة الغنية، وتحملها إلى شفتي متفاديةً أحمر الشفاه. تلذذت بالقوام الإسفنجي وحبات التوت المختبئة بين طبقات الشوكولاتة. نظرت فإذا بقطعة الكيك عنده قد اختفت وكانت عيناه تشعان وفنجان القهوة بيده. إنه محبب بشكل كبير، لكن هل سيحبني؟ قلت لنفسي إنه يجب أن أحاول أن أكون أكثر ظرفًا.

تجاذبنا أطراف الحديث. هو يتكلم وأنا أضحك. وسرعان ما نسيت ساعتَي الانتظار. تحدثنا عن السفر وعن المسجد وعن الرياضة. إنه يحب الكريكيت. هو فعلًا يحب الكريكيت.

«أحِبها أكثر من كيك الشوكولاتة»، قالها وهو يبتسم لي بشقاوة. «أنا لست مجرد هاو كريكيت، بل أنا متابع دقيق لكل المباريات. فمثلًا بعد ظهر اليوم كانت هناك مباراة اختبارية».

«آسفة أنك فوَّتها من أجلي»، اعتذرت بتواضع، ثم توقفت قائلة: «أرجو أن يكون الأمر جديرًا بهذا».

ابتسم ابتسامة واسعة وقال: «ربما».

ابتسمت أنا أيضًا ابتسامة واسعة.

تبادلنا مزيدًا من الحديث عن عمله وعملي وعائلته وعائلتي. لقد حان وقت العشاء وأنا جائعة. سألته إن كان جائعًا هو أيضًا. فأخبرني أنه أكل كيسًا كاملًا من رقائق البطاطا قبل أن يغادر البيت. قال ناصحًا: «لا يمكن للمرء مشاهدة نهائيات مباريات الكريكيت من دون التهام كيسٍ من رقائق البطاطا بالجبن والبصل». أنا لا أحب الجبن والبصل، وأشعر بالقرف حين لا أستطيع إزالة رائحتهما من أصابعي لاحقًا.

استدار ليبحث عن النادل، فهو يشعر بالعطش من كثرة الكلام. بدأت فقاعة كبيرة تتمدد في رأسي، ساحبة منه الأكسيجين. أخذ غضبي يستعر.

سألته: «في أي ساعة انتهت مباراة الكريكيت؟».

أجاب بشرود وهو لا يزال يبحث عن النادل: «بعد الخامسة والنصف بقليل». ها قد بدأت خيوط اللغز تنجلي.

سألته مذهولة: «هل شاهدت المباراة كلها في المنزل؟». أخذت ألعب بقطع البسكويت الباقية كي أسيطر على أصابعي المرتجفة. ابتسم بوقاحة، ثم غبَّ المياه المعدنية المثلجة بسرعة. فرقعت إحدى البسكويتات بين يدي فجأة وهي تُكسر إلى نصفين. قدمت له النصف غير المنتظم.

بينما كنت أنتظر في المقهى لمدة ساعتين، كان هو لا يزال في البيت، وهو يعرف بكل وقاحة أنه سيتأخر ساعتين. ذعرت، إنه غافل تمامًا.

صبرت بتهذيب حتى انتهيت من قهوتي؛ فأنا لا أريد أن أكون وقحة مثله، كما أني أريد أن أحافظ على شخصيتي وسمعتي ومكانتي. لقد كان إحساسي عنه صحيحًا، كان يجب أن أثق بحدسي. كشف اللقاء كل شيء. دلت تصرفاته على كثير من خبايا شخصيته من دون أن يدرك. لقد عرفت أنه يعاني، على الرغم من سحره وترتيبه، من عيب أساسي فادح هو قلة الاحترام والحط من قيمة الآخرين، الكريكيت مقابل اللباقة.

مكتبة الرمحي أحمد

لقد رنَّت في أذني نصائح والدي والخالات بشأن البحث عن شخص طيب النشأة ذي أخلاق عالية، وكذلك النصائح الدينية التي تحث المرأة على البحث عن شخص يحسن معاملتها، لأنه يعرف كيف يحترم البشر جميعًا.

لقد وجدت هذه الطريقة مذهلة، فهي تمنح المرأة الفرصة للتعرف على السلوك الفطري للشخص الآخر، كما تسمح لها بمعرفة رد فعلها التلقائي تجاه هذا السلوك بالدرجة الأولى. إن الإنسانية الصرفة في التصرف حيال قضايا مشاركة الحياة معًا هي التي جعلت من هذه العملية تجربة حياتية مطلقة. لقد كنا غريبين، لكن كان علينا التحدث بعمق وحميمية عن مستقبلنا. لم يكن سيد مضطرًّا لأن يشرح لي بالكلمات مقدار احتقاره لزوجته أو قلة احترامه للآخرين. لقد رأيت ذلك في تصرفاته، فكلماته لم تخبرني إلا ما أراد تصديقه عن نفسه.

بدأت أسأل نفسي الأسئلة الصعبة نفسها: هل تتعارض آرائي بنفسي مع سلوكي الفعلي؟ أم إنني نجحت في تحقيق التوازن بين كلماتي ورغباتي؟ بعد تجربتي مع سيد أصبح من الواضح أن البحث عن شريك الحياة المحتمل لا يعني التغاضي عن الهفوات والعيوب.

كما علمتني تجربتي مع سيد أن أثق بحدسي، فبعد ساعتين من الانتظار ومن دون اعتذار عن التأخير كان يجب أن أعرف حقيقته على الفور، لكن التقاليد والأعراف تقول إنه علينا أن نتابع موضوع الزواج مهما كان الثمن، وأن نسخِّر عقولنا وغرائزنا لهذا الأمر. كان عليَّ أن أثق بفطرتي وحدسي اللذين وهبني الله إياهما، كما وهبهما البشر جميعًا، كي نرى ونتأكد من حصولنا على ما نستحقه. إن الفطرة مهمة للإنسان، فهي الغريزة الطبيعية التي ترشد المرء إلى الصواب وتقوده إلى تحقيقه وتدفعه إلى توقُّع معاملة طيبة من الطرف الآخر في المقابل.

من حقي أن تتم معاملتي بلياقة. وعلى الرغم من أن التقاليد تبخس المرأة حقها في الاحترام الذي تستحقه، إلا أن الدين يقدمه لها ويشجعها على أن تثق في ذلك الصوت الداخلي الذي تملكه. لقد أدركت في تلك اللحظة أن ديني لديه شيء يقدمه لي. لقد أخذته من الكتب وطبقته في الحياة: أنا إنسان وأستحق أن أُعامل باحترام.

كل الأشياء تتغير

أن يكون للمرء دماغ جيد لا يعني بالضرورة أن يكون لديه شخصية جيدة. هكذا كانت الحال مع خليل. فقد كان طبيب أسنان مؤهل، وقد تخرج الأول على دفعته، وأنشأ لنفسه عيادة ناجحة. وقد ولد وتربى في لندن. كانت أمي تعرف أمه مجرد معرفة سطحية. وقد أخبرتني أن والده ووالدته كانا ذكيين جدًّا، إضافة إلى جاذبيتهما وتدينهما، وإن كان فعلًا ابن والديه فلا بد أن يكون أكثر من جدير لشغل منصب العريس. اتصلت الخَطَّابة بأمي لتسأل إن كنا مهتمين بالأمر. وقد بدا فرصة واعدة لم نحظَ بمثلها منذ زمن بعيد. رددنا بالإيجاب، سألَت الخطابة إن كان باستطاعتها إعطاء رقم هاتفي لخليل كي يتصل بي مباشرة. قالت: «يمكنهما التحدث وإن ارتاحا في الحديث يستطيعا ترتيب اللقاء بنفسيهما». لقد كان هذا الترتيب مناسبًا ومريحًا جدًّا.

اتصل خليل في مساء يوم الأحد وكانت أمسية صيف ذهبية جميلة. قال وهو يبتسم في الهاتف: «مرحبًا». أجبته مبتسمة أنا أيضًا: «مرحبًا». لقد كان القبول فوريًّا. تحدثنا أحيانًا بجدية وأحيانًا بمرح. ومرت خمس عشرة دقيقة في لمح البصر. أخبرني أنه يرغب في الاتصال مرة أخرى، وأخبرته أنني سأكون في انتظار اتصاله. وصف نفسه بأن طوله ١٧٣ سم وأنه رشيق ووسيم طبعًا.

وقد رددت بالمثل راسمة له صورة عن مظهري. إن مثل هذا الحديث يجعل المكالمة الهاتفية أسهل، على قصرها. وقد جعلني غروره الساخر في التحدث عـن شكله أضحك كثيرًا لدرجة أنني تساءلت إن كانت لديه أية عيوب على الإطلاق. أجابني بلهجة أنيقة ومتميزة: «لديَّ مشكلة شخير صغيرة يا عزيزتي، لكن السيدات يقلن لي إن شخيري ساحر للغاية».

قهقهت وقد أعجبني اعترافه بمشكلة الشخير لسبب غير مفهوم. اتصل في المساء التالي وتحدثنا ثانيةً. سألني إن كنت أحب الخروج للعشاء يوم الجمعة باعتبار أننا نتفق جيدًا. قبلت، فقد نجح في امتحان «أريد أحدًا أستطيع التحدث معه» الصعب. وقد كان هذا هو الامتحان الأصعب بالنسبة إليَّ. اتصل بتلقائية في المساء التالي وتجاذبنا أطراف الحديث. اعتبرت هذا الاتصال إشارة إيجابية. اتصالان عفويان. ابتسمت. لقد كان العشاء بعد ثلاثة أيام.

لم يتصل الثلاثاء ولا الأربعاء. بل هاتفني يوم الخميس وكانت لهجته مختلفة تمامًا: «هناك شيء أود أن أقوله لك، وأرجو ألا يغير شيئًا، لكن من المهم أن أكون صادقًا معك». بدأ قلبي يخفق بقوة. أوه، لا! ما السر الذي يخفيه؟ هل هو متزوج؟ هل يعاني من مرض عضال؟ هل كان في السجن؟

«أردت أن أخبركِ أنني لا يمكن أبدًا أن أتزوج من امرأة طولها ١٦١ سم»، ثم تابع بلهجة صادقة: «أعرف أننا نتفق جيدًا، وأنا متأكد من أنك جذابة جدًّا من الكلام الذي سمعته عنك، لكنك قصيرة جدًّا بالنسبة إليَّ؛ لذا أرجو ألا تعلقي كثيرًا من الآمال على لقائنا غدًا.»

كان هناك صمت طويل. ما عساي أن أقول؟ لقد خرَّب موازين القوى.

«لكن طولك ١٧٣ أليس كذلك؟» عبست على الهاتف. «لستَ أطول مني بكثير، وفي الحقيقة يمكن أن نقول إنه فرق مثالي». أردت أن أنقذ الموقف في محاولة مني لإقناعه بألا يهدم الآمال والأحلام المتفتحة التي بنيتها طيلة

الأسبوع. لقد كان من النادر بالنسبة إليَّ أن أجد شخصًا أشعر تجاهه بهذه الشرارة الطبيعية.

«هذا هو ما أشعر به»، قال ذلك برعونة محاولًا أن يوصل إليَّ أنه كان يمزح. تذكرت موضوع الشخير، ثم قال بانتعاش: «على أية حال، هل اخترت المطعم؟».

أجبته: «وما جدوى اللقاء إذَن؟».

قال بأسلوب مدقق معبرًا عن خيبة أمله: «أنت تعتقدين أنني سخيف، أليس كذلك؟ إن كان هذا شعورك، فيا للأسف!». توقف متعمدًا ليستعيد موقفه، ثم تابع: «هل لديك في مخيلتك تصور عن نصفك الآخر؟».

أجبت من دون أن أعرف بالضبط إلامَ يرمي: «نعم».

«أنا أيضًا لديَّ تصور لنصفي الآخر، وهي أطول منك.»

أجبت بحدة: «كل شخص لديه تصور، لكنني أعرف أن الشخص الحقيقي قد يكون مطابقًا لذلك التصور وقد لا يكون. قد أجد شخصًا غير متوقع بالمرة، لا يطابق تصوري أبدًا، لكنه قد يكون أفضل بكثير مما تخيلت. لكن كيف يمكنك أن تعرف إذا تمسكت بهذه الأفكار الثابتة؟ هل تتخلى عن الشخص المناسب فقط لأنه قصير جدًّا أو طويل جدًّا؟».

قال بنعومة ومن دون أن يعتذر: «نعم، لكنني مع هذا لا أزال أريد أن ألتقي بك». وأضاف، مداهنًا: «فكري في الموضوع، رجاءً».

رويت قصة الاعتذار لوالدي الذي كان أكثر حكمة وإدراكًا مني. فقال بعبارة بسيطة: «قولي له إن النساء لا تُباع بالمتر».

لكنني مع هذا فشلت، ومن دون تعقل، في رفض دعوته، وذهبت إلى لقائه على العشاء. هل هو الفضول؟ الانجذاب؟ التفاؤل؟ أم القدر؟ كان يجب أن

ألاحظ أنه، وبما أنه قد صنفني كشخص غير مناسب، فقد ترك لنفسه خيار الاستمرار في العلاقة، لكنه استبعد أي خيار لي أنا بأن أرفضه. لقد احتفظ بكل القوة في يده وأنا جاريته بكل ضعف.

على العشاء أصر أن نتبع الطريقة الهولندية في دفع الحساب، كرر هذا عدة مرات كي يوضح قصده. نحن أصدقاء فقط، ولكن مع هذا فأنت جميلة جدًّا. كرر: «جذابة جدًّا، لكنك قصيرة جدًّا، يا للأسف». تساءلت إن كان يعتقد أن قصار القامة ليس لديهم إحساس.

لقد بدت قلة شهامته واضحة، فقد كان يفتقر إلى المعايير الأخلاقية العالمية التي تتضمنها آداب السلوك البريطانية والآسيوية والإسلامية على حد سواء. لقد كان بخيلًا، إذ لا يزال من اللباقة أن يدفع الرجل أو على الأقل أن يتظاهر بأنه يريد الدفع. كنت سأساهم في الدفع في جميع الأحوال.

تركنا المطعم، وأصرَّ على تناول الحلوى. وعلى الرغم من أنني كنت أشعر بالشبع الشديد بعد العشاء إلا أنني وافقت على تناول بعض الشاي، بينما هو يأكل البودينج. طلبت شايًا بينما طلب الشاي والحلوى، وبعد العشاء كان لا بد من تناول حلوى الشوكولاتة طبعًا.

لم يكن لدى أي منا قطع نقد صغيرة لدفع الفاتورة، فدفع كل منا ورقة عشرة جنيهات إسترلينية. أعاد النادل الطبق وعليه الإيصال وبقية النقود. وضع بقية النقود التي كانت في الطبق في جيبه، بما فيها بقية حسابي، من دون أن يرف له جفن.

فكرت ثانية كيف أن حدة البحث عن الحب يمكن أن تكشف الكثير عن الشخص. الشعور الذي أثاره خليل فيَّ جعلني أنسى أهمية الشخصية، وقد تذكرت كلمات الرسول ﷺ وهو ينصحنا بعدم اختيار الشريك على

أساس المظهر أو الثروة فيقول: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير». لقد رفضني خليل لأنه كان يحمل فكرة ثابتة عن المظهر الذي يجب أن أكون عليه، وهذه الفكرة كانت غير عقلانية إطلاقًا. فهو لم يكن يريد شريكة بل دمية؛ دمية تُصنع وفقًا لمعايير محددة. وماذا بشأن تصرفاته الغريبة حيال النقود؟ لقد كنت أريد أن أتشارك الحياة مع شخص كريم الروح. شخص يقربني من الخالق، كنت أريد أن أتعلم من زوجي كيف أصبح أفضل. لم أكن أستطيع الزواج برجل بخيل لا يشعر حتى أن عنده مشكلة.

لقد حرمَت التوقعات غير الواقعية وغير العقلانية خليلًا من الاستمتاع بالخيارات، ومن بينها خيار العيش مع المرأة التي ربما تكون الرفيقة المناسبة لدربه. وعلى الرغم من أنه كان مهذبًا ومتحدثًا لبقًا، إلا أن تصرفاته دلت على قلة احترامه للآخرين. ما كنت لأرضى أن أمضي حياتي مع شخص متحكم ومتلاعب مهما بدا رائعًا. تكشفت لي الحقيقة بعد عدة اتصالات هاتفية، ولقاء لساعات قصيرة. لو كنا نتواعد فلربما ربطني به لأشهر قبل أن يكشف عن أفكاره المبيتة.

واجهت نفسي وتحديت كياني الداخلي بصدق وسألت نفسي: «هل أنا متزمتة في توقعاتي؟ هل متطلباتي غير عقلانية؟». حامت الأسئلة في رأسي وأصابتني بالغثيان.

بعدها بفترة قصيرة التقيت بمبين، وحاولت أن أكون أكثر انفتاحًا هذه المرة. وأيضًا هذه المرة رتبنا للقاء في وسط لندن بعيدًا عن العيون والثرثرة. كنت أنتظره خارج محل لبيع المثلجات اخترناه للقاء عندما رنَّ هاتفي.

قال الصوت: «السلام عليكم».

أجبت: «وعليكم السلام».

«احم، أهلًا... أنا مبين»، كان صوته لطيفًا، أنيقًا ومتكلفًا.

أجبت: «مرحبًا مبين».

«اسمعي، أنا آسف، لكنني سأتأخر قليلًا».

تأخير! يبدو أن حياتي دائمًا تعاني من التأخير.

«حسنًا» أجبته. أردت أن أكون لطيفة، وأن أمنحه فرصة قبل أن أحكم عليه، كي لا أشعر بالذنب لاحقًا. ربما لديه سبب مقنع، على الأقل اتصل ليخبرني، لكن ما سر تأخير الرجال يا ترى؟ لا أزال حتى اليوم أنكمش كلما رأيت مباراة كريكيت في التلفزيون.

سألته: «كم تتوقع أن تتأخر؟».

«حوالي نصف ساعة».

«سأراك بعدها إذن». أغلقت الهاتف ووضعته في حقيبة يدي، وبدأت أتمشى باتجاه المحلات لأتفقد واجهاتها. يمكنني الرجوع بسهولة قبل وصوله، كما أنه يستطيع أن يتصل بي إذا لم يجدني. لا داعي للوقوف ببؤس أمام الناس. انغمست في مشاهدة الواجهات محاولة استغلال الوضع الذي وجدت نفسي فيه بالتي هي أحسن. لن أضايق نفسي من أجل نصف ساعة تأخير. قررت أن أستفيد من الوقت. اقترب مني شاب آسيوي وقال: «عفوًا ولكن أعتقد أنني أعرفكِ».

ألا يكفي أن الشاب الذي أنتظره تأخر، حتى يأتي هذا الغريب كي يثرثر معي؟ نظر إليَّ نظرة واثقة، لدرجة أني تساءلت إن كنت لم أتعرف عليه ببساطة. ربما كنت أعرفه؟ لو أجبت بجفاء أنني لا أعرفه، وتبين لاحقًا أنه

صديق للعائلة، فربما أبدو وقحة جدًّا؛ لذا كنت حذرة في إجابتي وقلت: «أين تعتقد أننا التقينا؟».

نظر إليَّ بصدق: «في مدرسة سيكث فورم». ابتسم كي يشجعني على المتابعة. بادلته بنظرة خالية من أي تعبير. فأضاف: «تعرفين، في السنة الأخيرة».

لقد كُشفت كذبته. «لقد درست في مدرسة بنات، ولم يكن معي أولاد في الصف». رددت بحسم واستدرت وبدأت أمشي مبتعدة. ركض ورائي. فكرت وأنا أزيد من سرعتي: «آه لا! ها أنا ذي أجذب الرجال الغرباء كي يطاردوني في الشارع». بدأت أمشي وغضبي يستعر: «شيلينا! شيلينا! أنا مبين!» توقفت والتفتُّ.

تكلمت من دون تفكير: «مبين؟ لكنك قلت إنك ستتأخر!» كان مبين على بعد نصف ساعة من هنا.

استدرت لأنظر إلى المكان الذي أتى منه الغريب للتحرش بي: «لكن، أنت الآن، هناك، لكن...». نظرت إليه بارتباك وضيق. رد عليَّ بابتسامة، ثم أجلسني في مقهى قريب وطلب لنا فنجانَي قهوة.

ابتسم بسعادة وبدت ابتسامته مشرقة كأشعة الشمس، لكنني شعرت بغيمة قاتمة متوعِّدة تتجمع في داخلي. وظللت أذكر نفسي بعدم التسرع، حتى لا أرتكب خطأ إطلاق الأحكام المسبقة. ربما يكون متوترًا قليلًا، هذه هي كل القصة.

قال: «أردت اكتشاف حس الفكاهة لديك، لذا مازحتك قليلًا». ابتسم وبدا أكثر سعادة: «لديك حس فكاهة رائع، لقد أحسنتِ التصرف!» استمر بالابتسام: «لقد أحببت تصرفك، معظم الفتيات لا يتصرفن هكذا».

لقد سررت باجتيازي لامتحان «الفكاهة»، وكنت أكثر سرورًا بمحافظتي على احترامي وكرامتي. للأسف لقد نسي مبين في غمرة بحثه عن الشريكة أنه هو أيضًا كان يعطيني انطباعًا عن نفسه. ونسي أن تصرفاته سوف تريني شخصيته أكثر مما تفعل آلاف الكلمات.

* * *

لقد روت لي جدتي كيف كانت تتم عملية اختيار العريس في شبابها. إذا تقدم الشاب إلى الفتاة واعتبرته العائلة شخصًا جيدًا ومن عائلة جيدة، له دخل مقبول وليست لديه خصال سيئة، لا يبقى أمام العائلة عندها إلا أن تقبل طلبه. لم يكن هناك من داع للتوافق أو الانجذاب. يجب ألا تكوني متطلبة. كان بقاء الفتاة في بيت أبيها مدة طويلة من الأمور المعيبة. ما السبب الذي سيقدمونه لرفض أول عريس تقدم للخطبة؟ ماذا لو كان هذا هو أفضل عريس يتقدم لها أو ربما الوحيد؟

سألتُ جدتي عدة أسئلة عن حياتها كامرأة آسيوية في النصف الأول من القرن العشرين في تنزانيا. لم أكن أعتقد أن تجاربها كانت فريدة أو مختلفة لكونها مسلمة، بل لأنها عكست روح زمانها وأصلها كامرأة تنتمي إلى مجتمع آسيوي. أعتقد أن نظيراتها من نساء الهندوس والسيخ والمسيحيات، اللواتي كن كثيرات في المدينة التي عاشت فيها، مررن هن أيضًا بتجارب مشابهة لتجاربها. أخبرتني أنها في أحد الأيام، وعندما كانت في الخامسة عشرة أخذها والدها، الذي كان رجلًا طيبًا وكريمًا ورؤوفًا بكل المقاييس إضافةً إلى تدينه، إلى نافذة بيتهم وسحب الستائر قليلًا، ثم أشار إلى رجل قصير القامة مشى مبتعدًا عن البيت وقال: «لقد خطبك هذا الرجل». وتم الزواج بعد ذلك بفترة قصيرة.

روت لي جدتي هذه القصة من دون دهشة، وكأن هذه التجربة كانت نموذجية في ذلك الزمن. أعتقد أن هذه كانت الطريقة التي تتم بها الأمور، وأن والدها لم يكن يكنُّ لها إلا الحب. أخبرتني أمي أن والدها كان يحب بناته أكثر من أولاده، فعندما كانت زوجته تنجب له ولدًا كان يقدم هدية نقدية للقابلة ومساعداتها. أما عندما كانت تنجب له بنتًا فكان يعطي القابلة ومساعداتها ضعف ذلك المبلغ. لقد أنجب سبعة أبناء. وكان هذا التصرف غريبًا ورائدًا، وإسلاميًّا فوق كل تصور في زمن كانت الفرحة بولادة الأولاد الذكور أكبر بكثير من الفرحة بمولد الإناث، وهو الأمر الشائع في عديد من الثقافات حتى اليوم. لذا لا يسعني إلا الاعتقاد بأنه نهج النهج الكريم المتدين نفسه في تزويج بناته.

كيف كانت الشابة تتزوج إذن ويصبح لها بيتها الخاص؟ كانت جدتي كغيرها من بنات جيلها تعرف القليل عن الرجال، إذ نادرًا ما اضطرت للاحتكاك بهم، لذا فقد اعتمدت على حكم والدها وعلاقاته في إيجاد الرجل المناسب. إن لم تتزوج في الخامسة عشرة فماذا عليها أن تفعل؟ كانت الفتاة تعتبر ناضجة في تلك السن، حتى إنها كانت تعتبر راشدة. وحتى في يومنا هذا لا تزال ابنة الخامسة عشرة تعتبر بالغة جسمانيًّا وفكريًّا ويمكنها إنجاب الأطفال.

إن لم تتزوج الفتاة فعندها تكون عائقًا في طريق طابور طويل من الإخوة والأخوات الأصغر منها سنًّا. فلا يمكن للأخت الصغرى أن تتزوج قبل الكبرى، وإلا فإن فرص الكبرى في الزواج ستنتهي إلى الأبد. إن كل خيار تتخذه الشابة وكل تصرف تقوم به هو شأن جماعي، تتأثر به ويؤثر في الوقت نفسه على الأشخاص من حولها. فمثل كل البشر كانت الفتاة الشابة – ولا تزال – تعيش ضمن الجماعة. ومصير الأشخاص من حولها مرتبط بمصيرها.

على الشابة أن تتزوج، فبقاؤها في بيت أهلها عندما تكبر لن يسمح لها بأن تكون جزءًا من مجتمعها في ذلك الزمان. كما أنه أمر غير مقبول من الناحية العملية، فالنساء لم يكنَّ يملكن الاستقلال المادي والاجتماعي الكامل، تمامًا مثلما كانت الحال وقتها في المجتمعات الأوروبية، وكان المجتمع يقوم على العائلة بالدرجة الأولى: من سيعتني بها بعد موت والديها؟ وأي نوع من الاستقلالية سيكون لديها؟ من المنظور الاجتماعي والثقافي كان الزواج هو سبيلًا أمام المرأة لكي تنعم بوضع اجتماعي مستقل ونوع من السيطرة على مصيرها. كان الاعتقاد السائد هو أنها تزهر وتدخل عالم الأنوثة في بيتها الخاص، حيث تستطيع إدارة مملكتها الخاصة واختبار نوع جديد من السعادة. أما من المنظور الإسلامي فيعتقد أن الرجال والنساء على حد سواء يكونون في ذروة اكتمالهم عندما يتزوجون. كما يعتقد، صوابًا أو خطأً، أن أكثر ما ترغب فيه المرأة هو أن يكون لها بيتها الخاص الذي تسيطر عليه سيطرة كاملة، ومن ثم، أن تصبح أمًّا.

كان الزواج في تلك الفترة يعكس تقسيمًا اجتماعيًّا مقبولًا للمسؤوليات بين الزوج والزوجة، فالزوج مسؤول عن كسب النقود والزوجة مسؤولة عن العناية بالبيت والأطفال. إن عقد الزواج الإسلامي الذي يربطهما لا يُلزم المرأة بهذه الواجبات، فالزوج هو المسؤول عن توفير الحماية والمأوى للزوجة والأولاد. كان يمكن للمرأة أن تشارك في تلبية الاحتياجات المادية إذا أرادت، أو إذا دعت الضرورة لذلك، لكنها ليست مجبرة على فعل هذا، ولا تتضمن التزاماتها الزوجية أعمال التنظيف والطبخ، أو حتى العناية بالأطفال. إن مسؤوليتها الرئيسة هي أن تكون رفيقة جيدة لزوجها، لكن في كل جوانب الشريعة الإسلامية هناك حد أدنى للواجبات المفروضة على كل إنسان. إذا وفى المرء بهذه الالتزامات فإنه يكون قد التزم بحرفية الشريعة لا بروحيتها.

يشجع الإسلام على المودة والرحمة، وعلى العطاء أكثر من الأخذ. أما الزواج، في زمن جدتي، فكان يقضي بأن يعيل الرجل زوجته، وأن تعتني الزوجة به وبأطفاله في المقابل. إن القوانين لا تلزمك بفعل هذه الأشياء، بل هو الحب المتبادل الذي يلهم المرء كيفية التصرف.

أنجبت جدتي عشرة أبناء، ولا أذكرها إلا وهي مبتسمة، القرآن بيد والمسبحة باليد الأخرى. كانت تستيقظ كل ليلة ولأكثر من خمسين سنة لتصلي قيام الليل، وكانت تظل مستيقظة إلى الصباح وهي تتلو آيات من القرآن الكريم. وفي المناسبات التي كانت تزورنا فيها كنت أنزل إلى الفطور في الصباح لأجدها مستيقظة وقد أعدت الشاي وهي تبتسم، دائمًا تبتسم.

لقد كانت متألقة وتشع حيوية أكثر من أي أحد عرفته في حياتي، الأمر الذي ترك أثرًا أبديًّا عليَّ. فمهما كانت المشاكل التي تواجهها كانت دائمًا راضية. تقول أمي إنها كانت كذلك طول عمرها. ويمكنني أن أعزو ذلك لسببين: أولهما سلوكها الهادئ، وثانيهما إيمانها الكبير بالله. لقد كانت دائمًا مع الخالق ودائمًا تفكر في مالك الملك، وعلى تواصل دائم معه. كان حبها لزوجها وأولادها ومجتمعها متداخلًا بشكل طبيعي مع حبها للخالق. كان وجودها مريحًا ومهدئًا لي؛ لذا كنت أريد أن أعرف سرها. لكن كان من الواضح أنها لم تكن تستخدم طرائق سرية غامضة، ببساطة هي كرست حياتها لله وحرصت على معاملة الجميع بمحبة ولطف. لقد كانت تجسيدًا حيًّا لـ«الإسلام»، وربما تكون مجرد امرأة عادية، لم تُحدث تغييرًا كبيرًا في العالم، لكنها بالتأكيد كانت قادرة على تغيير العالم داخل نفسها. لقد انتصرت على كل من حولها، الأمر الذي جعل منها بطلة حياتها الخاصة.

لقد أخبرتني حكاياتها كزوجة وكانت تصلِّي كثيرًا لي كي أعثر على زوج طيب: «كوني لطيفة معه وسيكون لطيفًا معك». هكذا نصحتني: «اعتني بمن

حولك واعملي بجد، إن طرق إنجاح الزواج هي ذاتها في زماني وزمانك وكل زمان».

«عليك أن تعتني بزوجك. أعرف أن أفكار الناس تختلف اليوم، لكن إذا اعتنيت به فسوف يعتني بك. تذكري هذا عندما تسوء الأمور، وعندما لا تحصلين على ما تريدين. الجزء الأصعب يأتي بعد الزواج. تذكري أن تعتذري حتى عندما لا يكون الخطأ خطأك. الرجال مختلفون عن النساء، فنحن النساء عندما ننزعج نُخفي انزعاجنا، بينما الرجال يعبرون عن انزعاجهم ثم ينسونه. بعد خمسين سنة من يتذكر إن كان الخطأ خطأك أم خطأه؟ أنتما في المركب نفسه. هل تفرق إذا اعتذرت أنت وكان هو المخطئ؟ إن ما يتذكره دائمًا هو أن لديه زوجة تحبه وتهتم بأمره بعد كل هذه السنين.»

ثم كانت تبتسم وتضحك بصوت عالٍ وهي تقول: «انظري إليَّ، عجوز مسنَّة تسدي النصائح».

كنت أجيبها وقلبي يتفجر بالحب لذلك النور المضيء الذي هو جزء من حياتي: «جدتي، هلا دعوتِ لي كي أحظى بزوج طيب؟» كانت تضع يدها على رأسي وتقول بصوت الأم الذي يحمل نورًا يأتي من عالم آخر: «أنا أدعو لكل أبنائي كي يكونوا سعداء. إن الله سيدلك ويباركك، فالأمر بيده وحده، اطلبيها منه وحسب».

ثم كان حبها يذوب في ابتسامتها الكبيرة، وكنت أعرف عندها أنها ستمازحني بشأن الزواج.

تقول ضاحكة: «أنت نحيلة قليلًا، هل هذا ما يحبه الرجال هذه الأيام؟».

الصاعقة

أوحشني «ذلك الشعور» الذي ظننته يرافق رومانسية المشي وقت الغروب، أو مشاهدة بزوغ القمر. لكنني كنت أعرف أيضًا أن واقع الحياة مختلف، فأكثر الأمراء وسامةً ورومانسية وشاعرية يجاهد في المطبخ تحت ضوء الفلوريسنت المزعج ليتفحص مع الزوجة محتويات الثلاجة المتعفنة. من الرجل أو المرأة اللذان يستطيعان أن يكونا كاملين أكثر من لحظة خاطفة في الحياة؟ كل البشر يتطورون باستمرار، والذي ترينه اليوم بطلًا رومانسيًّا قد تتكشف عنه غدًا حقائق تريك جوانب أخرى من شخصيته.

لم تكن هذه الخيالية والرومانسية بلاءً منحصرًا في النساء المسلمات، فهي بلاء مشترك بينهن وبين الكثير من النساء والرجال الآخرين. فكرتُ أنه ربما لو نجح الأمر وتزوجنا، فإن كثيرًا من هذه الطاقة والتركيز وأوجاع القلب التي تهدر في أثناء عملية البحث عن الحب سوف تتحرر وتستخدم في أنشطة أخرى مفيدة. تساءلت كم من الوقت والجهد والمال يُصرف في البلد في سبيل البحث عن الحب والرغبات والعلاقات، وتساءلت عما إذا كان لدى الدول إحصاءات حول الثروات المحتملة والأعمال التطوعية والسعادة المهدرة التي تضيع في سبيل البحث عن الحب.

* * *

تلقينا يوم خميس مكالمة بشأن كريم. لم يكن من أصل شرق أفريقي، بل من أصل هندي. وحين سألت الخَطَّابة أمي إن كان هذا الأمر سيسبب مشكلة، أجابت: «بالطبع لا، المهم أن يكون مسلمًا ملتزمًا!». كان يبدو واعدًا، فهو مصور صحفي، أي إنه «ليس محاسبًا»، درس الفنون الجميلة في إحدى الجامعات المرموقة، وكان يكبرني بسنة واحدة، وقد ولد ونشأ في بريطانيا.

تحدثت أمي مع أمه لترتيب اللقاء، وأخبرتني أنها تبدو سيدة ودودة ومحترمة. اتفقوا على زيارتنا يوم السبت في الثالثة بعد الظهر. لم يكن هناك داعٍ للتأخير. إن لم تفلح هذه المرة، سننتقل مباشرة إلى الذي بعده. لا توجد ضرورة للتأجيل، إذ لطالما نبهوني أن الوقت مِن ذهب.

أخبرنا والدة كريم بأنه يجب علينا مغادرة البيت الساعة السادسة مساءً لحضور حفل زفاف عائلي. ووفقًا لحساباتنا فإن ثلاث ساعات كانت كافية كي يتناول الضيوف الشاي ونجري اجتماعنا التمهيدي. كان بيتهم قريبًا من بيتنا؛ لذا إن سارت الأمور على ما يرام يمكننا أن نلتقي ثانية بسهولة. أما إن لم تَسِر فعندها يكون لدينا إستراتيجية مقبولة للانسحاب. أصبحت الساعة الرابعة ولم يأتوا ولم يتصلوا حتى ليقولوا إنهم سيتأخرون. لم نكن نريد أن نتسرع بعد، لكننا سنضطر إلى اختصار الإجراءات، باعتبار أنه لم يبقَ إلا ساعتان. إن المقدمات تحتاج إلى كمية معينة من البروتوكولات؛ لذا لا يمكن اختصارها كثيرًا. سيكون من الوقاحة تسريع الاجتماع من طرفنا. حاولت أمي الاتصال بهم لتعرف ما حدث، لكن أحدًا لم يردَّ على الهاتف، فافترضنا أنهم تركوا البيت، وهم في طريقهم إلينا. لم يكن لدينا رقم هاتفهم المحمول كي نتصل بهم في الطريق. حاولت أمي الاتصال بهم ثانية وأخيرًا وفي الرابعة والنصف سمعت الرد؛ قالت أم كريم: «إننا في انتظار زوجي. أنا متأكدة أنه سيصل إلى البيت قريبًا، عندها سنأتي، لا تقلقوا». هذا ما قالته.

لم نكن قلقين، كنا نستشيط غيظًا وغضبًا، حتى شعرنا بالدخان ينفث من آذاننا. لم يزعجوا أنفسهم حتى بإخبارنا أنهم سيتأخرون. وصلوا أخيرًا في الساعة السادسة. ولكي أنجح في الاستعداد للعرس قمتُ بتغيير تنورتي وقميصي الأنيقين الرقيقين ولبست سروالًا وقميصًا من الحرير اللازوردي الزاهي المطرز بكثافة. كان مناسبًا جدًّا للزفاف لكنه كان غير مناسب البتة للقاء التعارف. وباعتبار أني كنت أمُر بإحدى مراحلي التجريبية، ولكي أخفف من شعور الملل الذي انتابني في أثناء انتظار كريم وأهله، قمتُ بطلاء أظافري بلون أزرق لازوردي يتناسب مع ملابسي. إن كان ظريفًا سيتقبل الأمر على أنه نوع من المزاح. صُعقت عندما وصلوا، لقد كان رائعًا: وجه جميل وعيون عسلية رائعة، لبق وساحر، ذو حضور لطيف دافئ إلى درجة سكن معها كل التوتر الذي ساد جو الغرفة. وعلى الرغم من أنني كنت منزعجة من تأخيرهم غير المقبول إلا أنني كنت سعيدة للغاية.

من بين كل لقاءات التعارف التي خضتها، هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بمثل هذا الشعور. شعرت بنوع من التواصل الشاعري.

تحدثنا فترة قصيرة وأخَّرنا رحلتنا إلى الزفاف معطين اللقاء الأولوية، إذ شعرنا أنه لا يزال علينا واجب استقبالهم بتهذيب، على الرغم من وصولهم متأخرين ثلاث ساعات. كان كريم ذكيًا ولافتًا، كما كان مرتبطًا بدينه مما راقني كثيرًا. كان قلبي يخفق في أثناء حديثي معه، وابتسامته كانت تشعرني بالقشعريرة.

لأول مرة أشعر أني عاجزة عن الكلام، لكنه كان يمتلك المهارة والكياسة الكافيتين لمتابعة الحديث. وعلى الرغم من أننا تحدثنا برهة قصيرة إلا أنني شعرت بنوع من السحر. في السابعة مساءً خرجنا كلنا من البيت. هم عادوا إلى بيتهم ونحن ذهبنا إلى الزفاف. كنت لا أزال غاضبة منهم للتأخير وقلة

اللباقة، لكنني كنت مسحورة في الوقت نفسه. لقد حقق ستة من ستة في امتحان المبادئ الأساسية لخطّاب شيلينا؛ فالمواصفات التي افتقدتها عند الآخرين وجدتها بوفرة لديه: كان مسلمًا متدينًا، منخرطًا في إدارة الأنشطة الشبابية في مسجده المحلي، يبحث عن زوجة محجبة، عمره مناسب، ذكي، يسهل الحديث معه. أما النظر إلى عينيه الجميلتين فهذه مسألة أخرى.

أخيرًا وجدت شخصًا يشاركني رؤيتي وإيماني، شخصًا أشعر معه بالانسجام. ظللت أفكر فيه وأحلم أن يكون هو أيضًا قد شعر «بذلك الشعور». كنت متأكدة، فكل الدلائل كانت تشير إلى ذلك. لقد كان ينظر مباشرة إلى عيني في أثناء الحديث، وابتسامته كانت تحمل الكثير من الدفء. والأهم من ذلك كله أنه أخبرني كم يجدني لطيفة وأنه من الممتع مقابلة شخص مثلي. كنت متأكدة أننا سنلتقي ثانيةً. مرت بضعة أيام من دون أن أسمع شيئًا عنه، ولم يكن من اللائق أن تتصل أمي لتسأل؛ فعائلة الفتاة لا تستطيع أن تأخذ مبادرة من هذا النوع أو أن تقوم بالخطوة التالية. يجب أن تأتي المبادرة من طرف الشاب. كلنا كنا نتذمر من وضعنا تحت رحمة العريس وأهله، وكنا نحس بالدونية بسبب تحكمهم في المسألة كلها، حتى إننا نوّهنا إلى السيدة خديجة زوجة الرسول ﷺ الأولى، وكانت سيدة أعمال ناجحة، كيف أنها أخذت المبادرة في إرسال عرض بالزواج لسيدنا محمد ﷺ.

وعلى الرغم من هذا، وبسبب سيطرة المعايير الثقافية السائدة، شعرنا أنه من المعيب الاتصال بهم. ومع مرور الأيام فقدت الأمل وبدأت ألعق جروحي. حزنت لأنني بعد أن وجدت الشخص المناسب الذي أعجبني أخيرًا، لم أعجبه أنا. ربما يكون السبب هو طلاء الأظافر الأزرق.

بعد ثلاثة أسابيع، بعد ظهر يوم جمعة، وصلتنا مكالمة؛ إنها أم كريم: «نود أن نزوركم غدًا، السبت الساعة الثانية بعد الظهر، كي يستطيع كريم وشيلينا

أن يلتقيا مرة أخرى». صُدمنا جميعًا! نحن لم نسمع كلمة منهم لمدة ثلاثة أسابيع، والآن يريدون أن يأتوا غدًا. نسيت أمي في غمرة ذهولها أن تحافظ على هدوئها، فوافقت على طلبها بسرعة، على الرغم من أننا كنا ننتظر بعض الزوار في اليوم نفسه. اتصلت بالضيوف وغيرت الموعد، فالعريس له الأسبقية، إذ أنت لا تعرف متى ستسنح الفرصة مرة ثانية.

بدأنا بتنظيف البيت في الساعة العاشرة صباحًا، وعند الظهر صنعنا السمبوسك والحلويات. في الساعة الواحدة بدأت أرتدي ملابسي كي أتأكد من الحصول على طلة ظريفة ومحتشمة في الوقت عينه. الساعة الثانية بدأنا الانتظار، وفي الثانية والنصف تابعنا الانتظار، وفي الثالثة انتظرنا أكثر وبدأنا نثور. في الثالثة والنصف استشطنا غضبًا. في الرابعة والنصف وصلوا. رأيته وذبت. تحدثنا وتحدثنا. ابتسم لي وأضاءت عيناه العسليتان. أما أنا فغرقت فيهما. ما الذي أريده أكثر من هذا؟ شعرت بالشرر يتطاير. تبادلنا أرقام هاتفَينا المحمولين وبريدنا الإلكتروني في نهاية اللقاء. وعند المغادرة ضمتني أمه ضمة ساحقة ونظرت مباشرة في عيني، وبطريقة ولهى قالت: «أنت فتاة رائعة يا شيلينا، أنا أحبك كثيرًا». ابتسمتُ بمحبة. الأم تحبني!

بما أننا تبادلنا أرقام الاتصال افترض والداي أن التنسيق الرسمي بينهما وبين والديه قد انتهى، وتركا الأمر لنا كي نناقش التطورات اللاحقة. بالطبع سيتدخلان لتقديم النصح والإرشاد في أثناء إتمام الإجراءات.

أنا لم أفعل هذا من قبل. كانت قوانين اللقاءات تتغير وتتبدل، فمع التقنيات الحديثة وتغير المواقف أصبح بالإمكان استخدام الهواتف المحمولة والبريد الإلكتروني. أتى يوم الثلاثاء من دون أن أسمع خبرًا منه، فقررت أنني أستطيع، وباعتباري امرأة عصرية، التحكم في زمام مستقبلي وأن أتصل بكريم. أرسلت له إيميلًا قصيرًا:

السلام عليكم كريم،

لقد سعدت برؤيتك ثانيةً يوم السبت. أتمنى أن تكون قد أمضيت نهاية أسبوع جيدة. من الصعب العودة إلى العمل يوم الاثنين. أشعر بقليل من الملل؛ لذا فكرت بأن أرسل إليك هذه الرسالة لأخبرك أن إجازتي ستبدأ يوم الاثنين وأنني سأسافر إلى كندا لأزور جدتي التي تعيش هناك. لا أطيق صبرًا، لقد ذهبت إلى تورنتو عدة مرات من قبل، لكننا هذه المرة سنذهب بالسيارة من تورنتو إلى مونتريال ونمضي بضعة أيام هناك. أنا متشوقة إلى الذهاب.

ما جديدك؟

شيلينا

شعرت بأنني أصبت التوازن الصحيح بين عدم الاكتراث وبين ترك الباب مفتوحًا أمامه كي يجيبني من دون الشعور بالضغط. لقد أنهيت رسالتي عن عمد بسؤال حيادي يجعله يجيب من دون إلحاح من طرفي. كما أن الرسالة حددت له فترة زمنية يستطيع الرد خلالها باعتباري سأغادر يوم الاثنين، لكنه لم يجب!

جلست يوم الاثنين التالي في الطائرة المستعدة للإقلاع إلى كندا. رضخت أخيرًا وكتبت رسالة نصية قصيرة تقول:

إلى كندا اليوم. أرجو أن تكون بخير. أتمنى سماع أخبارك حين أعود في نهاية الأسبوع.

شيلينا

استغرقت نصف ساعة في صياغة الرسالة كي أتمكن من الحفاظ على لهجة وسط بين الاهتمام وعدمه. شعرت أني كالمراهقات منفعلة ومنبهرة، واعتقدت أنه الشخص المناسب لي فعلًا.

اشتريت له في مونتريال قميصًا قطنيًا كتذكار. لم أكن قد فعلت هذا من قبل، ولم أكن واثقة كيف ومتى سأعطيه إياه، لكنني شعرت بذلك الرابط. عرفت أنه سيكون له موقع مميز في حياتي.

لم أسمع شيئًا عنه، ولم يتصل على الرغم من أنني عدت منذ أسبوع. أرسلت له إيميلًا آخر من دون جواب. اتصلتْ أم كريم بأمي في الأسبوع التالي، كانت حزينة.

قالت لأمي: «أنا أحب شيلينا كثيرًا؛ إنها لطيفة ومتدينة ومحجبة وجميلة. لكن ابني، لا أعرف كيف أتصرف معه، كلما سألته يقول: «نعم، إنها لطيفة»، لكنه لا يفعل شيئًا. أريد أن أراه متزوجًا وهو بحاجة إلى زوجة متعلمة ومتدينة وقد أريته شيلينا، لكنه يتجاهلني. يقول إنه مشغول بإنشاء عمل جديد مع صديقٍ له، وإنه سيترك العمل الجيد الذي يزاوله الآن، ماذا أفعل؟».

كانت أمي عالقة بين نصح السيدة المسكينة وبين محاولة الاحتفاظ بابنها من أجلي، لكنها كانت أيضًا غاضبة من هذا التأخير والتلكؤ. لقد مررنا بكثير من هذه الأشياء من قبل وكنا نؤمن بشدة أن الوضوح والصراحة هما أفضل طريقة لمعالجة مثل هذه الأمور. كما كانت تعرف - من خلال التجارب القاسية - أنه عندما يطرق بابنا شخص مثل كريم فليس من الحكمة أن ندير له ظهرنا، أو أن نتكبر عليه.

أخبرتها أمي عن الإيميلات والرسائل النصية، ثم واستها بلطف ونصحتها أن تتحلى بالصبر.

بعد عدة أيام تلقيت جوابًا للإيميل الذي أرسلته:

عزيزتي شيلينا، السلام عليكم،

شكرًا على رسائلك، لقد قرأت إيميلك الأول، لكن وقبل أن أرُد عليه

ضربتْ صاعقة بيتنا! مما أدى إلى احتراق الكمبيوتر واضطررت إلى إصلاحه. أعتقد أن الكمبيوتر تعطل وفقدت بريدك الإلكتروني. سأتصل بك لاحقًا هذا الأسبوع.

في رعاية الله

كريم

ولم يتصل ثانيةً.

لم أعد أستطيع أن أفعل هذا. لا أستطيع. لا أستطيع. كيف يمكن أن يكونوا كلهم كريهين بهذا الشكل، والشخص الوحيد الذي أعجبني لم يكلف نفسه عناء التفكير فيَّ؟ ربما أبي على حق، ربما لا يوجد ما يُدعى بالشخص الكامل. هل يجب عليَّ التوقف عن البحث عن فارس الأحلام؟ ألن يتحقق ذلك الانسجام الساحق أبدًا؟ ربما تكون نظرتي المثالية إلى فارس الأحلام هي مجرد نظرة مثالية أو حلم، أي شيء لا يتحقق في الواقع أبدًا.

أو ربما تكمن المشكلة فيَّ أنا. هل كنت أتوقع الكثير؟ طبعًا لم أكن أعتقد أن الوقوع في الحب يعني العيش في سعادة إلى الأبد. على الرغم من تظاهري بالانغماس في أعماق الدين، وعلى الرغم من نظرتي إلى الزواج كجزء مكمل للدين، إلا أنه كان علي أن أعترف بيني وبين نفسي أنني كنت أبحث عن فارس أحلام بوحي من القصص الخيالية. لقد طلبت من الله أن يعطيني مثل هذا الشخص، لكنني فشلت في اتخاذ الموقف الصحيح. إذا نظرت إلى شريكي بالعين الصحيحة وشاهدته كرفيق للحياة والدين، عندها سيكون كاملًا بالفعل.

ربما كان يجب أن أتعلم من كريم أنه لا يوجد رجل كامل. لقد ظهر ذلك واضحًا على الرغم من تحقق كل المعايير التي وضعتها على الورق. وباستثناء الحقيقة الكبرى، وهي أنه أثار فيَّ «ذلك الشعور»، فإنه كان يفتقد إلى شيئين: أولهما معاملتي بشكل جيد، وثانيهما الرغبة في أن يكون معي.

كان من شأن الرفض أن يدفعني إلى تقييم صريح لما أريده فعلًا في الشريك، وإلى اكتشاف الأرضية التي يجب أن أختار شريكي على أساسها. يجب أن يكون خياري مُرَكزًا على الشخص الذي يعاملني جيدًا، ومن ثم أتوكل على الله الذي سيزرع الرحمة والود والحب بيننا كما وعد. كان يجب أن تؤكد تجربة لقائي بكريم أهمية النزاهة والأخلاق لديَّ، لأشعر أنها أهم بكثير من تلك الشرارة الخادعة.

لكنني على الرغم من ذلك كنت لا أزال أضع الأولوية لذلك الشعور قبل كل شيء. كنت لا أزال في انتظار تحقيق أحلامي الرومانسية، وكنت أعتقد أنها ستعطيني إحساسًا بالتكامل والسعادة. لكن ذلك الحب، الحب الذي نصنعه من خلال «ذلك الشعور» لا يتضمن فهمًا لحقيقة الحب الأبدية الكونية. إن شعور الانجذاب السطحي هو أبعد ما يكون عن الحب الإلهي بمعناه الحقيقي. وعلى الرغم من معرفتي بالكلمات التي تعبر عن ذلك، وعلى الرغم من اجتراري لما تعلمته كمسلمة حول الدين والكونية الاستثنائية للحب وارتباطه بالخالق، إلا أنني في الحقيقة لم أكن أعرفه. من السهل القول بأنك تعرف شيئًا، أما أن تعيشه بكل كيانك فهو أمر مختلف تمامًا.

كان عليَّ أن أقع بقوة أكبر قبل أن أتمكن من لمِّ شتات نفسي وأنا أنظر مباشرةً في عين الحب.

الباب الخامس

لا شيء مما سبق

المراحل الست للإشفاق على الذات

بمرور الوقت بدأت نوعية العرسان المتقدمين عن طريق الخالات في التراجع السريع. كان والداي يتبادلان نظرات قلقة في كل مرة يتقدم فيها أحدهم، ومع هذا كنا نرفض المتقدمين. كانا قلقين من إمكانية عدم إيجاد الزوج المناسب لي، وكانا يشجعانني على التفكير مليًّا في الأشخاص الذين قابلتهم حتى الآن، وإن كان من بينهم شخص مناسب. «ثلاثة من ستة»، قال أبي وهو يشير إلى المواصفات المطلوبة في العريس والتي بدأت تتراجع. قلت لهما إننا لو عدنا بالزمن ونظرنا إلى الشبان الذين تقدموا حتى الآن، فهل نرى من هو جدير بإعادة النظر؟ وبحزن عظيم اتفقا معي على أن أحدًا منهم لم يكن مناسبًا. كنا جالسين أمام لوحة رسم فارغة.

كانت الحياة متوقفة إلى أن أتزوج، وكان الأمر نفسه بالنسبة إلى صديقاتي؛ فحياة الفتيات تنقسم إلى مرحلتين: ما قبل الزواج، وما بعده. وإلى أن أجد العريس سيكون كل شيء في وضعية الانتظار. سرعان ما سأدرك أن هذا التقسيم كان زائفًا، وأنني في الحقيقة أستطيع أن أعيش حياتي في سعادة وأبحث عن الشريك في الوقت نفسه.

كنا نتقابل أنا وصديقتاي سارة ونورين لنقارن ملاحظاتنا حول الظروف التي نواجهها، لكي تستمد القوة والمواساة إحدانا من الأخرى.

في كل مرة نلتقي، كانت حواراتنا تتخذ نمطًا مكررًا: المراحل الست للإشفاق على الذات.

١- المسلمات مذهلات

كنت أبدأ كلامي، مطلقةً نمط الحوار المتكرر، بـ«أنا لا أفهم. أنتما الاثنتان جميلتان وذكيتان وظريفتان. أنا ببساطة لا أفهم لماذا لا يتهافت الرجال على الزواج منكما».

قهقهت نورين وقالت: «يمكننا أن نسألك نفس السؤال. كان يمكنك الزواج من سيد وهَوسه بالكريكيت، أو أن تزيدي طولك ثمان سنتيمترات وتقولي نعم لخليل، طبيب الأسنان الذي يريد زوجة بالطول الصحيح».

وَبَّختُها قائلة: «لا تضحكي! إن حالة هذا الرجل ليست مضحكة».

أكدت وهي تتراجع: «أبدًا أبدًا ليست مضحكة».

قالت سارة وهي تتجاهل استسلام نورين المبكر للهستيريا: «أنا أيضًا لا أفهم». إن التعليق على الرجال الكريهين الذين قابلناهم من المفروض أن يأتي في المرحلة الثالثة من الحديث وليس الآن. أعادتنا سارة بحرص إلى المرحلة الأولى: مديح النساء المسلمات الموهوبات وحقيقة تفوقهن الدراسي والعملي والاجتماعي والروحي. «لقد تعبنا كثيرًا حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم، لم يكن الأمر سهلًا أبدًا».

وافقنا أنا ونورين بهزتَي رضا من رأسينا. لقد وصل أهلنا إلى البلاد ضمن موجات الهجرة في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وفي هذه الفترة كانت بريطانيا تمر بمرحلة من التغيرات الاجتماعية والثقافية،

كما بدأ العالم يصبح أكثر تواصلًا وبدأنا جميعًا نعيش في «قرية عالمية». لقد كنا نحن الجيل الأول، في عائلاتنا ومجتمعنا، الذي ولد وترعرع في بريطانيا. مما يعني أنه كان علينا أن نشق طريقنا في مواجهة التحديات التي اعترضت كل الآسيويين وكل المسلمين. هذه هي التحديات نفسها التي يمكن لأي ابن مهاجر من الجيل الثاني أن يختبرها في سبيل إيجاد شعور قوي بالهوية والانتماء، يجمع ما بين ثقافة الأهل والثقافة التي وجد نفسه يحيا ويترعرع فيها.

لقد استفادت الفتيات من كل الفرص التي قدمت إليهن، وتفوقن على الرجال المسلمين في المدارس والجامعات وفي بعض المناصب أيضًا. كما بَدَوْنَ أكثر ثقة في هويتهن، وفي إيجاد طريقة لدمج الدين بالثقافتين الآسيوية والبريطانية، وكنَّ أكثر انفتاحًا تجاه هذه العناصر المختلفة التي شكلت حياتهن. في حلقة الصديقات، كانت كل النساء المسلمات اللواتي نعرفهن جامعيات وماهرات في الأعمال التي امتهنَّها.

وعلى الرغم من هذا فقد كانت هناك منطقة واضحة على نحو خاص، فالنساء المسلمات اللواتي نعرفهن متمسكات جدًّا بمجتمعهن ومساجدهن وإيمانهن، وكَن في كل هذه المجالات أكثر تميزًا من الرجال، وعملن جاهدات على الجمع بين المجالات الثلاثة. ومن خلال خبرتنا لاحظنا أن الرجال المسلمين كانوا يعودون إلى هذه الأشياء الثلاثة ويلتزمون بها بعد الزواج فقط. كانت النساء المسلمات يجاهدن لإيصال فكرة المجتمع الإسلامي إلى العالم، وكنا نتساءل دائمًا عن مدى نجاحنا. فالروحانية والدين مهمان بالنسبة إلينا، وكنا نريد أن نُسمع أصواتنا، وأن نضع أسئلتنا على بساط البحث. كنا واثقات أننا قادرات على إحداث تغيير حقيقي وإيجابي في المجتمع، كما أننا قادرات على تخليص الدين الإسلامي من الشوائب الثقافية التي تدخلت وأثَّرت في ممارسته.

في عالم آخر موازٍ لعالمنا، حيث يلقى العمل والجهد وإحداث التغيير الإيجابي نتائج فورية، وحيث يكون معلومًا أننا جديرات بالحصول على رجال رائعين في حياتنا، لم تكن بنا حاجة إلى عقد تلك الجلسات الدورية المحبطة مع صديقاتنا لنشكو من عجزنا عن إيجاد عريس. الحياة الحقيقية يجب أن تكون هكذا، لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك.

قلت لأواسي الفتيات: «لا أدري إن كان من المعزِّي القول إنه ليست النساء المسلمات المذهلات مثلنا فقط من يجدن صعوبة في إيجاد رجال مذهلين».

وافقتني نورين: «أنتِ على حق، فلديَّ صديقات رائعات كثيرات من غير المسلمات يجدن صعوبة في إيجاد الرجل المناسب».

قالت سارة بشكل قاطع: «لا. هذا لا يعزيني أبدًا».

٢- أين الرجال المحترَمون؟

قالت نورين: «لا بد أنهم في مكان ما».

صاحت سارة: «لكن أين؟ لقد بحثت في كل مكان، هل هم غير مرئيين؟».

لقد بحثنا عنهم سنوات طويلة، لكننا لم نجد عينة جيدة واحدة. أين يختبئون؟

تنهدت نورين قائلة: «تزوج كل الرجال المحترَمين».

فكرت بصوت عال أمام الفتيات: «لكن ربما أصبحوا محترَمين بعد أن وضعتهم الزوجات في القالب الصحيح. ربما مشاركة الحياة مع امرأة هي ما يجعل الرجل محترَمًا».

قالت نورين وهي ترفع يديها في الهواء بسعادة: «إذًا ربما نحن بحاجة إلى أن نجد رجلًا نتلمس فيه بعض الأمل ونتزوجه، ثم وبقدرة قادر وبمجرد العيش معه، يتحول إلى فارس الأحلام المثالي!». قالت سارة مبهورة الأنفاس: «أو ربما هم يختبئون منا جميعًا خوفًا من انقضاضنا عليهم. وقد يكونون مختبئين في مخزن ما، أو في منطقة صحراوية، وحين نجدهم لن يكون علينا إلا أن ننتقي ونختار!».

وضعت يدي على جبهة سارة. تساءلتُ إن كان ضغط البحث عن العريس جعلها تهذي.

لم نكن وحدنا نحن الفتيات العازبات مصابات باليأس من اختفاء الرجال الأكفاء، بل حتى المساجد والزعماء الروحيين لم يكونوا يعرفون أين يجدونهم أيضًا. قالت نورين: «لقد قابلت شابين ظريفين في حفل زفاف الشهر الماضي». حفلات الزفاف هي أفضل الأماكن لمقابلة أشخاص جدد. واستكملتْ: «قالا إنهما نادرًا ما يحضران مثل هذه المناسبات الاجتماعية، لكنهما كانا مجبرين على حضور المناسبات المهمة رضوخًا لمشيئة الأهل. بدا الاثنان مناسبين، أحدهما يؤسس عملًا خاصًا به، أما الآخر فمهندس معماري. وكان الاثنان لطيفين وذكيين وخفيفي الظل».

قالت سارة مفتونة: «عظيم جدًّا! وماذا حدث؟».

«تبادلنا أرقام الهواتف المحمولة لكنهما لم يتصلا!»

سألت بسماجة: «هل اتصلت أنتِ بهما؟ لا فائدة من التراجع الآن».

اعترفت نورين: «نعم، اتصلت، لكنهما لم يجيبا. أنا لا أمانع في المبادرة بالاتصال، لكنني لا أريد أن أبدو يائسة».

علقت سارة قائلة: «لا أعتقد أن هذين الشابين يبحثان عن زوجة بالطريقة التقليدية، أي عن طريق العائلة والأصدقاء. ربما يعتقدان أنها طريقة عفا عليها الزمن. وحين يقابلاننا في مثل هذا الجو يعتقدان أننا نحن أيضًا «تقليديات»، ولا يرياننا على حقيقتنا حتى لو كنا نريد شبانًا من هذا النوع المتفتح».

تساءلت ثانيةً: «أين يختبئ كل هؤلاء الرجال؟».

أجابت سارة: «الأهم هو ما نوع النساء اللاتي يتزوجنهن؟».

٣- ربما لم يعد هناك رجال محترَمون

ندبت نورين حظها قائلة: «إن لم يستطع أحد إيجادهم، فربما هم غير موجودين؛ فالجميع يعرف الجميع، أو يعرف أحدًا يعرف الجميع، لذا لا بد أننا نحن الثلاثة قد قابلنا حوالي نصف الرجال العزاب الموجودين على هذا الكوكب».

وافقت سارة: «نعم، أنت على حق، لا يوجد أحد. سنضطر لأن نعيش حياة العوانس الوحيدات ونرتدي السروال والقميص المصنوعين من النايلون، ونقوم بترتيب الزيجات بين شباب وبنات الأجيال الجديدة. قالت نورين بجدية: «سأنصحهن بأن يتزوجن أول عريس يطرق الباب. أتمنى لو أنني فعلت هذا. على الأقل كنت تخلصت من هذه الحالة البائسة الخالية من الرجال!».

«ربما يكون هؤلاء الرجال قد طلبوا من أمهاتهم البحث لهم عن زوجات، وبما أننا لا ننضوي ضمن قائمة الزوجة التقليدية الجيدة، فقد تم استبعادنا!». كانت سارة منزعجة، وكانت بعض الأفكار الشريرة قد بدأت تخطر ببالها حيال هؤلاء الرجال ومشاكلهم، وبدأت أشعر بأن الأمور ستزداد سوءًا قريبًا.

«علينا العمل بسرعة على إيجاد الشريك. يتبختر هؤلاء الرجال بسهولة متنقلين من فتاة إلى أخرى لانتقاء من يريدون، ويتوقعون منا أن نصطف في الطابور في انتظارهم. الرجل الصالح لا يكون هكذا! فعلى الرغم من أنني أحب الطبخ والعناية بالمنزل كما أحب الأطفال، إلا أن هذا لا يعني أنني أريد شخصًا يتوقع مني البقاء في البيت في عبودية تقليدية!». كانت وجنتا سارة تشتعلان كلمبتين حمراوين.

وضعت نورين ذراعيها حول كتفَي سارة لتريحها وتهدئها، لكن سارة أطلقت شكوى غاضبة أخرى: «لماذا يذهب كل هؤلاء الرجال إلى «البلد» كي يتزوجوا؟ نحن نريد الزواج برجال نشأوا بطريقة مشابهة للطريقة التي نشأنا بها، رجال يشاركوننا الانتماءات والتطلعات نفسها، التي عملنا على استحداثها لإيجاد مكان لنا فيها.

أنا لا أستطيع أن أتزوج رجلًا من «البلد»، لأنني لن أجد لغة مشتركة معه، ولن يفهم البيئة التي أعيش فيها. الرجال لا يهتمون، يريدون فقط أن يجدوا زوجة تقليدية وأن يعيشوا حياة سهلة. لا عجب أنه لا يوجد رجال محترَمون، إنهم كلهم يتزوجون من «البلد»، ونحن نبقى هنا بلا شيء».

هدأتها نورين لكنها كانت تبكي أيضًا: «أعرف، أعرف. المجتمع والعائلة يشجعان الشبان على الزواج من «البلد» من دون التفكير فيما يمكن أن يحدث للفتيات العازبات هنا». تنحنحت وحاولت أن تلطف من حدة الحديث: «لديَّ قصة ستميتكن ضحكًا أود أن أضيفها إلى قائمة لقاءات «التعارف الرهيبة». أجبنا أنا وسارة برعب ساخر: «قصة أخرى، هذا لا يصدق!».

تابعت نورين: «ذهبت إلى مقابلة أحد العرسان المحتملين في مقهى الأسبوع الماضي، عمره خمسة وثلاثون عامًا، يعمل نائبًا للمدير في مؤسسة متعددة الجنسيات. وقد أحضر أمه معه إلى المقابلة».

شهقنا أنا وسارة بصوت واحد: «لا!».

«وطلبت مني الأم أن أحضر معي جواز سفري في المرة القادمة، لكي تتأكد من أني أحمل الجنسية البريطانية...».

كررنا بصوت أعلى: «لا!».

«... أرادت أن تتأكد من أنني لم أكن أتزوج ابنها سعيًا وراء جنسيته أو نقوده». بانتهاء القصة الأخيرة وإضافتها إلى مجموعة المقتطفات من تجاربنا المريعة، اكتملت المرحلة الثالثة وأصبح بإمكاننا الانتقال بالحديث الآن إلى الجزء الأكثر إيلامًا.

٤- ربما نكون النوع الخطأ من النساء

أعلنت نورين وهي تقلب عينيها برعب: «لقد حاصرتني الخالات في حفل الزفاف، كن مرتاحات وهن يرفعن حواجبهن ويهززن أصابعهن بنشاط في وجهي!».

سألت سارة بغضب وهي لا تزال منفعلة من آثار فورتها السابقة: «أوه، نعم، وماذا كانت نصيحتهن الرائعة لك هذه المرة؟». حاولت نورين أن تقلد إيقاع ولهجة أصوات الخالات: «نحن نعرف أن الدنيا تتغير. نعرف يا عزيزتي فنحن لسنا قديمات الطراز كما تتصورين. نعرف أنه من الجيد لكُن أيتها الشابات أن تعملن، لكننا قلنا لكُن مرارًا وتكرارًا أن تجدن رجلًا وتتزوجن أولًا، ثم يمكن أن تفعلن كل ما ترغبن فيه. ابدأن أولًا بالعناية به، ثم فكرن في هذه الترهات العصرية عن الاستقلال لاحقًا. يحب الرجال مصادقة النساء المستقلات، لكن عندما يحين وقت الزواج يبحثون عن شيء آخر، إنهم يبحثون عن المرأة التقليدية اللطيفة التي تعتني بهم. الرجال هم الرجال، لا يتغيرون».

دمدمنا بتذمر. لكن تُرى هل كنا منزعجات لأنهن كن مخطئات أم لأنهن مصيبات؟

لقد اتبعنا الطريقة التقليدية، لأننا شعرنا بتماشيها مع ديننا الإسلامي، لكننا رفضنا تعريف «الزوجة التقليدية» عندما انحصر معنى كلمة «تقليدية» في الزوجة التي تأتي في المرتبة الثانية بعد الزوج. كنا نريد تحقيق علاقة زواج إسلامية تتحدد فيها الواجبات بحدها الأدنى، بينما يكون الحب والرفقة هما الركنان الأساسيان. ربما لم تنجح العملية بالنسبة إلينا تمامًا؛ لأننا، وعلى الرغم من التزامنا بقواعد اللعبة، لم نكن نؤمن بها إيمانًا قاطعًا.

صلب الموضوع هو هذا: مهما كانت فكرتنا عن الزوجة التقليدية، أو عن الوقوع في فخاخ العملية التقليدية حيث نكون من الزوجات التي يبحث عنهن الشبان وأمهاتهم، فقد بدا وكأننا الوحيدات اللواتي نعاني. فالشبان مستمرون في الزواج ونحن الفتيات لا نزال عازبات، نحيا من دون حب، ونندب ونشكو إلى العائلة والأصدقاء.

ظننا بأننا أوجدنا توازنًا قويًا في تمهيد طريق يمر عبر تعقيدات التقاليد والدين، وأننا حافظنا خلاله على علاقتنا بديننا وعائلتنا ومجتمعنا. ترى هل كنا ندفع ثمن خروجنا عن التقاليد بإطلاقنا لهذا التوازن وأصبحنا لا نتناسب مع الشبان «التقليديين» (وأمهاتهم)، ونبدو مملات ومتدينات للرجال «العصريين»؟

قالت نورين: «الخالات يقلن إننا لسنا تقليديات كفاية...».

أضافت سارة: «... والرجال ذوو المواصفات التي نبحث عنها يقولون بأننا تقليديات أكثر من اللازم».

هل (أ) كنا مخطئات في أفكارنا، أم (ب) إننا النوع الخطأ من النساء؟

٥- رباه! لن نتزوج أبدًا

بكت سارة ثانيةً: «لا يوجد رجال محترَمون».

ثم ولولت ثانية: «إننا النوع الخطأ من النساء».

هناك خاتمة واحدة للحكاية، وها هي نورين مستعدة لإعلانها:

«لن نتزوج أبدًا.»

هل كنا - كعازبات متعلمات مسلمات في القرن الحادي والعشرين - قنابل موقوتة مستعدة للانفجار في المجتمع الذي كنا نعيش فيه؟ إذا فشل جيل كامل في الزواج بسبب عدم وجود الشريك المناسب، فما تداعيات الأمر يا ترى، ليس فقط بالنسبة إلينا، بل بالنسبة إلى المجتمع ككل؟

أضافت سارة بنبرة مسرحية: «سنموت عجائز مجعدات وعازبات تجري القطط في منازلنا. لن نجد أحدًا ولن نتزوج أبدًا، أبدًا».

٦- الرجل المثالي في مكان ما، ينتظرنا

اندفعنا ببؤسنا المشترك حتى وصلنا إلى أعماق اليأس. من الجيد أن نقتسم الألم، لكننا وفي أعماق قلوبنا كنا نعلم أن هناك شخصًا ما، في مكان ما، ينتظرنا. ربما لم يكن مستعدًّا لنا بعد، ربما لا زال يحتاج إلى أن تصقله الحياة، أو ربما نحن من نحتاج إلى أن تصقلنا الحياة قبل أن نصبح جاهزات له.

من المشجع أن نعلم أننا لسنا وحدنا في هذه المعمعة. لقد حول حوار جيد مع الصديقات الحزن إلى عزاء وأعاد إلينا الأمل.

أنت لا أنا

منذ خطابي الأول كطفلة، طُلب مني بشكل دوري أن أقدم محاضرات قصيرة حول الإسلام في المسجد وفي مناسبات اجتماعية أخرى. وبمناسبة زفاف إحدى الصديقات المقربات، طلب مني أن ألقي كلمة في حفلة الحنة التي تقام قبل الزفاف بأيام قليلة.

حفلة الحنة نسائية صرفة، تشبه حفلة تقليدية لوداع العزوبية. تقيم العروس احتفالًا مع صديقاتها وقريباتها، لتحضيرها للحياة الزوجية القادمة. إنها مناسبة تحتفل فيها النساء بأنوثتهن، ويتشاركن فيها الحكمة التي تعلمنها من علاقاتهن بالرجال. تجتمع الأمهات والبنات والخالات والعمات برابط السعادة والدموع والصراعات التي يواجهنها جميعًا كنساء. تتذكر المتزوجات حفلات زفافهن ويتحدثن عن تجربتهن. أما غير المتزوجات فيُمطرهن الجميع بوابل من الأدعية والتمنيات بأن يكنَّ هن أيضًا محور الاهتمام في يوم من الأيام. إنه احتفال أنثوي مجيد. في نهاية الحفل تزين الفنانة المختصة في رسم الحنة يدَي العروس وقدمَيها، لتبدو جميلة في يوم عرسها وأمام عريسها.

في هذه الحفلة النسائية البحتة، اخترت أكثر أثوابي لمعانًا وصففت شعري خصيصًا، ووضعت ماكياجًا متقنًا، ولم أرتدِ حجابًا أو وشاحًا أو

عباءة. اخترت تنورة قرمزية جميلة تنساب برشاقة وأناقة وقد طرزت كلها بالكريستالات الصغيرة اللامعة، وفوقها صدار عليه التطريز نفسه وشال حريري كان ينثني بأناقة فوق ذراعي، كما اخترت قرطًا طويلًا وعقدًا ناعمًا لاستكمال الطلة. شعرت بأني أميرة، كنت أحب التأنق، الذي يُظهر جمالي أمام نفسي وأمام المقربين مني. نعم، كنت أحب أن أبدو جميلة، كل النساء يرغبن في ذلك، فهو جزء من الأنوثة. لكنني في الخارج كنت ألبس الحجاب وملابس أكثر احتشامًا، لأنني لا أريد أن يتم تقييمي حسب مظهري.

فكرت فيما سأقول في الحفل، ووجدت أن الموضوع الأنسب هو حب الخالق ورحمته، فهو مناسب تمامًا لحفل زفاف، إذ إن فكرة الزواج تدور بأكملها حول الحب والرحمة.

«تبدأ فاتحة الكتاب بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم» هكذا بدأت: «عندما تلتقين بشخص وتنجذبين إليه...» توقفت وابتسمت للعروس ابتسامة متآمرة، فضحكت. تابعت: «أو عندما تتعرفين على شخص وتأملين أن ينتهي هذا التعارف بالزواج...» التفتُّ هذه المرة لأواجه الأمهات والخالات والخَطَّابات، وقد ارتفعت حواجبهن. استطعت أن أراهُنَّ جميعًا وهن يتساءلن عما إذا كنت سأمدحهن أو أسخر منهن، أو أقول شيئًا صادمًا... «فأنت دائمًا تبدئين لقاء التعارف بفكرة جميلة، كأن تفكري مثلًا في أفضل المواصفات التي يتحلى بها الشاب وتستهلين اللقاء بها».

ابتسمت بفرح: «إن أكثر ما يريد الله منا معرفته هو أنه رحمن رحيم. إنهما الاسمان الأكثر تداولًا بين أسماء الله، واللذان يرددهما الأكثر في كتابه. لله أسماء كثيرة، منها «أسماء الله الحسنى»، وإن التفكير بها وبمعانيها يساعدنا على فهم عَظَمة الله عز وجل. الناس يحملون أيضًا بعض هذه الصفات، وما علينا إلا

أن نكشف عنها النقاب، ونطورها في أنفسنا، كي نصبح أشخاصًا أفضل وأقرب من الخالق».

حان وقت العودة من عالم السمو إلى التفكير في حفل الزفاف الرومانسي الرائع أمامنا. «إن الزواج هو الوقت المثالي لتعلم المودة والمحبة، فهذه الصفات هي أساس العلاقة الزوجية، وهي تعكس الحب الذي يجب أن يسود بين الزوج والزوجة».

في أثناء الحفلة اقتربت مني إحدى المدعوات وقالت: «حين وقفتِ هناك كنت جميلة جدًّا وعصرية لدرجة أننا فكرنا: ماذا ستخبرنا هذه الفتاة العصرية المتأنقة الواقفة من دون حجاب عن الدين؟».

عضضت لساني كي لا أرد على الفكرة الكامنة في أذهان الناس حول تعارض الدين مع الموضة. لم تكن هي المرة الأولى التي يفترض فيها الناس هذا الافتراض، فالناس الذين لا يعرفون المسلمين وتعاليم الإسلام يعتقدون الأمر نفسه، ولكن بطريقة عكسية؛ إذ يعتقدون أن ارتداء الحجاب يعني استبعاد الحماس واستحالة أن يكون المرء عصريًّا. تركتها تكمل: «لكنكِ لم تكوني جميلة فقط، بل تكلمتِ بشكل جميل أيضًا. لقد لامستِ قلوبنا وأثَّرتِ فينا جدًّا جدًّا!».

هكذا إذن، لقد افترضت افتراضًا خاطئًا.

لقد فازت شيلينا على الأفكار النمطية بنتيجة واحد - صفر.

* * *

إن قصة عرض خديجة الزواج على محمد ﷺ والزواج الذي تبعه كانت دائمًا ما تروى في النقاشات بين المسلمين حول حقوق المرأة في الإسلام. إن المرأة

ومكانتها وطرق معاملتها كانت دائمًا موضوعًا ساخنًا للحوار، ولطالما أثارته وسائل الإعلام والمجتمع من حولنا، وكذلك النساء المسلمات أنفسهن. كيف لنا أن نرى العنف الجسدي ضد المرأة المسلمة ومعاناتها وتعذيبها حول العالم من دون أن نسأل لماذا يحدث هذا؟ لم نكن نعتقد بأنه جزء من ديننا، لكن كيف نستطيع إيقافه؟ كانت نشرات الأخبار تعرض صورًا لنساء بعباءات وأحجبة سوداء، وتسأل: «هل هن مضطهدات؟»، ولفهم تراثنا والمبادئ التي تؤسس قصتنا كمؤمنين، كنا ننظر إلى أشخاص مثل محمد ﷺ وخديجة اللذين وضعا أسس الإسلام. «يجب أن تعرف من أين أتيت كي تعرف إلى أين أنت ذاهب».

كانت خديجة امرأة وجدت رجلًا وآمنت بأنه سيكون شريك حياتها المثالي، ويبدو أن ترتيب الزيجات كان قائمًا حينذاك كما هو قائم الآن، وقد نجح في تخطي اختبارات الزمن. لكن بدلًا من انتظار الرجل كي يتقدم، قامت خديجة بالخطوة الأولى في التقرب من الزوج المرتقب، وأرسلت عرضها إليه عن طريق وسيط. ينظر الكثير من المسلمين والمسلمات إلى هذا التصرف على أنه ينم عن حرية وقوة. وكنت أتفق معهم، لكنني أتساءل: إذا كنا نعتبر من الرائع أن تتصرف امرأة مسلمة بهذا الشكل، فلماذا يعتبر من المعيب جدًّا على عائلة الفتاة أن تتقرب من عائلة الشاب بهدف الزواج؟

هناك إضافة بسيطة لهذه القصة، وهي أن السيدة خديجة كانت تكبر محمدًا ﷺ بكثير، ربما بخمسة عشر عامًا. وهذا موضوع آخر كان يطرح في النقاشات حول المسلمات لإثبات أن جوهر الزواج هو إيجاد المواصفات المطلوبة في الشريك وليس مجرد تحقيق زواج مناسب على الورق. وجدت نفسي أتساءل: إذا كانت العلاقة في جوهر ولادة الإسلام قد ضمَّت سيدة أكبر من محمد ﷺ سنًّا، لماذا هذه القاعدة الصارمة، وإن لم تكن معلنة، بشأن ضرورة أن تكون الفتاة أصغر من الشاب؟

كان هذا الموضوع كافيًا ليجعلني أفكر في التناقضات بين ما يروجه الناس عن الإسلام وبين حقيقته الفعلية.

يحب المسلمون أن يسهبوا في الكلام عن إعطاء الإسلام للمرأة حقوقها قبل منحها للنساء في أماكن أخرى من العالم، بما في ذلك أوروبا، بفترة طويلة. لقد أوضح محمد ﷺ أن المرأة مساوية في قيمتها للرجل، وأن أقرب الناس إلى الله هم من عملوا الصالحات، وفي هذا الأمر قال إنه لا فرق بين رجل وامرأة. لقد وضع قوانين تعطي الحق للمرأة بأن تكون لها أملاكها الخاصة، وأن لا تجبر على إعطائها لزوجها. لم تكن النساء سلعًا تخص الرجال، ولم تكن أملاكهن كذلك أيضًا. وقد منحت القوانين الأوروبية المرأة هذه الحقوق بعد مئات السنين، وفي بعض الحالات ألف سنة.

وعلى الرغم من ريادة الإسلام في هذه النقطة وإصراره عليها، إلا أن رؤيته هذه دفنت تحت طبقات كثيفة من الاجتهادات الثقافية على مر الزمن. فكرت: «يجب على المسلمين أن يكونوا صادقين مع أنفسهم فقط».

سيكون الاعتراف بأن الفكرة الأساسية للمساواة قد شوهت، وأن علينا إعادة إحيائها، أبسط من الدفاع عن تلك الأفكار التي تسللت إلى الإسلام من الثقافة عبر الزمن. والأسوأ من هذا أن بعض المسلمين يحاولون إسكات المرأة ومنعها عن طرح مثل هذه الأسئلة من خلال اتهامها بـ«النسوية الغربية» و«التحرر»، وكأن هذه الكلمات نوع من السباب.

فكرت: «لكن إذا كنا نرى هذه التناقضات، فمن واجبنا ككائنات عاقلة أن نتحداها».

إن الرابط الحميم بين خديجة ومحمد ﷺ كان كامنًا في قلب المجتمع المسلم الجديد الذي بدأ يجذب الناس إلى أفكار محمد ﷺ الجديدة. فإلى جانب رسالته

الرئيسة، التي تتلخص بأن لا إله إلا الله، واحد أحد، فقد طرح شيئًا بسيطًا جدًّا، إلى حد أنه بدا ثوريًا حينها، ألا وهو أن الناس سواسية بصرف النظر عن أعمارهم وأجناسهم وعقائدهم وأعراقهم أو ألوانهم. كان هذا إعلانًا عظيمًا في مجتمع سادته الطبقية والعنصرية واضطهاد المرأة. أحد أصدقاء محمد ﷺ المقربين كان بلالًا رضي الله عنه، وهو عبد حبشي أسود، اضطهد وعُذِّب لإيمانه بمحمد ﷺ. والثاني هو سلمان الفارسي رضي الله عنه وكان أصله من بلاد فارس. كلاهما تعرضا للسخرية والاحتقار بسبب أصولهما غير العربية. لم يتقبل محمد ﷺ هذه العنصرية، فجعل بلالًا مؤذنه، وأعطى سلمانًا لقب الطاهر بسبب طهارة روحه وإيمانه.

كنت أعتقد أنه من السهل على المسلمين العودة إلى هذا الموقف ضد العنصرية، وأن يعتزوا بهذه المساواة التي تكمن في جوهر الإسلام، لكن التجارب التي مررت بها خلال عملية الزواج كانت تجبرني على طرح الكثير من الأسئلة الصعبة حول ما إذا كانت القواعد التي نلتزم بها اجتماعيًّا هي مطابِقة فعلًا لمبادئنا الأساسية. إن كانت مطابقة، فلماذا يعتبر من المشين الزواج من شخص ينتمي إلى مجموعة عرقية أخرى؟ إن كنتِ تنتمين إلى المجتمع الآسيوي، فإن الزواج من «سلمان» هو أمر غير مرحَّب به على الرغم من شخصيته الرائعة. والأدهى أنكِ لا يمكن حتى أن تطرحي مثل هذه الفكرة من دون أن تثيري عاصفة تسونامي من الرعب - فما بالك بالزواج من «بلال»؟

لقد أجبرتني هذه التناقضات في النهاية على أن أفهم أن الدين والثقافة هما شيئان منفصلان تمامًا، وأنه عليَّ أن أتعلم كيف أتعامل معهما كشيئين منفصلين. الثقافة هي تجربة إنسانية رائعة وجميلة ومحكمة، يجب أن تحترم وتقدر. كنت مصرة على التمسك بكل المعايير الثقافية التي كانت جزءًا مني.

كنت أحب التقاليد الثقافية والأعراف والمناسبات، وكنت أجد فيها نوعًا من الجمال والتاريخ إضافةً إلى بساطتها وأناقتها، وكثيرًا ما كانت تعطي إجاباتٍ بسيطة لأسئلة معقدة. لكن في بعض الأحيان كانت المعايير الثقافية تخطئ ولا عيب في الاعتراف بذلك، فالثقافة بحاجة إلى التعديل من حين إلى آخر، ولهذا السبب أرسل كل هذا العدد من الأنبياء إلى الناس؛ لكي يحرصوا على تصحيح الأخطاء الثقافية الجسيمة.

إن إيماني كمسلمة هو الذي كوَّن رؤيتي كإنسان. فحين يتصادم الاثنان، وحين توجد تناقضات، يكون الدين هو الغالب. لا أستطيع أن أتجاهل التناقضات التي تظهر باستمرار. والمفارقة اللذيذة هي أن عملية الزواج كانت واحدة من أهم العناصر التقليدية في الثقافة الآسيوية. وكان السير في عملية الزواج هو الذي كشف لي ازدواجية المعايير بين ما يقال عن الإسلام وما يجري بالفعل. عندما فهمت ذلك أصبح من واجبي أن أتخذ خطوات لأحرر نفسي من الرواسب الثقافية التي كانت تقف عائقًا في وجه استمتاعي بالحياة كما تقف في وجه تساؤلاتي عن ديني واستكشافي له وممارساتي إياه على أكمل وجه.

كانت للقرار نتائج حقيقية: كان عليَّ أن أتحدى أدوات الإذعان الاجتماعي التي وضعتها التقاليد كي تلزم الأفراد - خصوصًا النساء - بالرضوخ: السمعة والثرثرة والاضطهاد الاجتماعي، وطبعًا فرص الزواج.

من السهل إيذاء أي شخص اجتماعيًّا. ومن الممكن استخدام الأدوات الأربعة المذكورة بسرعة وببضع كلمات فقط لتدمير شخص ما، خصوصًا إن كان هذا الشخص فتاة شابة. تصوروا الموضوع من خلال هذا الحوار الصغير البريء بين خالتين تمضغان أوراق نبات التنبول، وتتحدثان عن آخر الأخبار. «هل تعرفين ماذا فعلت تلك الفتاة؟ (ضع خبرًا ساخنًا هنا) ليس لديها خجل

ولا حياء، ولا احترام للتقاليد. أخبري بناتك وامنعيهن من التحدث إليها، وإلا فستؤثر على سلوكهن، وتضر بسمعتهن. كان لديَّ ولد لطيف مناسب لها، لكن كيف يمكنني أن أقترح فتاة مثلها لأمه؟ كلا، كلا إنها محذوفة من القائمة».

لقد حان وقت التغيير. لا بأس إن كان التغيير بطيئًا، لكن كما قال غاندي: كن (أنت) التغيير الذي تريد أن تراه في العالم. ابتسمت للتطور الذي حققته، وكيف كنت لأنظر في الماضي إلى قراري هذا على أنه شجاع. اليوم أراه مباشرًا ومفهومًا، لأنني احتضنت ديني كأهم جزء في حياتي. ومن خلال استخدام رؤية الإسلام في جعل حياتي وحياة من حولي أفضل، اتخذت هذا القرار: من أجل أن أكون أنا التغيير، سأختار سلاح الذكاء والمرح.

* * *

أول شيء قررت أن أقوم به كان شيئًا لا تفعله الفتيات اللطيفات. قررت أن أتسلق جبلًا، جبلًا عاليًا، وبالتحديد جبل «كيليمانجارو»، أعلى نقطة في أفريقيا، والواقع داخل الحدود التنزانية. لقد كان من المثير جدًّا الشروع في مغامرة كهذه في دولة لي صلات عائلية فيها.

قالت إحدى الخالات: «الفتيات اللطيفات لا يتسلقن الجبال».

سألتها: «لِمَ لا؟».

«لأن هذا شيء لا ينبغي للفتيات فعله.»

«لم لا؟»

«لأنه ليس لطيفًا والناس سيتكلمون». ثم تغيَّر نمط الحوار.

«ما حاجتك إلى تسلق الجبل؟»

«لا حاجة لي، لكنني أعتقد أنه سيكون أمرًا ممتعًا وفيه تحدٍّ». تركت الجدل يدور حول أطراف المعايير التقليدية والتطور الشخصي.

«هناك أشياء أخرى ممتعة يمكنك أن تفعليها.»

«لكن الله يقول إننا يجب أن نسافر ونرى الدنيا. وفي الحقيقة فقد جاءت في القرآن أشياء كثيرة تحبذ السفر ورؤية العالم الذي خلقه الله من أجلنا». إن كشف التناقضات بين التقاليد وبين تعاليم الإسلام يعني إخراس الجدل.

«لا تظني أنك شاب وأنك تستطيعين فعل ما تريدين. أنت فتاة، وعليك أن تعرفي موضعك!»

لم يفاجئني هذا التحول في الحوار، فهو ببساطة قد أثار نوعًا من السلوكيات المتأصلة حول ما يحق للأولاد والبنات فعله.

«هل تعتقدين أنه يحق للأولاد تسلق الجبال، لكن البنات لا يحق لهن ذلك؟»

رفعت حاجبي وابتسمت بشقاوة. كنت متأكدة من أنني كنت بغيضة جدًّا في تلك اللحظة.

وفي ذهني كنت أريد أن أسألها: «ألا تريدين الاتصال بصديق أو سؤال الجمهور؟»، وبدلًا من ذلك توقفت وهدأت الموقف، واعتمدت نبرة أكثر جدية.

«أنا أحب قصص الرسول ﷺ وأحب بالتحديد قصة زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها، ماذا عنك أنت؟ لا بد أنها كانت سعيدة جدًّا بزواجها من شخص على هذه الدرجة من الروحانية. وقد كانت مخلصة جدًّا في حبه ورعايته. وقد كان ﷺ يتردد كثيرًا على مكان خاص منعزل ليبتعد عن كل شيء ويتأمل. كان هذا المكان يدعى غار حراء، وهو المكان الذي أنزلت فيه

أولى آيات القرآن، والذي طلب فيه الملاك جبريل من محمد ﷺ أن يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا هو رسوله.»

كانت هذه قصة مؤثرة أعلنت بداية الإسلام، وهي قصة يعرف كل مسلم تفاصيلها.

«أول شخص شارك الرسول ﷺ هذه الأخبار كان زوجته خديجة، التي كانت أول من دخل الإسلام، وكانت من أقوى الدعائم التي ساهمت في ولادة الدين الإسلامي!»

كان هناك سعال غاضب: «هذه قصة جميلة طبعًا، لكن هذا لا يغير حقيقة أن الفتيات يجب ألا يتسلقن الجبال. عليك المحافظة على سمعتك، وإلا فلن يتقدم أحد للزواج منك».

«لكن هذا يغير كل شيء يا خالتي. إن القصة تغير كل شيء. فإن تمعنَّا فيها نجد أن غار حراء كان موجودًا في قمة جبل شديد الانحدار، وكان من الصعب تسلقه، لكن خديجة كانت تتسلق هذا الجبل يوميًّا لزيارة النبي ﷺ خلال فترة إقامته وتأمله هناك. إن زوجة النبي ﷺ تسلقت جبلًا، وأنا سأفعل مثلها.»

كان هناك طريق واحد فقط أختاره ويسمح لي بالنظر إلى الوراء لأرى نفسي من دون الشعور بالندم. ذاك الطريق كان اختيار القواعد التي أقتنع بأنها الحقيقة وأن ألتزم بها. لقد حددت اختياري: إنه الإسلام. وبعد ذلك لم يعد يهمني ما يقوله الناس، فهناك هدف واحد جدير بالسعي إليه، وهو الصدق مع النفس.

* * *

وقفت على قمة جبل «كيليمانجارو» في ظهيرة أحد أيام أكتوبر. كانت الأيام الثلاثة الأولى عبارة عن تسلق تدريجي انطلق من الغابات الاستوائية

نحو الأعالي الرطبة، ثم كان هناك يوم استراحة للتأقلم مع الارتفاعات. اليوم الرابع وقبل الأخير كان عبارة عن رحلة بطيئة طويلة من دون نهاية عبر ما يشبه مناظر لسطح القمر باتجاه قاعدة فوهة البركان. نصبنا خيامنا على سفح القمة العظيمة، منفعلين بسبب قلة الأكسيجين على هذا الارتفاع وجائعين، لكننا لم نرد أن نأكل حتى لا نصاب بالغثيان.

عند منتصف الليل، بدأنا مرحلة الصعود النهائية إلى الجدار المنحدر للفوهة وصولًا إلى حافة البركان. كان الظلام حالكًا، وأقدامنا تتعثر بالصخور المغروسة كالأسافين على سطح الجبل شبه العمودي. عند بزوغ الفجر وصلنا إلى الحافة ونحن في غاية الإنهاك. على القمة، قابلت رجلين إنجليزيين معهما إبريق حراري. قالا لي: «أترغبين في كوب من الشاي؟».

بعد التسلق طوال الليل، وعلى ارتفاع ٥٨٠٠ متر، أصبحت كل خطوة عذابًا لا يوصف. رفضت ساقاي في البداية المشاركة، وكان عليَّ أن أركز كل اهتمامي على تحريك قدميَّ الواحدة تلو الأخرى. نزعت قفازي لأخرج لوحًا من الشوكولاتة من حقيبة ظهري فوجدت أن الصقيع ودرجة الحرارة التي كانت حوالي ٢٥ تحت الصفر قد جعلا يدي زرقاء داكنة. كان البرد والإنهاك قد بدآ يؤثران على قراري في الوصول إلى القمة. لقد وصلت إلى الحافة. ما الفرق إن وصلت إلى القمة أم لا؟

أنا لا أعرف من أين أتاني كل هذا التصميم، لكنني جررت قدمي وجسمي وكياني كله مترًا بعد آخر إلى قمة «أوهورو». لقد نجحت في الوصول إلى قمة أفريقيا. كنت محشوة مثل دبٍّ فروًا تحت ست طبقات من القماش الحراري وغطاءين وقبعة بيسبول فوق الحجاب. وبيد زرقاء داكنة من البرد أعطيت كاميرتي لأحد المرافقين ليأخذ لي صورة وأنا أقف منهكة وسعيدة وفخورة

على ارتفاع ٥٨٩٥ مترًا. لقد نجحت في الوصول إلى أعلى نقطة. كانت لحظة رائعة لا تنسى. لقد نجحت.

صلينا على قمة الجبل بفرح غامر وشكرنا الله على وصولنا بالسلامة إلى هذا المكان المذهل، وأيضًا على بركة اختبار شيء لا يحظى باختباره إلا قلة من الناس. نظرنا إلى القمم الثلجية الهادئة وإلى الكتلة الجليدية العظيمة التي كانت تشع بهالة ليست من هذا العالم تحت الشمس المشرقة.

لم تكن مهمة سهلة تلك التي أنجزتها، وشعرت بالفخر. لقد كانت الرحلة تمرينًا للروح والجسم. وأنا تسلقت القمة فعليًا ومجازيًّا ووصلت إلى هدف لم يعتقد «الناس» أنني يجب أن أضعه نصب عيوني. خلال الأيام الأربعة من التسلق المنهك كنت في دهشة من عظمة خلق الله، وتعلمت أنني أستطيع أن أحقق أشياء أكثر بكثير مما كنت أعتقد. لقد استطعت أن أدفع جسدي بطاقة أكبر بكثير من التي استعملتها طيلة حياتي. كما استطعت أن أدفع كياني الداخلي أكثر، وبتركيز أكبر مما كنت أتخيل.

وشجعني إيماني على مشاهدة جمال الخلق، الشيء الذي ما كان ليحدث بطريقة أخرى. لقد كشفت الخبرة ما هو واضح: الفتيات «اللطيفات» يستطعن تحقيق كل ما يردن.

* * *

بعد تسلق الجبل قررت أن أشتري سيارة سباق مكشوفة، موديل شبيه بسيارة جيمس بوند مع «فا فا فوووووم». كان من المسموح للأولاد أن يشتروا سيارات غريبة، وفي الحقيقة كان من المفروض على الأولاد شراء سيارات غير عادية، بينما الفتيات لا؛ إذ قد يتشوش البعض، ويعتقدون أن الفتاة هي التي دخلت السباق وليست السيارة.

نُصحت ألا آخذ السيارة إلى المسجد، لأن الناس قد يأخذون انطباعًا خاطئًا عني. فعلى الرغم من أنهم يعرفونني طيلة حياتي إلا أن مسألة صغيرة مثل امتلاك سيارة كهذه يمكن أن تدمر سمعتي «اللطيفة» السابقة كليًّا.

على الفتيات، وتحديدًا المحجبات، أن يتجنبن شراء مثل هذه السيارات؛ فهي لا تناسب تدينهن ولا تتناسب مع سمعة الرصانة التي يجب المحافظة عليها. كان يجب أن أدرك أن الناس سيتكلمون. قلت غير مكترثة: «دعهم يتكلمون»، إذا كان أهم ما سيتحدث عنه هؤلاء الناس هو سيارتي، إذًا أنا أشفق عليهم. إذا كانت السيارة ستؤجج جذوة الحماسة في ثرثرتهم وتجعل حياتهم أكثر متعة، إذن فلتكن سيارتي في خدمة الشعب.

أخرجت نظارتي الشمسية من الجيب المخصص للقفازات في السيارة، وكشفت سقف السيارة و«فا فا فووووم!» إلى الغروب.

الحجاب يحتل الساحة

كان يوم ثلاثاء عاديًّا في العمل. كان صف طاولاتنا في المكتب يطل على نوافذ زجاجية كبيرة في الطابق الخامس. كان البناء يقع على نهر التايمز، وكان بإمكاننا رؤية البرلمان من جهة، وبضعة الجسور القريبة الضبابية التي تؤدي إلى وسط المدينة المالي المزدحم من الجهة الأخرى. وخلفنا تقع شوارع مدينة لندن المزدحمة.

كان الطقس خريفيًّا عاديًّا جافًّا، وأوراق الخريف الهشة تتناثر على الطرقات. كان الناس على أنواعهم يسيرون في الطرقات رافعين ياقات ستراتهم وهم يضربون الأرصفة بأحذيتهم الأنيقة في طريقهم إلى البيوت بعد الانتهاء من العمل في إحدى أمسيات سبتمبر. أما السيدات العاملات في مجال الإعلام فكن يرتدين معاطف سوداء أكثر سماكة وطولًا من الباقين.

يقع مكتبي بجانب مكتب «إيما»، وهي امرأة إنجليزية من أصل ألماني من النمط العصبي المتوتر مع سذاجة غريبة. أما خلفي فتجلس «إيلين» و«نيكولا»، وهما امرأتان في مثل عمري تقريبًا، وكانتا سعيدتين بالانتقال إلى لندن للعمل بعد التخرج من الجامعة. ويجلس أمامي «جاك»، شاب وسيم مهذب، محب للسفر. كان شابًّا أمريكيًّا طويلًا دمثًا، يسحرك من دون جهد، ومن دون أن

يعرف أن له هذا التأثير. كان يضع بعض التعابير المضحكة على وجهه عند سماع أخبار الترهات الإدارية ويشارك في المزاح بنية حسنة وقلب طيب. «جاك» متفائل كالأمريكيين، يتمتع بذكاء أهالي نيويورك، جعلته سخريته اللاذعة ينسجم تمامًا مع مجتمع لندن. جلسنا ننقر أزرار ألواح المفاتيح، وكان الوقت بعد الغداء وقبل الذهاب إلى البيت. تطايرت الإيميلات ذاهبة غادية، وكنا نتصفح الإنترنت ونأخذ القرارات الإلكترونية. أما على الجانب الآخر من الغرفة فكان هناك همس. ارتفعت الرؤوس وسمعت صوتًا يصرخ: «لقد اصطدمت طائرة بمركز التجارة العالمي».

رفعت رأسي فوجدت الغرفة مشحونة بالتوتر، عيون جاحظة وحواجب مرتفعة. عمَّ جو من القلق، لكن لم يكن هناك بعدُ إحساس بالصدمة أو الخوف.

سمعت الكلمات ثانية: «اصطدمت طائرة». تخيلتها طائرة شراعية صغيرة، وتساءلت كيف تمكنت من اختراق أجواء مانهاتن المراقب، وكيف فقدت السيطرة. لم أتخيل أن يكون الأمر أكثر من مجرد حادث مؤسف.

تابعت الطباعة، وفجأة سمعت صرخة مرعوبة تقول: «يا إلهي! علينا أن نشاهد هذا على شاشة التلفاز الكبير في المطعم».

اندفعت الكراسي وقرقعت الأحذية وتحركت الأجسام بسرعة، في سباق إلى الفسحة التي كنا نجلس فيها لتناول الغداء كل يوم. وبينما كنا نركض تسمرت عيوننا على شاشة التلفزيون الكبيرة فوقنا، والتي كانت تبث الأخبار مباشرة. ثُبتت الكاميرا على صورة البناءين الأكثر شهرة في العالم. شمخ البرجان في سماء الخريف الزرقاء. ذُهلنا. إنه مركز التجارة العالمي محاط بكميات من الدخان الأسود المتصاعد.

تجمَّدنا رعبًا، فالأمر لا يصدق، ولم نستوعب ما يحدث. ثم تقدمت طائرة ثانية واصطدمت بالبرج الثاني أمام عيوننا. ذُهلت بينما كانوا يعيدون لقطة الاصطدام الثاني. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. إن هذا مشهد حربي من أحد أفلام هوليوود الشهيرة. عقدت الدهشة ألسنتنا. لقد كانت الأحداث غير قابلة للتفسير أو الفهم. لم يحدث شيء من هذا القبيل أبدًا. إنه أول هجوم من نوعه على أمريكا نراه في حياتنا. لم نعد نحتمل مشاهدة مناظر الاصطدام، فعدنا إلى مكاتبنا، ولم نستطع أن نفهم ما يحدث.

بدأنا، أنا و«جاك»، في البحث على الإنترنت بجنون علَّنا نجد شيئًا، أي شيء. كان بث شبكة «بي بي سي» ضعيفًا وكذلك «سي إن إن» و«سي بي إس» و«فوكس». فكلها كانت تبث من البرجين، والمحطات التي لم تكن تبث من هناك كان عليها ضغط شديد من المتصفحين، لدرجة أن شبكاتها توقفت عن البث في النهاية. لقد كنا من بين الملايين الذين يبحثون عن المعلومات، ولم نحصل على أي منها. كان لـ«جاك» أصدقاء يعملون في المبنى وخطيب صديقتي كان يعمل هناك أيضًا. عصفت بنا موجات من الذعر والهلع في كل مرة نذكر صديقًا أو زميلًا يعمل في البرجين.

تُرى من فعل ذلك؟ ادَّعت إحدى الجماعات الفلسطينية مسؤوليتها عن الحادث، إذ وجدت في الأمر فرصة لتعريف العالم بالمنظمة والقضية الفلسطينية، ثم سحبت تصريحها حين تأكدت أن الأمر كان أكبر من كل تصور.

عدت إلى البيت وبقيت مسمرة إلى شاشة التلفزيون مثل باقي أصدقائي وزملائي. دخلت لندن في حالة من السكون غير المعتاد. مرت الدقائق والأخبار لا تزال مقطوعة والأمر لا يزال غامضًا. غرقنا في هوَّة من الخوف والريبة. تُرى ما المدينة التالية؟ كانت الأخبار شحيحة جدًّا حول منفِّذي الهجوم ودوافعهم، مما دفعنا إلى الافتراض أن لندن قد تكون الهدف التالي.

أعلن «جورج بوش» أن المجرم هو القاعدة. الـ... ماذا؟ لم أكن قد سمعت عنهم من قبل. وفجأة أصبح أول شخص على قائمة المطلوبين للعدالة في العالم هو أسامة بن لادن. لم أكن قد سمعت عنه أيضًا. قالوا لنا إن ابن لادن وأتباعه هم من نفذوا الهجومين، وإنهم مسلمون وقد أعلنوا الجهاد على الغرب. وبعد تسعة أيام أطلق «جورج بوش» حربه هو الآخر ردًّا على ما حدث، معلنًا بأنها «حرب على الإرهاب». شعرت كأن الحرب أعلنت عليَّ، علينا كمسلمين. شعرت بالوصمة والحصار، ولم يكن هواء الخريف هو السبب في البرد الذي شعرت به.

ومثل غيري من الناس شعرت بالغضب والخوف. كان من السهل على الناس إلقاء اللوم وإطلاق الأحكام بخوف. وعلى الرغم من إحساسنا بالخوف والهلع مثلنا مثل غيرنا من الناس أصبح يُنظر إلى المسلمين العاديين أمثالي كأوغاد مجرمين كريهين وبرابرة. فكرت أنها ضربة مزدوجة. لقد بدأنا نواجه الخوف من الطرفين.

وفجأة أصبح حجابي كضوء النيون الساطع ينظر إليه الجميع برعب أينما اتجهت في الشارع. بدا الأمر وكأن المأساة المروعة في نيويورك وآلاف الضحايا الأبرياء كانوا ضحاياي أنا.

كانت القنوات التلفزيونية مليئة بالنقاشات والمناظرات والتحليلات. عاد «جاك» من زيارة قصيرة قام بها إلى نيويورك للاطمئنان على أصدقائه وعائلته بعد الهجوم، ووصف لنا كيف أن الفكرة الجماعية الوطنية، التي انتشرت فوق الأشلاء المأساوية لموقع الحادث، كانت: «لماذا يكرهنا الناس؟» هذا هو السؤال الذي طرحه الأمريكيون. قال أيضًا إنه أصبح من الممنوع أن يفعل ما يفعله الآن من استفسار وتحليل وتساؤل حول الأسباب التي أدت إلى هذه الحالة. فالناس يحتاجون أولًا إلى أن يحزنوا.

أخبرونا أن المعتدين استلهموا تنفيذ هجومهم الفظيع من فكرة «الجهاد»، أي من الاعتقاد بأن عليهم الاستشهاد في سبيل الدين كي يدخلوا الجنة. ذعرت، لأنه نتيجة لهذا الخلط الواضح أصبح العالم يعتقد أن المسلمين يؤمنون بأن الإسلام دين يحض على قتل الأبرياء. وهذا أمر غير مفهوم بالنسبة إليَّ وإلى معظم المسلمين الآخرين الذين يعلمون أن أساس الدين هو نشر السلام والوئام في العالم من حولنا. حتى اسم «الإسلام» نفسه يعني السلام. كان من الصعب بالنسبة إلينا الإجابة عن هذا السؤال: كيف يمكن لأشخاص يدَّعون أنهم مسلمون أن يفعلوا شيئًا من هذا القبيل؟

لقد أساء المعلقون الغربيون تفسير «الجهاد»، فأسموه «الحرب المقدسة»، وحَور الأمر بشكل فظيع المجرمون الذين ادعوا أنهم مسلمون، وأن جرائمهم كانت جهادًا ضد أعدائهم. يعني «الجهاد» في الحقيقة صراعًا روحيًا. يعني أن تبذل جهدك لتحقيق أفضل مستوى من مكارم الأخلاق. وهي كلمة مستخدمة في المفردات الدينية، لأنها فعلٌ قائمٌ بذاته. وهو مَثَل مهم. إنه الحرب على الجوانب المظلمة في ضمير الإنسان - تلك الجوانب التي تمنعه من التصرف بإنسانية كاملة. الوقت الوحيد الذي يصبح فيه الجهاد صراعًا جسمانيًا هو عندما يضطر الإنسان إلى الدفاع عن نفسه ضد هجوم معادٍ. فالجهاد لا يسمح بقتل المدنيين الأبرياء.

ومع مرور الساعات استمرت التحقيقات حول ما جرى. سمعنا أن هناك تسعة عشر رجلًا تورطوا في الحادث. كما علمنا أنهم كانوا يشربون ويعربدون مع نساء مجهولات قبل ركوب طائراتهم. هذا أمر لا يُعقل. إذا كانوا مؤمنين متشددين كما وصفهم الإعلام، فإنهم لا يستطيعون القيام بهذه الأفعال الخارجة عن تعاليم الإسلام. وإن لم يكن الدين دافعهم، فلماذا إذن فجروا أنفسهم مع آلاف آخرين؟

لقد صدمت الكارثة التي عاشتها أمريكا مشاعر العالم. فقد هوجمت هذه الدولة القوية على أرضها واختُبر أهلها شيئًا لم يختبروه في حياتهم قط. كانوا في حالة يرثى لها من الاضطراب والكرب، وكان العالم كله معهم. وقد وضعت الدول الأخرى مشاكلها وآلامها جانبًا كي تشارك أمريكا حزنها. لقد قتل أبرياء، وهذا أمر لا يغتفر. فالسلوك الاجتماعي والإسلامي يستدعي الحزن على الأبرياء حتى لو كان الميت شخصًا واحدًا بصرف النظر عن هويته. كما أن قيمة القتلى الأبرياء لا تعتمد على ما يحدث في العالم. إن فقدان شخص واحد - بغض النظر عن هويته أو مكانه - هو فقدان للبشرية جمعاء.

أرسل مسلمون من كل أنحاء العالم رسائل تعزية واستنكار من القلب، لكن هذا لم يكن كافيًا. فمهما استنكرنا هذه الفظائع كانوا دائمًا يقولون إننا نساندها. أخبرونا أنه يجب علينا أن نستنكر بحماسة وعاطفة أكبر. استنكرنا أكثر لكنهم أخبرونا أننا لسنا صادقين فيما نقول. وعندما حاولنا أن نشرح المبادئ الإنسانية للإسلام أخبرونا أننا كاذبون وإلا فكيف استطاع هؤلاء الرجال تنفيذ فظائعهم بقولهم إنها «تصرفات إسلامية». شرحنا لهم أن تفسير هؤلاء الناس للإسلام خطأ وأنهم مجرمون يحاولون تبرير أفعالهم المقرفة بأية طريقة، لكن التحدث في الأمر زاد الطين بلة وتسبب في مزيد من النقد اللاذع ومزيد من الكراهية. ولم يكن الصمت خيارًا أيضًا. إن الصمت يمكن أن يسبب معاناة للآخرين، ويمكن أن يجعل الحرب على الإرهاب تخرج عن السيطرة. شعرت بالخوف وكأنني كنت أوصف بالشريرة والإرهابية. لقد خفت مما كان ينتظرني كمسلمة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أقدِم فيها على قول عبارة: «ليس باسمي». كان مطلوبًا مني كمسلمة أن أستنكر ما حدث، وأن أنأى بنفسي عن تهمة أنا بريئة منها. كنت أرفض الهجومَين الفظيعين من كل قلبي ومن أعماق روحي، وكنت

مروَّعة من موت هؤلاء الأبرياء. لقد استنكرت الهجوم كإنسان وكمواطن من هذا العالم يمقت العنف وقتل الأبرياء والتدمير المتعمد للناس والملكيات والرموز.

لا تتكلموا باسمي كإنسان، كانت هذه هي العبارة العالمية، لكنني في الوقت نفسه شعرت بالغضب، لأن الجميع كان يتوقع مني أن أقول: «لست أنا»، لمجرد أنني مسلمة. إن كنت مسلمة فذلك لا يعني أن لي ارتباطات بالأشرار الذين ارتكبوا هذا الفعل، إذًا لماذا يجب أن أقول: «ليس باسمي»؟ لماذا أخلق هذا الرابط غير الموجود أصلًا؟ فأنا كغيري من الناس، لم أتعلم إلا عن السلام والوئام. هذا هو جوهر ديني؛ أن أكون مسالمة مع خالقي ومسالمة مع نفسي ومع الآخرين.

«ليس باسمي» ترددت هذه العبارة ثانيةً بعد تفجيرات ٧ يوليو، ولا يزال مطلوبًا مني ترديدها كلما ارتبط مسلم بأحد أعمال العنف. لقد كان مطلوبًا مني الاعتذار عن أعمال الآخرين التي كانت تعنيني كما تعني أبعد شخص عن الموضوع في العالم. إنني مسؤولة عن أعمالي فقط، هذا مبدأ إنساني، مبدأ إسلامي.

بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبعد أحداث ٧ يوليو ٢٠٠٥ في لندن، أصبح لوني واسمي وحجابي علامات مميزة وصمتني بصفة «الإرهابية». ففي ١١ سبتمبر بدأت أشعر، وللمرة الأولى في حياتي، أنني مواطنة من الدرجة الثانية في بريطانيا، ولأول مرة في حياتي بدأت أشعر بالخوف من العيش في بلدي.

* * *

كنت قد رتبت قبل أيام قليلة من أحداث نيويورك الفظيعة لقاءً يجمعني مع مجموعة من النساء لتأسيس نوع من الشبكات الاجتماعية النسائية. كان من المفترض أن يكون هذا هو لقاؤنا الأول حيث نجتمع لتناول الشاي

وحلوى «المافن» ونتعرف على صديقات جديدات. كان الموعد في ١٢ سبتمبر وشعرت الفتيات بالعصبية.

قالت سارة: «لست متأكدة أننا يجب أن نلتقي».

قالت نورين: «أنا خائفة. سنكون معرضات للخطر والناس سيراقبوننا ويتساءلون عما تناقشه هذه المجموعة من المسلمات».

كنت قلقة أنا الأخرى: فمن الممكن أن نُستهدف. هل سيتم الهجوم علينا لفظيًّا أم جسديًّا؟ هاجم عمي مرتين أشخاصٌ بدأوا باتهامه بعدوانية، دفع أبي رجلان في السوبر ماركت ذلك الصباح.

كان الجميع خائفين من الخروج. ماذا لو كانت لندن هي الهدف التالي؟ كانت رائحة الخوف تفوح من الشوارع ونظرات الشك تطارد الناس والخطوات تسرع على الأرصفة، حاملةً أصحابها إلى أمان البيوت، وإلى طوفان التحاليل الإخبارية الذي لا ينتهي.

كنا كالجميع، قلقين مثلهم وخائفين مثلهم. لكننا كنا نحمل عبئًا مزدوجًا، إذ كنا هدفًا للإرهابيين من جهة، وهدفًا للناس الذين كانوا يفورون غضبًا وخوفًا بعد الهجوم على البرجين من جهة ثانية.

قررنا أن نلتقي على كل الأحوال في أحد المقاهي الصغيرة. خمسٌ منا رفضن أن يقعدهن الخوف الذي أثاره الإرهابيون في قلوب الناس المحيطين بنا. خمس منا رفضن أن يكنَّ هدفًا لمن أراد وضعنا في خانة الإرهابيين. خمس منا كنَّ يحتجن إلى تناول فنجان كابوتشينو وبعض حلوى الخطمي. كنا مصدومات كبقية أهالي لندن، ومثلهم كنا مرعوبات، ومثلهم كنا نعارض العنف، لكن كان علينا أن نتابع حياتنا.

كان إيماني هادئًا وغير مُعلَن حتى ذلك الحين، لكن فجأة أصبح الإسلام موضوع النقاش الدائم. كرر بعض المعلقين جدالنا العنيف حول معارضة الإسلام العنف وقتل المدنيين الأبرياء. وحدد السياسيون بعض السياسات الجديدة تحت غطاء الحرب على الإرهاب. وقد كانت أفغانستان أولى الضحايا، إذ سيتم قصفها لإخراج ابن لادن منها. كنا خائفين على المدنيين الأبرياء الذين سيقتلون في سبيل العثور عليه. إن موتهم لن يعيد الأمريكيين الأبرياء الذين قضوا نحبهم. كان من الفظيع التفكير بأن هجومًا واحدًا على أمريكا يعني قتل آلاف المدنيين الأبرياء في أفغانستان، وسرعان ما تلتها العراق.

أصبح من الصعب الانخراط في الأنشطة العادية إن كنت مسلمًا. فإن كنتَ مسافرًا بالطائرة ستتعرض لتفتيش طويل معقد إن كنت تحمل اسمًا مسلمًا، حتى لو لم تكن أوصافك تنطبق على ما يُفترض بالمسلمين أن يكونوا عليه. تم توقيف صديقتي شاهيناز عشر مرات خلال رحلة متعددة الوجهات «من دون سبب»: أخبروها أن الأمر «مجرد روتين». بينما أعيق صديق آخر في طريقه إلى مقابلة عمل «من دون سبب»: أخبرهم عن موعد مقابلته فأوقفوه، ثم أفرجوا عنه عمدًا بعد دقائق من موعد بدء المقابلة. وقد طُلب من أصدقائي ممن يعملون في البنوك تجميد حسابات الأشخاص الذين يحملون أسماء مسلمة. حال نزولي من الطائرة عند عودتي إلى لندن بعد رحلة عمل، كانت امرأة من قسم الهجرة والجوازات تنتظرني بإصرار عند مخرج الطائرة. صرخت فيَّ أن أخرج من الطابور، أنا فقط من دون باقي الركاب وأصرتْ على النظر في جواز سفري. سألتها لماذا أخضع وحدي للتدقيق بينما يسير المئات ويعبرون بشكل اعتيادي. كررتْ طلبها. سألتها ثانية لماذا تريد أن ترى جوازي البريطاني، لكنها تجاهلتني، ثم همست بطريقة محذرة: «إذا لم تريني الجواز سنأخذك إلى التحقيق. والله وحده يعلم كم من الوقت سيستغرق هذا».

* * *

سحبتني «إيما» جانبًا ذات صباح حال وصولي إلى المكتب. كنت ألبس حجابًا أسود يتناسب مع بذلة سوداء أنيقة كنت قد اشتريتها حديثًا. وبما أنه كان صباحًا جليديًّا من أيام نوفمبر الباردة لبست فوقها معطفًا أسود سميكًا ليدفئني، مثل معظم رجال ونساء المدينة. لم أفكر أبدًا بتركيبة المعطف الأسود والحجاب الأسود. كان يومًا شتويًّا باردًا واللون الأسود كان أفضل خيار في ذلك اليوم. همست «إيما»: «أعتقد أنك يجب ألا تلبسي أسود بالكامل». ارتبكت. هل أصبح الأسود موضة قديمة؟

غضّنت عينيها باهتمام: «قد يأخذ الناس انطباعًا خاطئًا عنك، تعرفين مع كل هذه الأشياء الّتي نسمعها في الأخبار. قد تؤذَين».

كانت «إيما» حسنة النية، كنت متأكدة من ذلك. فهي كانت تهتم بحقيقة أنني مسلمة وكانت تخاف عليَّ من الأذى. وقد رأت ما لم يره الآخرون: أنا إنسان مثل الجميع. لقد أحببتها لهذا التفكير.

ابتسمت لها بدفء وضممتها: «شكرًا يا «إيما»، كم أقدر اهتمامك. اعتبري الجاسوس الفرنسي ذا المعطف الأسود قد اختفى إلى الأبد».

«ألم تغضبي مني؟»

«بالطبع لا، بل أشكرك على اهتمامك بي».

طمأنتني تعليقات «إيما» بأن الأشياء ستتحسن وأننا نستطيع أن نطمح إلى مجتمع يعامل الأفراد فيه حسب مزاياهم بشكل يضمن راحتهم وسعادتهم. وتمنيت أن يكون هناك مزيد من الأشخاص الطيبي القلب مثل «إيما». إن العالم بحاجة إلى مزيد من الناس الذين يهتمون بالآخرين.

أقلقتني تعليقاتها أيضًا: هل يكفي أن أتجنب ارتداء اللون الأسود؟ إن

الناس الذين يعتبرونني - عن جهل - مسؤولة عما حدث قد يفكرون في الانتقام مني، سواء كان هدفهم واضحًا وداخل خانة اللون الأسود، أم لا. إن نزع الحجاب سيجعل الناس يلاحظونني بقدر أقل. كانت هناك نقاشات حول ما إذا كان من الضروري نصح المحجبات بخلع الحجاب من أجل المحافظة على سلامتهن، لكنني أصررت على أنني لست مستعدة للتفكير في هذا الأمر. لقد كنت ثابتة في إيماني، وكنت مستعدة للمخاطرة. لقد رفضت أن أغيِّر الطريقة التي أمارس بها ديني، أو أن أسمح للخوف أن يمنعني من فعل ما أؤمن به. إن فعلت هذا فسأكون قد فشلت في واجبي كمواطنة.

قلقت من هذه التصنيفات الغبية للمسلمين التي بدأ يُؤخذ بها. وفكرة «إيما» عن احتمال النظر إلى مرتديات المعاطف والأحجبة السوداء كإرهابيات كانت واحدة من هذه التصنيفات. لقد تأثرت كثيرًا بقلقها على سلامتي، وفهمت مشكلتها حول ما إذا كان عليها أن تطلعني على ما قد يظنه الناس بي، في حين كان في نقل كلامهم بحد ذاته تقبُّل منها لهذه التصنيفات وتأكيدها إلى حد ما. كيف أستطيع تغيير العالم إذا عجز الناس الطيبون المهتمون بأمري عن مساعدتي في رفض التحامل الذي يمارَس عليَّ؟ إن تقبل الظلم الذي يمارسه الناس عليَّ يعني أن أعيش حياتي في خوف وقلق دائمين حول الطريقة التي يراني بها الناس. كان علي أن أكون شجاعة وأحطم هذه الأفكار.

لم يكن الأمر سهلًا، فالخوف والعنف كانا يؤثران علينا جميعًا. لُكمت إحدى صديقاتي المحجبات، وكُسر أنفها، بينما كانت تجلس بهدوء في القطار عائدةً إلى البيت. تلفظ مهاجمها ببعض الشتائم حول دينها وأنشطتها الإرهابية، من دون أن يدرك أنه هو الذي كان يُرهبها، وبعد أن ألحق بها كثيرًا من الأذى، قام ونزل في المحطة التالية. وحتى بعد أن غادر، تركها الركاب الآخرون تنزف من دون أن يحاولوا مساعدتها.

كمسلمة مؤمنة بالسلم والحوار تحتم عليَّ مواجهة الخوف والتعسُّف من جوانب عديدة. فأولئك الذين هاجموا البرجين قاموا، في الحقيقة، بمهاجمة جوهر الإسلام، وهو أن علينا أن نعمل من أجل السلام. وادَّعوا بعدائية أن الناس أمثالي من المسلمين «المعتدلين» هم ضعفاء. وللمفارقة كانت خبرتي في الأسابيع والأشهر التي تلت الاعتداءات أن تم ربطي بمرتكبيها، ونُعِتُّ بصفات «العنف» و«التطرف».

دارت نقاشات وسط هذه الآراء الصارمة حول وضع وطرق معاملة المرأة المسلمة. فالأفكار التي كنت قد شاهدتها في صغري على التلفزيون، والتي تصور المرأة المسلمة ككائن مضطهد ومستغَل، تغيرت قليلًا في السنوات التالية. وقد اعتُبر الإسلام مسؤولًا كليًّا تقريبًا عن الممارسات العنيفة التي تُرتكب ضد المسلمات خارج العالم الغربي، على الرغم من أن روافد هذه الأفعال الفظيعة كانت التقاليد البالية والتخلف والجهل وانعدام التعليم. وقد تضاعفت معاناة النساء في هذه المناطق بسبب الحروب التي تركتهن في حالة مزرية من الفقر لا يجدن فيها ما يسد رمقهن. أما بالنسبة إليَّ، وقد ارتديت الحجاب باختياري الشخصي، فقد اعتبرتني النقاشات العامة حول النساء المسلمات مكبوتة إلى حد أني لست سيدة قراراتي، علمًا بأن هذه النقاشات نادرًا ما أعطت الصوت للمسلمات أنفسهن. كنت مكبوتة إلى حد أنه لم يُسمح لي بالتعبير عن نفسي في هذه المناظرات، وبارتدائي الحجاب زعم أني أشارك في عملية اضطهادي. كما نُعِتُّ بكثير من الأوصاف من دون أن يكون لي فيها رأي:

مكبوتة، مضطهدة، مقهورة، متخلفة، جاهلة

عنيفة، متطرفة، كارهة، إرهابية، جهادية، شريرة، رجعية

متهاودة، معتدلة، خائنة، عدوة نفسها، مدافعة عن الدين

نعوت وتصنيفات، كرهتها كلها. فلا شيء مما سبق ينطبق عليَّ. إن بحثي عن الحب لم يعفني من التصنيف أيضًا.

فتاة آسيوية لطيفة

متدينة أكثر من اللازم، محجبة ذات وجه كالح

بنطال أنيق، وأحذية عالية متسلطة

مملَّة، تصلي دائمًا، بلهاء تمضي معظم وقتها في البيت

غير تقليدية، عصرية غير ملتزمة بالأعراف، مستقلة، غير مناسبة، غير مرنة

مكتبة الرمحي أحمد
@ktabpdf

أثقلت التوقعات والتصنيفات كاهلي حين انهالت عليَّ من الثقافات والسياقات المختلفة، كل واحدة منها محاولة أن تخبرني بما يجب أو لا يجب أن أكونه، كل واحدة منها مدعية الكلام بلساني. وبما أني شخص واحد فقط، كم نمطًا معلبًا كان ينبغي عليَّ أن أحطم؟

قررت أن يكون لي صوت - صوتي أنا - صوت يمنع الناس من التكلم بلساني - صوت تكون مهمته الإجابة عن الأسئلة: أين الحقيقة؟ وما الشيء الصحيح الذي يجب فعله؟ لقد كسرت كل الأطر التي أراد الناس وضعي داخلها بعبارة واحدة فقط: أنا هي أنا.

اتحدت الثقافات والتواريخ والأديان المختلفة التي اطلعت عليها، بحكم نشأتي كامرأة بريطانية آسيوية مسلمة، لتُكوِّن شخصيتي. لم أعتبر هذه التيارات المختلفة عبئًا، بل أعتقد أنها أعطتني منظورًا فريدًا استطعت من خلاله رؤية الأشياء من زوايا مختلفة، إذ هو مكنني من جمع ثقافاتي المختلفة وديني ورؤيتي الواضحة التي قدمها لي الإسلام وتكريسها لبناء مستقبل أكثر إشراقًا.

* * *

شعرت بالعزلة وأنا أحاول التعامل مع هذه القضايا الكبيرة وحدي. تحطم قلبي من العزلة في عالمي الداخلي الفارغ المليء بالوحدة. هل سأجد رجلًا أشاركه في هذه القضايا؟ أين كان الرجل الذي يستطيع أن يساندني في هذه الرحلة، الرجل الذي يكون مصممًا على التخلي عن كل الأنماط الغيبية وعلى السير في طريق رسمه هو لنفسه؟ أنا هي أنا، فكرت ثانية، لكن هو، من هو؟

الباب السادس

الحجاب كرمز

ما الموجود تحت الحجاب؟

وضعت أحداث ١١ سبتمبر المسلمين في بؤرة الضوء. فأصبح القرآن في رأس قوائم مبيعات الكتب، حيث أقبل الناس على قراءته بطريقة غير مسبوقة ليكتشفوا «مَن هم المسلمون». هكذا قالوا. شعرت أن الزملاء في العمل كانوا يريدون أن يعرفوا في ماذا أفكر، وما إن كان ما سمعوه عن الإسلام صحيحًا، لكنهم بدوا خائفين من السؤال. سمعت همساتهم، ومحاولاتهم لكشف الأفكار المختلفة التي نُقلت عن المسلمين عبر التلفزيونات، ثم سعيهم الحثيث إلى التوفيق بين هذه الأفكار وبين معرفتهم بي تحديدًا: المسلمة المقيمة في المكتب.

واندهشت مع مرور الأيام من عدم توجيه الأسئلة إليَّ، وتساءلت عما إذا كانوا خائفين من تحطيم تلك الواجهة المرحة التي بنيناها بيننا. هل شعروا بأنهم ينتهكون خصوصيتي؟ كنت أريد التحدث إليهم، أردت أن أشرح لهم سياق ما يحدث في نشرات الأخبار، وأن أشاركهم المعلومات التي شعرت بأهمية معرفتها عن الإسلام والمسلمين، لكنني لم أعرف كيف أبدأ من دون أن أبدو وكأنني أعظ. بدلًا من النقاشات السهلة حول التغطيات الإخبارية وشعور المسلمين، ساد نوع من الحذر لدى الزملاء من فتح مواضيع شخصية في مكان

العمل، ونوع من خيبة الأمل من جانبي، لأن أحدًا لم يرغب في مناقشة القضايا العالمية الضخمة التي كانت تؤثر علينا جميعًا، ولكن عليَّ بشكل خاص. لقد غرست أحداث سبتمبر ومن بعدها تفجيرات ٧ يوليو ٢٠٠٥ الخوف في أهم نشاط إنساني: أصبحنا نخاف التحدث مع بعضنا بعضًا.

وعلى الرغم من أن كل الاعتداءات الإرهابية شنها رجال، إلا أن حجاب المرأة أصبح هدفًا للهجوم اللفظي والجسدي. فجأة أصبحت قطعة القماش التي تغطي رؤوسنا محط اهتمام العالم. كانت الكثير من المسلمات المحجبات يرتدين حجابهن عن قناعة مثلي، وكن يتجولن به بهدوء وسلام. كانت المسألة بالنسبة إلينا أمرًا دينيًّا وخيارًا شخصيًّا. بالنسبة إليَّ، لم يكن ارتداء الحجاب قرارًا سياسيًّا، أو تصريحًا علنيًّا، بل مجرد جزء من زيي اليومي. فكرت: «إنه مجرد قطعة قماش، إنه ليس نهاية الحضارة التي نعرفها». لم أكن أدرك مدى الإزعاج الذي يسببه حجابي.

«كيف هو شعرك؟»

كانت الأنظار كلها تبحث عن شعري! اعتبرت أنه شعري، وأني أستطيع أن أفعل به ما أشاء، وليس من شأن أحد النظر إليه إذا رفضت ذلك. ولكن يبدو أنني كنت مخطئة مجددًا، فالجماهير تطالب بمشاهدة شعري. شعري الجميل الذي هو جزء مني، جزء من كياني كامرأة، أصبح الآن أملاكًا عامة. ماذا حدث لحق المرأة في التحكم في جسدها؟

كان الرجال هم الأكثر فضولًا بشأن شعري؛ أما النساء فلم يطرحن أي سؤال. تساءلت عما إذا كان يصعب على الرجال استيعاب أنوثتي من دون رؤية شعري. لقد أخفيت إحدى الإشارات البصرية التي يستطيعون من

خلالها تعريفي وتصنيفي. لم أجد أسئلتهم مزعجة، بل في الحقيقة وجدت فضولهم بريئًا ومسليًا. كان بإمكاني أن أمازحهم من دون أن أسمح لهم بتصنيفي حسب شروطهم. لم يكن أمامهم إلا أن يتقبلوا ما كنت أريد كشفه عن نفسي، وكنت أستطيع أن أرى من امتناعهم المتكلف عن طرح السؤال أنه دار في أذهانهم منذ مدة.

قلت لهم بكل جدية: «شعري أشقر مصفف على طريقة الموهوك». هزوا رؤوسهم موافقين.

سألوا ببراءة متحاشين النظر إلى قمة رأسي: «ألا يُسحق شعرك تحت الحجاب؟» ثم أدركوا أنني آسيوية ببشرة سمراء وحاجبين ورموش بنية.

ظهرت ابتسامة على شفتي، لكنني تابعت النظر في وجوههم بجدية: «في الحقيقة، ليس عندي شعر!».

بدأوا يشككون فيما أقول، إذ أدركوا أنني كنت أضللهم عن عمد.

فسألوني ثانية: «كيف هو شعرك في الحقيقة إذًا؟».

هذه المرة كنت دفاعية وأكثر جدية. لم أكن أريدهم أن يتخيلوا شكلي. «أشعر أن هذا أمر شخصي. لقد غطيت شعري لأنني لا أريدكم أن تروه. ما الفائدة إذًا من إخباركم كيف يبدو؟». ما لم يدركوه هو أن المرأة المسلمة تهتم بشعرها تمامًا كبقية النساء. فهي تصففه وتقصه وتصبغه تمامًا مثل الأخريات. وعلى الرغم من أننا نغطيه عندما نخرج إلا أننا نوليه كثيرًا من العناية داخل البيوت. إنه جزء من شعورنا بالأنوثة. إن الحجاب لا يعني إلغاء الأنوثة، بل يعني الاحتفاء بها في نطاق خاص.

إن الحجاب لا يتعلق فقط بالشعر على الرغم من التركيز عليه كجزء لا يتجزأ من الزي الإسلامي، بل يتعلق بطريقة اللبس كلها والتي يجب أن

تكون محتشمة. كثير من المسلمات لا يرتدين الحجاب لكنهن يراعين الحشمة في الملبس والسلوك، وهذا هو الجزء الأهم في الموضوع. بالتركيز على الشعر والرأس تم التغاضي عن فلسفة الحشمة التي تكمن وراء الحجاب نفسه.

«هل يجبرك زوجك على ارتداء الحجاب؟»

تنهدت بحزن: «ليت لي زوجًا». بدا أن المفارقة الأكبر هي افتراض الناس أني كامرأة مسلمة لا بد أن أكون واقعة تحت نير زوجي، لكن ها أنا ذي غير قادرة حتى على العثور على زوج.

وقبل أن يتابعوا التحقيق قلت: «وأبي لم يجبرني على ارتداء الحجاب أيضًا».

بالنسبة إلينا كمسلمات، لقد أصابنا ارتداء الحجاب بضربة مزدوجة، وكان الأمر يثير الكثير من العواطف والتوتر. فالرجال المسلمون التقليديون أصروا على ارتداء النساء الحجاب للذود عن الإسلام. بينما ارتفعت الأصوات في وسائل الإعلام لتشير إلى المسلمين بوصفهم إرهابيين ينتمون إلى العصور المظلمة، مطالبة النساء بنزع الحجاب.

فكرت: «هل أستطيع أن أقول شيئًا من فضلكم؟».

فتحت فمي لأتكلم، لكن رجلًا مسلمًا تقدم للدفاع: «إن الإسلام أعطاكن أيتها المسلمات الحجاب كحق من حقوقكن، ألا يستطيع الناس إدراك ذلك؟ طبعًا أنت فخورة بأنك متحررة». نطقت بعبارة موافقة، لكنني شعرت ببعض الامتعاض إذ سلب مني حقي كامرأة مسلمة في الدفاع عن نفسي.

فكرت ثانية: «أود في الحقيقة أن أعبر أنا عن نفسي».

وقبل أن أفتح فمي قاطعني أحدهم ثانية: «لقد غُسلت أدمغة المسلمات. تعتقدين أنك تريدين ارتداءه لأن رجال الدين أخبروك بما ينبغي على المرأة المسلمة الصالحة فعله. لذا فأنت متواطئة معهم في إخضاع نفسك».

فكرت: «متواطئة في إخضاع نفسي؟». بدا الأمر معقدًا وغريبًا نوعًا ما.

غضبت، إذ كيف يجرؤ الآخرون على التحدث بالنيابة عني؟ إذا كان الإسلام قد حررني وجعلني إنسانًا كاملًا يتمتع بحقوقه كاملة، فأنا محررة بما فيه الكفاية لأعبر عن نفسي. إن كنت تظن أنني مضطهدة، إذًا توقف أنت عن اضطهادي بإخباري ماذا أقول وماذا أفكر.

لقد فكرت مليًّا في طريقة لبسي وفي الانطباع الذي أود تركه. لم يكن ارتداء الحجاب أمرًا سهلًا لأنني كنت أبدو مختلفة عن كل من حولي، ومع هذا الجو السياسي والاجتماعي المشحون أصبحت الأمور أكثر حساسية والوصمة أكثر قوة. فاختيار الحجاب معناه الرغبة في مواجهة هذه الصعوبات وهذا التوتر؛ لأن ممارسة ديني وجعل العالم مكانًا أفضل بمقاومة التفكير النمطي، خصوصًا في شؤون المرأة، كلها أمور تستحق التضحية. كامرأة كان لديَّ الخيار بشأن مسألة الملابس وقد مارست هذا الخيار حتى حده الأقصى. كان القرار قراري.

وكنت آمل أن يكون إصراري هذا صوتًا صغيرًا يضاف إلى النداءات الملحة لتغيير حياة النساء المضطهدات باسم الدين. استطعت اتخاذ قراراتي، لكن هذا لا يمنع من وجود مسلمات مجبرات على ارتداء أشياء بعينها، والتصرف بطريقة معينة، وهذا خطأ. بعضهن مجبرات على الزواج، وهذا خطأ كذلك. مُنعت بعضهن من التعليم والرعاية الصحية والعمل، أو طُبقت عليهن بعض التقاليد الثقافية الجائرة. إنها الكلمات نفسها التي يجب أن تقال

ثانيةً: خطأ، خطأ، خطأ. الإكراه بأنواعه محظور تمامًا ومنافٍ لجوهر الإسلام، يجب أن يُكشف ويُعرَّى كل مضطهِد، وكل مرتكب لمثل هذه الأعمال العنيفة، كي يرى العالم أهدافه الحقيقية، وهي السلطة والتحكم. يجب ألا يختبئوا وراء ادعاءاتهم الكاذبة بزعم ابتغاء مصلحة المرأة والإسلام والإنسانية. يجب أن تكون أفعال المسلم وتصرفاته حرة دائمًا، وإلا فما الداعي لها؟ القرآن واضح جدًّا في هذا الشأن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦). لا يمكن لأحد أن يجبر شخصًا على فعل ما لا يريد.

«ألا تشعرين بالحر؟»

كانت الفكرة السائدة عن النساء المسلمات تصورهن متسربلات بالسواد من رأسهن إلى أخمص أقدامهن. فالحجابات طويلة وسوداء، قطع قماش تتطاير وتتدلى فوق عباءة سوداء طويلة، وأحيانًا مع نقاب ووشاح فوق الوجوه أيضًا، كلها باللون الأسود. كانت الصور تُؤخذ بشكل تبدو فيه النساء غريبات ومتوحشات، ككائنات غريبة في عيون الغرب. لكن تحت الأغطية، كانت تكمن حياة وقصص وقلوب لم يرد الناس رؤيتها، بل فضلوا اعتبار النساء أشباحًا مسربلة بالسواد. لكن من نظر إليهنَّ على أنهن كائنات مجهولات متواطئ مع من حاولوا إخفاءهن بفرض هذا الزي الموحد عليهن. كانت رؤية النساء، مسلمات كن أم غير مسلمات، وهن يرتدين ملابس متطابقة، تزعجني، سواء أكان «الفستان الأسود القصير»، أو «البذلة السوداء» التي ترتديها النساء العاملات في مجال الإعلام، أو «العباءة الإسلامية». ومن الغريب أن اللون الأسود هو القاسم المشترك بينها جميعًا.

لقد تبنى العديد من النساء المسلمات هذا المظهر من الأقمشة الطويلة عديمة الشكل كنوع من التحكم المقصود في الصورة التي يعرضنها عن أنفسهن. لقد

مللن من صور النساء الكاملات الحسن، النحيلات الطويلات الشقراوات الرائعات، ذوات الشعر الرائع والبشرة الصافية والماكياج الجميل. إذ لا يزال هناك من يخبر النساء كيف يجب أن يرتدين ملابسهن، وكيف يجب أن يبدو مظهرهن. بالنسبة إليهن كانت العباءات السوداء مهربًا لإعادة السيطرة على صورتهن.

لم تختر كل النساء ارتداء هذا الزي. بالنسبة إليَّ، الشخصية والجمال أمران مهمان. حسب قول إسلامي مأثور: «الله جميل يحب الجمال»، أظن أن ذلك يعني إدخال الجمال إلى الزي لاستكمال احتشامه. وفي النهاية فإن الاحتشام هو القيمة الإسلامية التي تكمن في جوهر هذا النقاش، والحجاب مجرد جزء من ذلك.

ينصح القرآن المؤمنين والمؤمنات بأن تكون الخطوة الأولى نحو الاحتشام بـ«غض البصر» عند النظر إلى شخص من الجنس الآخر. والكلمات قد تعني ذلك حرفيًا أو مجازًا، كنوع من الاحترام للشخص الآخر، وعدم النظر إليه من منظور جنسي. باستبعاد هذه النقطة من المعادلة تصبح العلاقات الاجتماعية أقل تشنجًا وشحنًا. يجب الناس أن يتم تقييمهم بما هم عليه في الحقيقة وليس لمظهرهم، ويا للأسف! فإن النساء هن أكثر من يُقيَّم بناءً على المظهر والجاذبية الجنسية.

السلوك المحتشم يجب أن يرافقه الزي المحتشم. بالنسبة إلى النساء، يعني ذلك ارتداء الملابس الفضفاضة وتغطية الذراعين حتى المعصم والقدمين حتى الكاحل. معظم المسلمين، ولا أقول جميعهم، يعتقدون أن هذا يتضمن تغطية الرأس أيضًا، وفئة أقل تعتقد بوجوب تغطية الوجه أيضًا. إن تبني السلوك والزي المحتشمين في الأماكن العامة يجعل الحياة أسهل وأقل توترًا وتقييمًا للجميع. إن كان هدفي هو جعل المجتمع مكانًا أكثر سعادة، كنت أرضى أن

أمضي وقتًا أطول بقليل في اختيار ملابسي وحجابي. بالنسبة إليَّ كانت المسألة مسألة إيمان ومساهمة في الارتقاء بالمجتمع الذي أعيش فيه إلى الأفضل. أما الحجاب، فكان مجرد قطعة واحدة من الملابس. أحيانًا يكون الطقس حارًّا، لكن الأمر يستحق العناء.

«لماذا لا يلبس الرجال الحجاب؟»

جاء في القرآن أن الرجال أيضًا يجب أن يرتدوا ملابسهم باحتشام. لكن الرجال يعتقدون دائمًا بأن القاعدة لا تنطبق عليهم لدرجة أن بعضهم يذهب إلى حد ارتداء الجينز الضيق والقمصان القطنية الضيقة. إن كانوا ملتزمين بقيمهم الإسلامية يجب عليهم أن يرتدوا ملابسهم باحترام هم أيضًا. بالنسبة إلى معظم المسلمين، من المطلوب أن يلبس الرجال ملابس محتشمة، لكنهم غير مطالبين بتغطية رؤوسهم كما تفعل النساء. إن الفضول الذي يبديه الرجال تجاه شعري والذي لا تبديه النساء والطريقة التي يستخدمون فيها الشعر لاستكمال صورتهم البصرية عن المرأة، يجعلانني أعتقد بأن شعر المرأة هو جزء أساسي من جمالها وسحرها، والحال ليست كذلك بالنسبة إلى شعر الرجل.

وبصرف النظر عما إذا كان من الضروري للرجال تغطية رؤوسهم أم لا، فمن الشائع في بعض الدول الإسلامية أن يفعل الرجال ذلك. ففي عُمان مثلًا يرتدي الرجال عمامة يُطلق عليها اسم «مسار». وفي المملكة العربية السعودية يغطي الرجال رؤوسهم بقماش أبيض يدعى الغترة تثبت على الرأس بعقال. والأمر نفسه في الخليج العربي، بينما يرتدي رجال منطقة المتوسط الكوفية وهي قماش مربع يثبت على الرأس بالطريقة نفسها. وفي الهند يغطي الرجال رؤوسهم بقبعات صغيرة بيضاء اللون في الغالب تُدعى «توبي». وفي ماليزيا

يرتدون ما يُدعى بالـ«سونجكوك». ومن الغريب ألا يرتدي الرجال المسلمون العصريون لباس الرأس، وربما يكون السبب هو أنهم وضعوا تركيزهم كله على النساء وعلى ضرورة تغطية شعرهن إلى درجة أنهم نسوا أن يفعلوا هم ذلك، هكذا خطر لي.

عندما نصل إلى موضوع الرجال والحجاب كان هناك شيء يغضبني نيابة عن كل الرجال: بعض المسلمات يبررن ارتداءهن للحجاب بأنه وسيلة لدرء شهوات الرجال عنهن، وحماية أنفسهن منها. فإن لم تلبس المرأة الحجاب فسوف ينهشها هؤلاء الرجال المساكين الذين سيجنون حين يرونها. كنت أشعر بالغضب نيابة عن الرجال، بسبب النظر إليهم على أنهم وحوش مهووسة بالجنس. ليس من شأن المرأة التحكم في الرجال، فهم ليسوا حيوانات مفترسة. للرجال أخلاق وأعراف وهم قادرون على معاملة المرأة باحترام. إن السلوك والزي المحترمين ضروريان للرجل والمرأة من أجل خلق بيئة محترمة ومريحة، يقيَّم فيها المرء بما هو عليه في الحقيقة لا حسب مظهره.

«هل تنامين بالحجاب؟»

الجمال جزء متأصل في روح كل امرأة. أن تبدو رائعة، وتضوع بالروائح الجميلة، وتستفيد من كل الصفات الأنثوية التي منحها الله إياها؛ هذه كلها عناصر مهمة في عالم الأنوثة. أحد الأسباب التي كانت تدفعني إلى الزواج هو الحصول على رجل أشاركه ما لديَّ من مواصفات جمالية، وأراه وهو يقدرها. إن الحميمية، «احم... احم...»، الجنسية كانت من الأمور التي يشجع عليها الإسلام، وإبراز الجمال للرجال والنساء على السواء هو من الأمور الضرورية في خصوصيات البيوت. أما بالنسبة إلى الحجاب فكنت أخلعه حالما أدخل عتبة البيت، وحين يأتي موعد النوم فلا شيء يفصل بين شعري ووسادتي.

إن ارتداء الحجاب في العلن هو جزء من ممارسة الدين، التي تتضمن السلوك والزي المحتشمين. لم يكن بإمكاني ترك ذلك في البيت عند خروجي، لأنها كلها أشياء مترابطة لا تتجزأ. فما أهمية القيم إن لم يتم تطبيقها عمليًا في المجتمع؟ فكأنك تؤمن بضرورة الصدقة، لكنك لا ترغب في أن تعطيها مستحقها في العلن.

«هل أنت إرهابية؟»

أردت الجواب بنعم وفتحتُ حقيبتي متظاهرة بإخراج شيء منها بطريقة مريبة، لكنني منعت نفسي عن المزاح في هذه المسألة. اكتفيت بالإجابة بصوت جَهْوَري: «هل أنت إرهابي؟»، ثم قطَّبت حاجبي مثل الأوغاد في أفلام الكرتون.

كطالبة في المدرسة، كان عليَّ أن أستشير المشرف المحلي حول آفاق تخصصي العملي في المستقبل؛ لذا ملأت استبيانًا رقميًا حول نقاط قوتي ونقاط ضعفي واهتماماتي الدراسية، وقد قدم إليَّ الاختبار أربعة احتمالات مناسبة للعمل. كان الاحتمال الأول حارسة سجن، إذ جاء في التحليل أنني أمتلك مهارات نفسية عالية، وأنني قادرة على رؤية الجوانب الخيِّرة لدى الناس. الاحتمال الثاني كان مديرة مكتبة، لأنني أحب الكتب. أما الاحتمال الثالث فمصممة في مجال التكنولوجيا، لأنني أحب الأفكار الجديدة وأحب ربطها بالناس. وأخيرًا إضافة جديدة إلى قائمة الوظائف المحتملة: إرهابية، لأنني كنت أريد أن أترك أثرًا. لم أكن متأكدة من المؤهلات المطلوبة لهذا العمل، وكنت أشك في أنهم سيدفعون لي راتبًا جيدًا لقاءه، كما كنت متأكدة أنه لا يتمتع بمزايا مثل التقاعد أو الرعاية الصحية. لذا وعوضًا عن ذلك قررت أن أحصل

على شهادتي من أكسفورد، وأن أتوجه بعدها إلى العمل في مجال الصناعات التكنولوجية الوليدة. لقد كان ذلك الخيار الصحيح بالتأكيد.

«بالطبع لست إرهابية، يا له من سؤال سخيف!»

تساءلت عما يدفع شخصًا ما إلى إنهاء حياته وتدمير ما حوله. ما هذا الطموح المروِّع؟ أهي الكراهية؟ أم إنه عقل شرير أحكم سيطرته على وسائل تنفيذ متعطشة إلى الدم؟ لم أستطع أن أتجنب فكرة أن منفِّذي تفجيرات ١١ سبتمبر كانوا من هذه الفئة، على الرغم من أن لا أحد يعرف الحقيقة فعلًا.

كنت أطمح إلى العيش حياة سعيدة، خيِّرة، حياة يتذكرها القلائل أو الكثيرون، ربما لأنها كانت حياة إيجابية مثمرة. أردت عملًا مهمًّا وبيتًا وزوجًا وأطفالًا وتقاعدًا مريحًا، مثل معظم البشر تمامًا. كما أردت الإسهام في تخفيف البؤس والاضطهاد في العالم، وأن أحدث فرقًا، مهما بدا هذا الفرق صغيرًا. لكل امرأة مسلمة طموحات مثل بقية الناس. والملابس التي ترتديها وتعبيرها عن إيمانها لا يغيران من هذه الحقيقة شيئًا. نحن نريد أن نعيش حياة سعيدة مكتملة وناجحة.

كانت طموحاتي حقيقية وضخمة، وسيطرت على الطريقة التي أحيا بها حياتي. لكن كان آخرون في العالم يعانون من الفقر والحروب والمجاعات والدمار والتسلط والظلم والاحتلال. وقد رأى بعضهم أن تفجير أو قتل أنفسهم وغيرهم أفضل من حياتهم. لم أكن أستطيع أن أتخيل تلك الهوة الهائلة في حياتهم التي كان من الأفضل أن يملأها الأمل. وما أثار رعبي هو معرفة أن هؤلاء الناس اتخذوا قرارًا بأن حياتهم لن تتحسن إلا من خلال الموت. إن كان طموحهم هو ببساطة إنهاء معاناتهم، فلا بد أننا خذلناهم، أنا على الأقل خذلتهم.

«لماذا تلبسن اللون الأسود؟»

كنت أتساءل أحيانًا إن كان الناس يرون فعلًا ما يوجد أمام عيونهم. فصورة المسلمات المتسربلات بالأسود أصبحت اختصارًا أو تعميمًا لكل المسلمات، والأدهى «المسلمات الإرهابيات». فقد افترضوا أن المسلمات يرتدين الأسود دائمًا. جاء هذا التقليد من دول الخليج ومن بينها المملكة العربية السعودية، التي صدَّرت أفكارها حول السلوك والعادات الإسلامية إلى كافة أنحاء العالم. ومثلما تبنت بعض النساء المسلمات ارتداء الزي الغربي، يبدو أن هناك فئة من المسلمات اخترن ارتداء الطراز السعودي، للتعبير عن إحياء النهضة الإسلامية. وعندما تسافر نساء الخليج المتسربلات بالأسود إلى الدول الإسلامية الأخرى فإنهن يبرزن بشكل مميز ومختلف. بينما المسلمات في أجزاء أخرى من العالم، وهن الغالبية المنتشرة في دول مثل إندونيسيا والصين وماليزيا ونيجيريا وتركيا وغيرها كثير، فإنهن يرتدين ملابس زاهية ملونة مثل الأخضر والوردي والأزرق والأبيض وكل الألوان الأخرى.

«أما أنا فألبس حجابًا ورديًّا! غالبًا ما يكون له ظل ليلكي أو زهري ناعم، إنه لوني المميز.»

تقييم بناء على الحجاب

أحسست بشعور طيب يوم قابلت حسنًا على فنجان قهوة، لكن هذا الشعور لم يدم طويلًا.

اعترف لي قائلًا: «لم أكن أرغب في لقائك. ليس الأمر شخصيًّا، لكنني أخبرت أمي وخالتي اللتين أخذتا على عاتقهما مهمة البحث عن زوجة لي، أنني لا أريد زوجة محجبة».

يا إلهي! ها نحن نبدأ من جديد؛ وها هو يخبرني ومنذ اللحظة الأولى بأني لا أناسبه بتاتًا! قلبَ عينيه مازحًا: «لكنهما أصرتا وتحدثتا عن لطفك وجمالك وذكائك حتى استسلمت!». تُرى مَن تلك السيدتان اللتان تفكران فيَّ بهذه الطريقة المختلفة كليًّا عن نظرة الخالات؟ لم أتذكر أمه وخالته لحظتها؛ لذا لم أعرف ماذا فعلت حتى أعطيهما هذه الفكرة.

«لقد أقنعتاني في النهاية بأن أقابلكِ، ولم يكن لديَّ الخيار كي أقول لا!». ألقى بيديه باحتجاج مضحك وهو يسخر من عملية الإقناع ومن وضعه الغريب.

ابتسمت بنعومة. هذا كان أفضل ما أستطيع فعله أمام شخص صريح بما يكفي ليعترف بأنني لا أناسب متطلباته. أعطيته مساحة للمناورة. لقد أتى بذهن منفتح على الأقل - حسنًا نصف منفتح.

«لقد بدأتا بتقديمي إلى بعض الفتيات منذ فترة في الحقيقة.»

بدا لطيفًا ومهذبًا وذكيًا. في الحقيقة كان مهذبًا جدًّا يرغب في تجربة أشياء جديدة، ومنفتحًا على كل الاحتمالات. بعد كل لقاءات التعارف التي خضتها تعلمت كيف أحدد بسرعة ما إذا كان هناك أمل في استمرار العلاقة. باستثناء ممانعته حجابي كان كل شيء فيه إيجابيًّا. لقد تعلمت أنه من المهم أن يكون المرء شجاعًا كفاية لإثارة النقاط الحساسة عاجلًا وليس آجلًا. فجواب السؤال سيكون هو نفسه في النهاية، إذ إن الزمن نادرًا ما يغير رد فعل المرء تجاه القضايا الحساسة.

تابعت: «حسنًا، ولماذا لا تريد زوجة محجبة؟».

«أعتقد أن الفتيات المحجبات هن في الغالب متدينات جدًّا يفضلن البقاء في البيت معظم الوقت للصلاة، وأعتقد أنهن لا بد أن يكنَّ بليدات. أنا أحب الخروج كثيرًا، وفي هذه الحالة لن تكون الزوجة قادرة على الخروج معي».
كررت الجملة له: «إذن الفتيات المحجبات يفضلن البقاء في البيت معظم الوقت للصلاة وهن بليدات». نظرت إليه بابتسامة.

راوغني بابتسامة صبيانية بريئة أيضًا.

«الآن، وبما أنك لاحظت أنني أرتدي الحجاب، فما الذي تفعله هنا؟ وبالمناسبة لا تنس أنك دعوتني بالبليدة!»

«أعرف! أعرف!»

مزيد من التململ من طرفه.

سألته: «وماذا أيضًا؟».

قال بلهجة دفاع واهتمام وشقاوة: «حسنًا، هناك أماكن أريد أن أذهب إليها ولا أريد امرأة محجبة بجانبي حين أدخل».

سألته: «ما هذه الأماكن؟»، ما كان ليتملص مني بسهولة.

«أماكن، تعرفين!»

«كلا، لا أعرف». رفعت حاجبي وأخذت رشفة قهوة.

«كل الأماكن التي تذهب إليها أنت أستطيع أنا أيضًا الذهاب إليها». توقفت لأرى إن كان سيعلِّق. «أم إن هناك أمكنة تذهب إليها وأنت تعلم ضمنيًا أنك يجب ألا تذهب إليها، ورؤيتي أنا وحجابي معك سيذكرك بذلك ويجعلك تشعر بالذنب؟».

غيَّر الموضوع: «أنا فقط لا أشعر بالراحة مع امرأة محجبة».

«حقًّا، إذن أنا لا أشعرك بالارتياح!» ضحكت عليه.

«لا! لا!» مزيد من المراوغة.

لم أستطع السيطرة على نفسي فانفجرت بالضحك من تهربه من أسئلتي. «أنا فقط لم أقابل امرأة مثلك، فأنا لا أعرف نساءً محجبات. لهذا اعتقدت بأنهن جميعًا بليدات».

الأفكار المسبقة: لقد حررت نفسي من مجموعة لأجد نفسي واقعة في مجموعة أخرى. تساءلت كيف سيكون رد فعل حسن لو واجهته بسيل من الأسئلة الأكثر صعوبة. قررت أن أصبح أكثر فظاظة.

«هل تريد أن تعرض زوجتك أمام أصدقائك كي يروا كم هي جميلة؟ إذا كنت أرتدي الحجاب فعندها لن تستطيع أن تفعل ذلك.»

«بعض الشبان اعترفوا لي بوقاحة أنهم يريدون الزواج بامرأة جميلة كي يفتخروا بها أمام أصدقائهم، وكي يتنافسوا لرؤية مَن تزوج بأجمل النساء.

المرأة المحجبة لا يمكن أن تلبي هذه الرغبة فهي لا ترغب في هذا». نظر إليَّ وهو غير متأكد تمامًا من التحول الذي طرأ على الحوار.

«أو ربما تكون خائفًا من أن يعرفوا أنك مسلم. وعندها يتوقفون عن مصادقتك لأن تمويهك انكشف.»

كنساء مسلمات محجبات كان ديننا واضحًا للجميع من حولنا، وكان يسهل تمييزنا، كما كانت هويتنا واضحة. فنحن مسلمات واثقات من إيماننا، وكنا نتحمل بشجاعة عبء معرفة الجميع بإسلامنا، والطريقةُ التي نخرج بها إلى العلن تلخص روح الإسلام. كل المقالات في الجرائد الإسلامية غالبًا ما تحمل صورًا لنساء مسلمات يلبسن الحجاب أو النقاب، حتى إن لم تكن عن النساء المسلمات. تحتم علينا أن نعبر من الخارج عما نؤمن به في الداخل، إذ لم يكن لدينا الخيار.

بالنسبة إلى بعض الرجال المسلمين الذين لا يريدون إظهار دينهم علنًا، أو لا يريدون أن يعرف الآخرون أنهم مسلمون، فقد سهل عليهم إخفاء ذلك. كل ما تعين عليهم فعله هو ألا يُظهروا أي إشارة خارجية عن إسلامهم. كان بعضهم يتصرفون بهذه الطريقة لأنهم كانوا يشعرون بالحرج من دينهم، ولم يريدوا إظهار ارتباطهم به. وبالنسبة إلى هذا النوع من الرجال، فإن الحجاب يمثل إشارة خطرة جدًّا، لكأنه لافتة ضوئية موضوعة فوق رؤوسنا تقول: «مسلمون! مسلمون!».

نظرت إليه مباشرةً. كنت أحاول جاهدة ألا أظلمه بوضعه ضمن نمط معين استنادًا إلى تجربتي مع رجال آخرين كانوا يرفضون الزواج بمحجبات. كان يجب أن أقاوم أفكاري المسبقة.

«أنت لطيفة حقًّا، وأنا لم أكن أعرف أن المحجبات يخرجن أو يسافرن أو يعملن أو يلبسن ملابس عصرية هكذا، ومع هذا يبدين جذابات...».

قالها وتورد وجهه، فتورد وجهي أنا أيضًا. ثم أكمل قائلًا: «لم أكن أعلم، إن الأمر... أنا آسف، لكنني لا أشعر بالراحة».

تحدثنا أكثر لتتكشف مشاعر حسن الحقيقية بالتدريج. إن حجابي يعلن ديني على الملأ، والنتيجة التي خلص إليها حسن هي أن الحجاب الذي يعتبر رمزًا دينيًّا بصريًّا واضحًا يقوِّض جهوده في الحفاظ على دينه لنفسه. شرحت له أنه حتى عندما تُقرر المرأة الالتزام بالملابس المحتشمة والحجاب فإن هذا لا يعني أنها كاملة أو متدينة من كل النواحي، فهي بشر مثلها مثل غيرها. لكن رد فعله كان أنني بهذه الطريقة أجبره على كشف أشياء أمضى زمنًا طويلًا في إخفائها عمدًا أو سهوًا.

كشفتْ لي ردود الفعل المختلفة التي أثارها حجابي لدى الرجال طريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى أنفسهم. تذكرت بطاقة عيد الحب المضحكة وفكرت في ردود الفعل المتفاوتة تجاه المحجبات وكيف يمكن لثوب امرأة أن يغير رأي شخص ما فيها بشكل كلي. لحَسن صورة عن نفسه يحاول الاحتفاظ بها في داخله. كان صادقًا في امتلاكه لما سماه ببذرة إيمان كامنة في القلب، لكنه لم يكن جاهزًا بعد لإظهارها للعلن.

كنا، أنا وهو، في مرحلتين مختلفتين تمامًا من رحلة الحياة، في مكانين مختلفين لدرجة أننا لم نكن نمتلك اللغة نفسها لنتحدث حول ما يهمنا.

أعجبني امتلاكه أفكارًا خاصة عن العالم، وأنه كان يفهم أن هناك مجالًا دائمًا للتعلم والنضج. وأهم شيء كان أنني تأثرت بصدقه ورغبته في تحدي أفكاره المسبقة. لقد جعلني أتحدى أفكاري المسبقة، وأحرص أن أرى كل شخص بتجرد وإنسانية.

كنت قد بدأت بحثي عن رجل يلتزم باختياري ارتداء الحجاب، ففي النهاية القرار هو قراري كامرأة تحدد ماذا تريد أن تلبس. كلما ازداد

اضطراري إلى مقاومة الأفكار المسبقة لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المحجبة، زادت حاجتي إلى رجل يفهم لماذا لبسته، ويدعمني في اختياري هذا. أردته أن يريدني أن أرتدي الحجاب. أردت أن تكون له رؤية في مستقبل أفضل لمجتمعنا، وأن يفهم أن سبب اختياري الحجاب هو مجرد مساهمة صغيرة مني في هذا المستقبل.

إن التمسك بالأفكار التقليدية الحرفية للإسلام لن يغير حالة الجمود. لذا علينا أن نخلق إمكانات جديدة، ولفعل هذا كانت بي حاجة إلى شخص يملك الخيال الكافي لكي يحرر نفسه من الأفكار المسبقة التي تعيقنا وترجعنا جميعًا إلى الوراء.

* * *

لم يكن ارتدائي الحجاب قرارًا اتخذته ببساطة وتسرُّع. عندما اتخذت قراري بارتداء الحجاب فعلت ذلك لأنه كان «تحصيل حاصل»؛ فأنا أتردد على المسجد بشكل دائم، وأقرأ كثيرًا من الكتب الدينية، كما أنني قرأت القرآن، وزرت كثيرًا من الدول الإسلامية، وأديت مناسك العمرة. كنت منغمسة في إرادة العيش على النهج الإسلامي الكامل كجزءٍ من شخصيتي وتكويني، وقررت أن ارتداء الحجاب هو جزء أساسي ومكمل لهذه الرغبة.

وُصف ارتداء الملابس المحتشمة في القرآن بأنه مسألة تخص المؤمنين والمؤمنات. أنا مؤمنة بالله ومؤمنة بالقرآن، وكنت أُحتسب من بين المؤمنين والمؤمنات؛ لذا كان الأمر في غاية البساطة: كنت أؤمن بفكرة الحجاب، وكنت أريد أن أرتديه.

ترتب على هذا القرار تغير طفيف وتدريجي في خزانة ملابسي، فإحساسي بالملابس بدأ يتماشى مع إحساسي بالحجاب. مما يعني الاهتمام بطول الأكمام

وطول التنورة والوشاح الذي يلتف حول الرأس ليغطي الشعر والأذنين والعنق ويثبت تحت الذقن. لقد كنت متحفظة في التجربة مثل غيري من البريطانيات المسلمات. كان الحجاب لا يزال جديدًا على بريطانيا وعلى المسلمات اللواتي كن قد بدأن بارتدائه هنا. ولم تكن الأناقة هي الهاجس بقدر ما كانت مراعاة معايير الحشمة.

وقد كانت الخالات يضحكن وهن نصف محرجات ونصف فخورات بالملابس العصرية التي كن يلبسنها قبل أن «يفهمن» الإسلام.

قالت الخالات: «كان علينا الانتقال من منازلنا ودولنا الإسلامية حتى نفهم ديننا الإسلامي». لقد أصبح هذا الإحساس أكثر انتشارًا بين الأجيال المهاجرة التي وصلت إلى أوروبا. «هناك في البلد» كان من المفروغ منه أن الثقافة إسلامية؛ هذا مفهوم، ولم تكن هناك أسئلة عما إذا كانت أفعال الناس إسلامية أم لا، لكن وجودهم في موطنهم الجديد استوجب إعادة تقييم كل من تصرفاتهم: لم تعد هناك افتراضات بأن أي تصرف هو إسلامي في الواقع. عندما نشأ الجيل الجديد مثلي في بريطانيا، كان هناك تحدٍّ وتبرير لكل تصرف يأتي من بقايا الثقافات الأخرى، إذ لم يَعد كافيًا أن يبقى التصرف على «ما هو عليه». وهذا كان الجزء الأصعب بالنسبة إلى الآباء: التحديات التي يجب عليهم مواجهتها. لقد وجد الكثير منهم هذا النوع من التحديات تمردًا ضدهم، بينما هو في الواقع لم يكن كذلك. فالتحليل لم يكن يتناولهم كأشخاص، بل كان التفكير يدور حول ما إذا كانت هذه العادات إسلامية فعلًا.

عندما شرحت الخالات ذلك، كان هناك بريق يشع من عيونهن، فقد كن يتحدثن عن معاناتهن وتحدياتهن الخاصة. بدأت أفهم المحن التي واجهنها عند تغيير موقعهن الجغرافي وعيشهن في ثقافة مختلفة، وكيف بدأت القيم الاجتماعية والدينية التي اعتدن عليها بالتغير ضمن سياق بطيء لكنه ملموس.

أرادت بعض صديقاتي ارتداء الحجاب، لكن عائلاتهن لم تسمح بذلك، بل وصل الأمر إلى حد منعهن من ارتدائه. فالعائلات لم تكن تريد لبناتها أن يتحولن إلى «متعصبات»، ولم يكونوا يريدون الظهور في المجتمع وبرفقتهم ابنة أصولية «مجنونة».

اتفق دعاة ما بعد الحداثة مع الكثير من المسلمين التقليديين على شيء واحد، هو أن عبارة «الحركات النسوية» هي عبارة سيئة السمعة. لكنني أُعجبت على الرغم من ذلك بالصراعات التي خاضتها المرأة الأوروبية لخلق مجتمع أستطيع فيه أنا - المسلمة - أن أختار ارتداء الحجاب وأكون حرة في قراري. قرأت بعض المقالات حول رمي المشدات وإحراق حمالات الصدور وثورة التنانير القصيرة. إن المسائل التي طرحتها المرأة الأوروبية حينذاك هي نفسها التي تطرحها المرأة المسلمة الآن. مَن الرجل كي يفرض على المرأة ما تلبس؟ ولماذا تنخدع المرأة بالأفكار التي دفعت ثمنها مسبقًا، ولكنها لم تحصل عليها فعليًّا بعد؟ لماذا لا تُسمع أصوات النساء؟ كنت موافقة من كل قلبي على ضرورة أن تكسر النساء أغلالهن، وأن يحررن أنفسهن ويدخلن مجالات العمل والمساواة مع الرجل. لكمت الهواء بحماسة، ثم سألت نفسي بخنوع: هل أنا من مناصرات الحركة النسوية؟

كنت أجد تطلعات الحركة جذابة جدًّا. أعلم أنني، وبحكم نشأتي كطفلة في ثمانينيات القرن العشرين، لم أعانِ من التمييز والاضطهاد والصراعات والتضحيات التي عانت منها النساء من قبل، لكنني كنت أعاني فعلًا على يد الثقافة الآسيوية الإسلامية التي اتهمت الحركة النسوية الغربية بالضلال، كما قدمتْ تفسيرًا خاطئًا للإسلام لتتمكن من استعباد المرأة.

لقد تطرقت الحركات النسائية إلى أحد الجوانب التي طالما فتنتني، وهي: كيف تتصرف المرأة في مكان العمل؟ وما طريقة التصرف التي يجب أن تتبعها

لتؤخذ تصرفاتها على محمل الجد ولتترك أثرًا أكبر؟ في هذا المجال بالذات رأيت تقاربًا غريبًا بين الحركات النسوية الغربية والفكر الإسلامي. فكلاهما يدعوان إلى الاحتشام في اللباس كي يتم استيعاب المرأة لشخصها وليس لمظهرها.

أردت أن أساهم في الخطاب الاجتماعي حول النساء والرجال والمساواة بينهما، لكن المسلمات المحجبات اللواتي كن يلتزمن بالإسلام ويعتنقنه كقوة إيجابية لم يُسمح لهن بالكلام. وحدهن المسلمات اللاتي رفضن الإسلام علنًا تصدَّرن حلبات النقاش. لقد كنت من مناصرات الحركة النسوية لكنني كنت ممنوعة عن الكلام.

لقد أشارت النقاشات العالمية الدائرة حول حقوق المرأة إلى الحجاب باعتباره اضطهادًا للمرأة، وإشارة إلى وضعها في الدرجة الثانية اجتماعيًا. إن إكراه المرأة على ارتداء الحجاب خطأ في رأيي، لكن حقيقة أنها مجبرة على ارتدائه ليست هي المشكلة في حد ذاتها، بل هي مؤشر لقضية أخطر، هي انعدام المساواة. الإسلام لا يعترف بانعدام المساواة بين المرأة والرجل، فهو يطرح قيمًا وجدارة متساوية لكلا الجنسين اللذين خلقهما الله متساويين.

ويُحاسَب الرجال والنساء كلٌّ حسب فضائله وحسناته وما عمل من حسنات أو سيئات. لقد كنت متأثرة فعلًا بالآية القرآنية التي تقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (الأنعام: ٩٨). وليس من الضلع الأيسر للرجل، وليس في الدرجة الثانية. الرجال والنساء خلقوا من نفس واحدة وهم متساوون في الخلق والحقوق. كل شيء آخر يجب أن يفسر ضمن هذا السياق، مما يعني أنه إن كان هناك عدم مساواة في التفسير أو الممارسة فعلينا أن نعود إلى هذا الجوهر بالذات، وأن نعيد التفكير في وضعنا ومكانتنا. كل شيء في فهمنا كمسلمين يجب أن يرتكز على روح الآية الكريمة: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾.

شعرت أنه إذا تفحص المسلمون وغيرهم أفكار الإسلام عن الرجال والنساء والمساواة بدقة، فستنشأ أفكار كثيرة وتتطور لتُحسن من وضع المرأة حول العالم. بعد أن نضجت وتقبلت إيماني وثقافتيَّ الآسيوية والبريطانية، شعرت أن ذلك أعطانا، أنا ومثيلاتي، منظورًا فريدًا في التفكير. كنت أريد أن أحدث فرقًا.

في التصور عن الجنس الذي يقدمه الإسلام، هناك موضوع أحبه أكثر من كل شيء، هو القيمة التي وضعها «للنسائيات». شعرت أن أدوار المرأة كزوجة وأم وراعية ومربية كانت بحاجة إلى المزيد من التمييز والتقدير. وعلى الرغم من أن الحركات النسائية قطعت شوطًا كبيرًا في إعادة التوازن إلى المساواة بين الجنسين، إلا أنها تبدو - وفي حالات كثيرة - وكأنها تفتح الأبواب أمام النساء ليفعلن بعض الأشياء الذكورية. إنها بحاجة الآن إلى إعادة بعض القيمة للمواصفات الأنثوية الموروثة. كنت أشاهد بعض البرامج التي كانت تظهر فيها بعض النساء وهن يعرفن عن أنفسهن بأنهن «مجرد ربات بيوت»، أو «مجرد أمهات». أنا أعرف تمامًا ماذا تعني كلمة الأم، وأعرف كم عانت أمي في تربيتي.

حين أفكر في أمي وفي وضع كل الأمهات أتذكر قول الرسول محمد ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات». كل ما يحلم المسلم بالوصول إليه هو هناك، بانتظارهن. وقد جاء في القرآن أيضًا أنه يجب على الابن ألا يقول لوالديه «افٍّ» أو ينهرهما كاعتراف بفضلهما وجهودهما ومعاناتهما في تنشئة الأبناء وتربيتهم. والأكثر تأثيرًا هو قول النبي محمد ﷺ حين سئل مَن أحق الناس بحسن صحابتي فقال: «أمك»، ثم... «أمك»، ثم... «أمك»، ثم... «أباك».

أمي هي أقرب البشر إلى قلبي وأنا أعرف أنها تحبني أكثر من أي شخص اخر في العالم. تعرف حين أكون تعيسة أو وحيدة أو متألمة حتى من دون أن

تسألني، ودائمًا ما تقدمني على نفسها، ودائمًا ما تدعو لي بالسعادة، وبأن أحقق أحلامي.

وعندما كبرت وانطلقت في رحلة البحث عن الزوج ورحلة اختبار الحياة والدين، كانت تسافر معي وقد كبرنا معًا. لقد شاركتها تجاربي وهي شاركتني تجاربها. كانت تجلس على الكنبة وأنا أستند برأسي على حجرها وهي تداعب شعري. لا يهم كم كان عمري عندها، فقد كان ذلك المكان هو الأكثر راحة وأمانًا وحبًّا بالنسبة إليَّ. حتى لو تزوجت فإن الحب بين الأم والابنة يبقى دائمًا مختلفًا، ولا يعوض عنه حب الزوج. كأم وابنة تشاركنا رحلة أفراح وآلام العيش في هذا العالم كنساء، وتشاركنا في أكثر اللحظات حميمية في حياتنا.

أمي تعيش وتتنفس عطاءً لزوجها وعائلتها والتزامًا بهم. أنا لم أرَ شخصًا مثل أمي في ابتسامتها وصبرها وقناعتها وهدوئها في وجه المحن. إنها بطلة صامتة، كما هي معظم النساء.

أمي تناديني «هيرو»، وهي كلمة تعني بالـ«جوجاراتية»: «الألماسة». إنها بطلتي وإلهامي في كل ما أفعل. إذا أصبحتُ نصف ما هي عليه فإني سأكون قد حققت أكبر نجاح في حياتي كامرأة.

ضد القمع

كانت لديَّ مشاكل مثل الجميع. لا يزال عليَّ اكتشاف طريقي في الحياة والدين والروحانية وإيجاد التوازن بين العمل والحياة، والتقاليد والحب. كنت إنسانًا طبيعيًّا يحاول شق طريقه في الحياة. وعندما كانت الأمور تصل إلى التعليب والتنميط واللصاقات، وإلى أفكار الناس بخصوص «هكذا هي الأمور دائمًا»، و«هكذا يجب أن تكون، لأنها لا بد وأن تكون هكذا»، كانت حقيقة بسيطة واحدة في هذا الخضمِّ تبدو واضحة أكثر فأكثر: لم تكن المشكلة فيَّ أنا.

قالت الخالات والخَطَّابات لأمي: «يجب على شيلينا أن تكون أكثر مرونة».

سألتُ أمي في حيرة: «ما معنى أكثر مرونة؟»، ألم أقابل شخصًا جعل مني أضحوكة، وأتى متأخرًا ساعتين على الموعد لأنه شاهد مباراة كريكيت، وآخر ادعى أن صاعقة مسحت أرقام اتصالي من حاسوبه؟

قالت أمي: «هناك عريس، إنه شاب مناسب جدًّا، خريج أكسفورد وعمله ممتاز في المدينة. هو من عائلة طيبة، وأذكر أن والده كان رجلًا وسيمًا جدًّا في شبابه. أمه أيضًا جميلة، لذا أتوقع أن يكون وسيمًا على الأرجح. لقد أخبروني

بأنه لم يكن متدينًا جدًّا، لكنه أصبح مهتمًا أكثر فأكثر بالإسلام، ويقول إنه يجب أن يتزوج من امرأة متدينة».

أجبت: «هذا يبدو واعدًا جدًّا. إذًا يجب أن نقابله، أليس كذلك؟ يبدو أن هذا هو أفضل عرض حصلنا عليه منذ فترة لا بأس بها». ظهرت علامات التشجيع والتفكير على وجه أمي.

سألتها بتردد: «ما المشكلة الآن؟» بعد تعلقي بالتفاؤل والأمل في المقابلات واللقاءات العديدة التي أجريتها، تعلمت أخيرًا أن أواجه فكرة العريس اللقطة منذ البداية. وعندما لاحظت نفسي وأنا أفعل هذا حاولت أن أضع حدًّا لتشاؤمي المتزايد وأن أبقى إيجابية. لكن ومع ازدياد المقابلات المؤلمة وتناقص الخيال والأمل باللقاء السعيد استنتجت أنه من الأفضل أن أواجه الحقيقة المرة وهي أن هناك دائمًا عيبًا ما. وفي النهاية ألم يكن الهدف من الترتيبات ولقاءات التعارف هو أن نفكر بعقلنا وأن نأخذ قرارًا منطقيًّا عما إذا كان الواقع سيدعم المشاعر والأحاسيس التي يثيرها شخص ما داخنا؟

تابعت: «هو لا يريد فتاة محجبة». لقد سمعت هذا من قبل. طبعًا الجواب البسيط الذي يمكن أن أعطيه هو: دعوه يقابل نساء غير محجبات إذن. هذه هي الخطوة التالية الواضحة في هذا السيناريو. هذا كل ما قلته لأمي التي نصحتني: «ربما يجب أن تفكري فيه. إنه يملك كل المواصفات المطلوبة، فهو ذكي وله نظرة تقدمية عن الحياة، وهو نشيط واجتماعي وعائلته منفتحة جدًّا وسهلة المعشر، وهي صفات يصعب وجودها عند الآخرين».

كان تحليلها صائبًا، لأني كنت فعلًا أجد صعوبة كبيرة في العثور على هذه الصفات. تنهدت وقلت: «ماذا تقترحين؟» لقد مررنا بهذا من قبل، التعرف على رجال حددوا تمامًا أنهم لا يريدون الزواج بمحجبة، على أمل أو على سبيل المجازفة المحسوبة بأن يغير رأيه حين يرى حسني المنقطع النظير وشخصيتي

الساحرة، وهو سرعان ما سيقول «نعم» بافتتان المأخوذ بروعتي وقدراتي الخارقة. لكنهم كانوا دائمًا يقولون «لا».

قالت أمي بصوت عالٍ: «إنه ليس اقتراحي أنا، إن الخالة طلبت مني أن أذكر لك هذا؛ كي تضعيه في حسبانك. عليَّ أن أعطيك الخيار كي تقرري».

«لا أريد الجلوس أمام رجل آخر يقيِّم جمالي، ويعطيني درجة من عشرة، ثم يقرر ما إذا كنت جميلة بما يكفي لأكون الزوجة الغنيمة، أو أن يحكم على ملابسي إن كانت عصرية أو أنيقة كفاية للتعويض عن حجابي.»

كان هناك نوع من السخرية الحلوة المُرَّة في اقتراح خلعي الحجاب، لقد كان طلب خلعي الحجاب هو القمع بعينه.

«تقول الخالة إنه لا يمانع أن تلبسي الحجاب فيما بعد، بل إنه في الحقيقة يقول إنه على الأغلب سيطلب منك ارتداءه فيما بعد، فهو معجب بفكرة اهتمامك بالدين ويظن أنه قد يتعلم منك الكثير.»

«إذًا، أنا لا أفهم ما المشكلة.»

«قبل أن يصل إلى تلك المرحلة هو يسألك إن كنت تمانعين في خلع الحجاب الآن...»

جحظت مقلتاي فارتطمتا بالجدار، ثم تدحرجتا على الأرض. حملتهما وأعدتهما، وتركتها تتابع حديثها. أكملت أمي: «لمدة سنة».

«واو» لقد صُعقت. هل هي مساومة سيتنازل لها الأمير؟

«دعيني أتأكد مما فهمت، هو يريدني أن أتوقف عن ارتداء الحجاب لمدة سنة على الرغم من أنه يعتقد على الأغلب أنه الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله، ويعلم تمامًا أنه جزء من ديننا؟»

«نعم.»

هذا محيِّر حقًّا. والمحيِّر أكثر هو أن والديه ناقشا هذه المسألة معه ومع الخالة، واتفق الجميع على أنه مُحِق في طلبه هذا. فمن أجل تزويج الولد كانوا مستعدين أن يطلبوا من فتاة أن تتوقف عن فعل شيء يعلمون جميعًا أنه الشيء الصحيح، وأرادوا أن يُظهروني أنا بمظهر المرأة السلبية، غير المرنة وكأني أفتقر إلى الكياسة والتفهم، ولا أرغب في إظهار الالتزام بجوهر فكرة الزواج إن لم أمتثل لمطالبهم. إن بدا الأمر مزعجًا فلأنه فعلًا كذلك، مزعج حقًّا.

لقد اتخذت خياري بشأن الدين، وبشأن الحياة التي أريد أن أحياها بإرادتي الحرة. ارتكزت في قراراتي على التفكير العميق واقتناعي بما هو صحيح. علمت أنني لست مضطرة أن أشكِّل إيماني ليتناسب وأهواء الأعراف الاجتماعية والثقافية. ولم أكن مضطرة لقبول الورقة الرابحة التي تنادي بتفوق الوضع الاجتماعي للشاب وللزواج مهما كان الثمن.

الزواج مهم، لكن من المفترض فيه أن يكمل لي ديني، لا أن يدمره. لقد غيَّرتُ عالمي الخاص، وهذا يعني أنني كنت مستعدة أن أقاوم وأغيِّر العالم نفسه. ابتسمت لأمي، وفي هذه اللحظة تحول عبوس أمي القلق إلى ابتسامة متآمرة، ثم إلى ابتسامة كبيرة فخورة بابنتها التي ربَّتها، واستطاعت أخيرًا أن تدعو الأشياء بأسمائها. هي لم تكن تريد من ابنتها ومن نفسها كامتداد للابنة أن تُروِّع بعادات عفا عليها الزمن، تشمل تحكم الشاب وعائلته بكل مفاتيح اللعبة، كما تشمل تقدمهم بطلبات غير منطقية يخالفون فيها معايير الدين.

ألقيت باللوم على حارسات البوابة، الحموات والخالات والخَطَّابات، فالمفترض فيهن مراعاة قدسية الزواج. لقد أخبرن الفتيات أنه من الضروري التغاضي عن الأمور السطحية، وأن الحب ينمو مع الوقت، وأن الزواج هو مسألة أخذ وعطاء. لقد أخبرننا عن ضرورة التقيُّد بالدين والتمسك بالإيمان،

وها هن الآن يشجعن الشبان على التحكم في ممارسة الفتيات لدينهن، ومحاولة ردعهن عن ذلك.

«إذا كانوا يريدون مني التوقف عن ارتداء الحجاب فعلًا، وهو الأمر الذي اتفقوا عليه جميعًا، أظن أن عليكِ أن تخبريهم أنني سأفعل ذلك عن طيب خاطر إذا قبلوا بتحمُّل وزر توقفي عن الصلاة والصوم في رمضان أيضًا لمدة عام!»

الباب السابع

الحب

من نفس واحدة،

خَلَقْنا زوجَين

سافرت مع صديقاتي في رحلة إلى الأردن ومصر في أواخر الصيف. كنت سعيدة جدًّا؛ فمصر تقع في الوسط بين الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وهي مهد الحضارات الإسلامية التي استمرت مئات السنين. كنت متشوقة لرؤية عمارتها، والتجوال في أسواقها الشهيرة المكتظة. يعود تاريخ مصر إلى الحضارات المصرية القديمة التي جاء ذكرها في قصص التوراة والإنجيل والقرآن؛ قصص يوسف وموسى عليهما السلام. حلمت منذ طفولتي برؤية الأهرامات، والسير على الرمال التي شهدت عظمة الفراعنة ومعركة العلمين وبناء قناة السويس. ولم أكن توَّاقة لمشاهدة التاريخ فحسب، بل أردت اختبار جمال مصر الطبيعي أيضًا، والسفر عبر صحاريها الواسعة، وركوب قارب على النيل عند الغروب - النيل الذي هو شريان الحياة في هذه الدولة العظيمة. كنت أشعر بالارتباط بمصر من خلال نهر النيل، لأنه ينبع من حدود تنزانيا، موطن والديَّ. لقد شاهدت بأم عيني من نافذة الطائرة في أسفاري إلى أفريقيا الشرقية كيف حوَّل ماء النيل الصحراء إلى أراضٍ خضراء، وكيف كان يتلوى كثعبان أخضر.

أمضينا عدة أيام في القاهرة، وعلى الرغم من دوامة الأنشطة التي تعجُّ بها المدينة وعظمة النيل الذي يسيطر على وسطها، إلا أن أكثر ما لفت انتباهنا فيها هو كثرة طلبات الزواج التي عُرضت علينا. كنا في نهاية كل يوم نجلس لنطابق عروض الزواج ونقارنها. لقد حصلنا على الكثير من العروض من سائقي التاكسي الذين كانوا يمضون الرحلة في شرح أهمية عرضهم للزواج. كذلك حصلنا على عرضين من أصحاب حوانيت، وحفنة عروض من مالكي الأحصنة التي ركبناها للتجوال في المناطق الأثرية.

كان سليمان يمتلك شركة سياحية توفر الجياد والمرشدين للسياح من أجل التجوال في الأهرامات. أخذنا نحن الأربعة أربعة أحصنة، واختار سليمان أن يمسك بحصاني ويرافقني مترجلًا. كانت هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها حصانًا، وكنت أتساءل ماذا سأفعل إذا قرر الحصان الانطلاق فجأة. ضحك سليمان من أعصابي المدنية الضعيفة وقهقه على السائحات الناعمات اللواتي لا يستطعن فعل شيء بسيط مثل ركوب حصان. كانت حوافر الجياد تضرب الرمل بنغم إيقاعي، وسرعان ما تحولت النقاط الصغيرة البعيدة إلى أهرامات عملاقة. تابعنا السير بجانبها وبجانب السياح المحتشدين، ودرنا إلى الجانب الآخر، بينما كانت الشمس تغيب عند خط الأفق. وشاهدت انعكاس الشرائط الحمراء الحارة في السماء على الرمل.

توقفنا مباشرة بجوار الأهرامات، وانتظرنا الغروب، ونحن ننظر بإعجاب إلى المنظر التاريخي أمامنا. اجتهد سليمان في أداء واجباته لنتمكن من الاستمتاع بالمنظر إلى الحد الأقصى.

ثرثرنا عن السياح والحياة في القاهرة وعمله ولندن، ثم فجأة ومن دون تشجيع مني نظر إلى عينيّ مباشرةً وقال: «أنت جميلة».

قلت: «شكرًا» بتلعثم، وصمتُّ. تمايلت في السرج بينما تقدم الحصان ليشرب من بركة ضحلة.

تابع: «عملي جيد، لديَّ الكثير من الأحصنة».

أجبته من دون اهتمام، وأنا قلقة من المنحى الذي سيأخذه الحديث: «هذا جميل».

«وكثير من الجِمال أيضًا».

قلت من دون حماسة: «هذا جيد جدًّا»، وحاولت تثبيت نظري على الأهرامات. مشى سليمان إلى الأمام ثم عاد بعد لحظة ومعه حصان آخر. امتطاه، كان غير مرتاح في أنه يمشي وأنا أركب، الآن أصبحت عيناه بمحاذاة عيني ولا يفصلنا إلا الحصانان المدربان.

«أليس هذا رائعًا؟» توقف ونظر ورائي. «ألا يرغب المرء بارتياد هذه المملكة واكتشافها كل يوم؟».

فكرت في اقتراحه. بعيدًا عن لندن الممطرة باستمرار، وبعيدًا عن التنقل اليومي في القطارات القذرة المزدحمة التي ينزل منها المرء إلى عمل مكتبي روتيني، ينتقل فيه من مكتب إلى آخر. إذا كانت الأمور دومًا هكذا، فهذا لا يعني أن عليها أن تستمر. لماذا أنتظر حتى يتجعد وجهي، وتقصم هموم الحياة ظهري؟ لِمَ لا آخذ إجازة طويلة أمضيها في بلد ينعم بالطقس الدافئ الجميل، وألقي عن كاهلي كلَّ هذه الأعباء التي تقيِّدني؟ لماذا لا أبدأ الاستمتاع من الآن؟ كنت قد بدأت أطرح على نفسي بعض الأسئلة الصعبة والغريبة كل يوم، حول ما كنت أبحث عنه فعلًا في شريك الحياة. كان يجب أن أبدأ بطرح النوع نفسه من الأسئلة الغريبة حول طريقة حياتي.

«لديَّ ٢٠,٠٠٠ جمل.»

أريته خاتمي، على الرغم من أنه كان في اليد الخطأ، لكنني تركته يستنتج أنني كنت متزوجة أو مخطوبة على الأقل.

لو كنت أعرف حينها أن ثمن الجمل هو ألف جنيه إسترليني تقريبًا فلربما كنت وافقت، أم ماذا؟ هل أمضيت كل هذه السنين وأنا أبحث عن شخص يكملني ويمسك بيدي في طريق الروحانية، كي أستسلم في النهاية وأرتبط بغريب معه سلة من المال؟

رفضت الفكرة بسرعة، فهناك أشياء أخرى كثيرة تدخل في الاعتبار كالعيش في بلد جديد وثقافة جديدة مع رجل لم أعرفه إلى أكثر من ساعة. رأيت المجازفات التي يعيشها الأشخاص الذين تقطعت بهم السبل في مكان غريب ووجدوا أنفسهم محاطين بالأغراب من كل حدب وصوب. والأهم من ذلك تُرى أيمتلك هذه الثروة الطائلة كما يدَّعي بالفعل؟ وهل هو صادق في طلبه؟ لقد سمعت قصصًا مرعبة كثيرة حول هذا الموضوع.

في دكان ورق البردي أعجبت بتنوع الهدايا التذكارية السياحية المصنوعة من النباتين اللذين يعتبران أشهر رموز مصر الفرعونية، القصب والبردي، هذا الورق البديع المرسوم المثالي للهدايا بخفة وزنه وصغر حجمه ورخص أثمانه. وجدت نفسي أتصفح الرسوم المختلفة وحدي، لكن ليس لفترة طويلة؛ إذ تقدَّم أحد الموظفين لمساعدتي ومن دون تردد تحدث معي بمشاعر صريحة قائلًا: «أنت جميلة».

ها نحن من جديد، فكرت، وتابعت النظر إلى ورق البردي. «لا بد أن الرجال في البلد الذي تعيشين فيه قد فقدوا البصر، كي لا يشاهدوا روعة جمالك».

وقفت وحدَّقت في رسم تقليدي لشجرة الحياة.

«سأدافع عنك وأعتني بك. سأريك كيف يتم تقدير امرأة مثلك. يجب أن يصحبك رجل يعاملك كأثمن جوهرة يمتلكها. لن أتركك وحدك هكذا أبدًا، سأحمل حقائبك وأعتني بك حيثما تذهبين.»

كان خطابًا فصيحًا ومؤثرًا. ابتسمت وفتحت فمي عدة مرات لأتكلم، لكنني لم أجد الكلمات المناسبة. ماذا يقول المرء أمام مثل هذه المشاعر الفياضة؟ ما الذي كان يدفع هؤلاء الرجال إلى التقرب منا بهذه الطريقة المباشرة؟ ربما نظروا إلى الأمر كلعبة إحصائية، وفكروا أنهم لو طلبوا الزواج من عدد كبير من النساء فلا بد أن تصيب مرة. أم إننا كنا هدفًا سهلًا مما يجعل من الممتع لهم مزج العمل بالتسلية؟ من المحتمل أننا كنا مجرد تمضية للوقت بالنسبة إليهم، وربما كانوا يضحكون فيما بينهم على تلك السائحات الساذجات البسيطات.

تساءلت ماذا لو أجابتهن واحدة منا بالإيجاب، تُرى هل كان سيتزوجها فعلًا ويبقيها في مصر، أم ينتقل الزوجان الجديدان للعيش في لندن؟ كانت لدينا شكوكنا، لقد افترضنا أنهم كانوا يجدون جوازات سفرنا أجمل منا. ونرى أن الحب استُخدم في هذا السياق كلعبة. هل يأتي هذا كله من ضمن الخدمات السياحية؟ وعلى الرغم من تذمرنا من الاهتمام غير المرغوب فيه، تساءلنا إن كانت الزائرات يستمتعن بالإطراء والمديح. لم أحظَ بمثل هذا الكم من الغزل من قبل، ولم يتقدم إليَّ هذا العدد الهائل من العرسان في مثل هذه الفترة القصيرة. إن ما يفعله هؤلاء الرجال هو تقديم العرض، ثم تغذية اعتقاد النساء بأنهن مرغوبات ومهمّات. لقد تركنا مديحهم يصل إلى رؤوسنا مما أماط اللثام عن الحقيقة المرة. لقد كنا نشعر بأننا أفضل منهم لأننا من الغرب.

جعلتني كلماتهم أتوقف وأتساءل عما إذا كنت أغالي في عدم تصديق دوافعهم. هل كنا ننظر إليهم كرسوم هزلية؟ أردت أن أعرف ماذا يكمن خلف هذه الدعابة المرحة. قررت أن أضع حدًّا لتملقهم وأسألهم مباشرةً عن

حياتهم، وأتكلم معهم كأشخاص يهتم أحدنا بمعرفة الآخر. وقد فوجئوا باهتمامي. وعندما تكلموا ثارت مشاعرهم حول الحياة التي يعيشونها، ومعاناتهم في كسب العيش وعائلاتهم وطموحاتهم. وقد وصفوا بكثير من الشغف حبهم لبلدهم ورغبتهم بجعلها مكانًا أفضل.

تابع مساعد الحانوت التحدث معي: «أنا مسلم أيضًا وأبحث عن زوجة متدينة. إن كنتِ من لندن وترتدين الحجاب هناك فلا بد أنك قوية. لا بد أن الأمر صعب عليك».

التفتُّ لأنظر إليه. لقد تغيرت نبرة الحديث، فقد أصبحنا شخصين نخوض الرحلة نفسها ويتعلم أحدنا من الآخر. لم أعد فريسته، بل ها هو يدعوني للتواصل معه بجوهري الذي هو ديني. إن هذه هي قوة الإحساس بالأمَّة الذي غرسه الإسلام في نفوس المسلمين. الأمة هي إحدى الأفكار الأساسية التي قام عليها الإسلام، وتعني الانتماء إلى أمة واحدة مؤلفة من أشخاص يتشاركون الإحساس بالجماعة والألفة في أي مكان من العالم.

ابتسمت له وأنا أقول: «هل تعلم أن هناك ما يقارب من مليونَي مسلم في بريطانيا؟ إننا محظوظون، فأنا أستطيع ارتداء الحجاب إلى الجامعة وإلى العمل. كما نستطيع أن نصلي ونصوم ولدينا مساجدنا الخاصة».

«حقًّا؟» دُهش وتأثر من كلامي. «أحيانًا نتمنى لو كان لدينا مثل هذا النوع من الحرية هنا. علينا أن نكون حذرين فيما نقول، إذ من السهل التورُّط في المشاكل، خصوصًا إذا كان المرء متدينًا».

لقد سمعت قصصًا مشابهة في بعض الدول الإسلامية الأخرى أيضًا: ففي سوريا نادرًا ما يتكلم الناس في السياسة مع الأغراب، وفي تونس حاولت الحكومة منع الصوم في رمضان، وقد عبَّر لنا التونسيون الذين قابلناهم عن

استغرابهم من رؤية امرأة مثقفة ترتدي حجابًا، لأن ارتداء الحجاب ممنوع في الجامعات التونسية. حتى إن بعض الرجال همسوا في آذاننا أنهم حين يذهبون إلى صلاة الجمعة في المساجد فإنهم يعرضون أنفسهم لخطر السجن. وفي السعودية قابلت امرأة بكت وهي تتحدث عن صعوبة الحياة بالنسبة إليها، وعن توقها للحرية التي أتمتع بها أنا في ممارستي الحرة للدين. شعرت بنوع من المسؤولية وبضرورة استخدام حريتي لتغيير الأوضاع التي يواجهها هؤلاء الناس.

عاش معظم المسلمين قبل مائة عام في مناطق محددة ومعروفة من العالم. ومع سقوط كل الإمبراطوريات التي سيطرت على العالم، وأيضًا مع التغييرات التي نشأت عن السفر وأنماط الهجرة والاقتصاد العالمي، تغلغل المسلمون في مجتمعات العالم كلها وأصبحوا جزءًا منها. عائلتي هي مثال على ذلك. إن اتساع ذلك الوجود والمساهمة الكبيرة التي قدَّمها المسلمون إلى الدول التي استوطنوا فيها، لم تكن معروفة للمسلمين الذين بقوا في المناطق الإسلامية الأصلية؛ لذا فلا عجب أن يندهش مسلمو قلب العالم الإسلامي القديم من الانتشار الواسع الذي حققه المسلمون حول العالم.

أخبرني ووجهه يتألق فرحًا: «سأذهب إلى الحج هذا العام إن شاء الله». الحج هو حلم كل مسلم للقاء ربه ولو مرة واحدة في العمر، إنها رحلة مكة. وأنا أيضًا أود الذهاب لأختبر هذا الركن من أركان الإسلام الذي غيَّر حياة كثيرين.

قلت: «سأدعو لك كي تذهب إلى هناك وتعود سالمًا». الدعاء أفضل هدية أستطيع تقديمها إليه.

لقد نُصحنا دائمًا بالابتهال إلى الله كي يمنح الآخرين الأشياء التي نرغب فيها نحن، لأنهم في تلك الحالة يدعون لنا بدورهم فنحقق رغباتنا. «وسأدعو لك أيضًا كي تجد زوجة جميلة ورائعة».

أجابني: «شكرًا لكِ يا أختي، وأنا سأدعو لكِ أن تذهبي إلى الحج أنت أيضًا، وأن تجدي زوجًا صالحًا». تأثرت للغاية بدعائه الصادق لي بالحج، كما دلني استخدامه لكلمة أختي على تغير في النبرة، ومزيد من الاحترام. لقد جعلتني هذه الكلمة أشعر بالأمان والترحيب.

أُجبرت هنا في القاهرة على سؤال نفسي عما إذا كان كل هذا الوقت والجهد والجدية في البحث المستحيل عن الرجل الكامل يسير في الاتجاه الخطأ. ربما تكون حقيقة الحب أكثر دنيوية في أساسها ولا تشبه التوقعات الوردية المثالية التي وضعتها في خيالي، وربما طاردت حبًا رومانسيًا بعيد المنال. من لديه الوقت لذلك؟ كما قال إمام المسجد: «الحب يأتي بعد الزواج، لا يُعرف معنى الحب الحقيقي إلا بعد الالتزام بعهد الزواج».

إذا كان الحب يزدهر بعد أن تصبح العلاقة رسمية، إذًا وبدلًا من التركيز على مرحلة «العثور» يجب أن يكون التركيز على مرحلة «العلاقة». يجب أن يكون هناك بحث وتدقيق أقل كي نتمكن من ادخار الجزء الأكبر من الطاقة للمحافظة على العلاقة وإنعاشها بعد الزواج، وعلى دمج العائلتين معًا، وجعل الزواج مؤسسة مفيدة للمجتمع. وفي هذه الحالة سيكون طلب الزواج أمرًا سهلًا وسريعًا ومباشرًا، كما هي الحال في مصر. لا يجب أن يكون هناك خجل من الفشل في العثور على شريك. إن الالتزام الرسمي كان هو نقطة الدخول إلى قصة الحب الحقيقية.

كان يجب أن أتعلم من كل لقاءات التعارف أن الحب يكمن في أغرب الأشخاص والأمكنة. حتى لو لم أجد الحب هنا في مصر، فهو مع ذلك

موجود، لكن بأشكال مختلفة، أشكال تتناسب مع الشعب والمجتمع. هل يختبئ الحب في أزقة الأسواق الضيقة؟ مهما كان التراث والثقافة التي وجد الحب نفسه فيهما، فإنه موجود في جوهر كل حالة إنسانية. الحب هو الشرارة التي تشعل الروح، والحب أيضًا هو ما يُبقي جذوتها مشتعلة.

* * *

عندما عبرنا الحدود إلى الأردن، مررنا في طريقنا بالبتراء، الموقع الغامض لفيلم «إنديانا جونز وغزاة الكنز المفقود». تنهدت: ليت «إنديانا جونز» كان معنا... كنت أحبه حبًّا أبديًّا، بنظراته الرجولية المؤثرة وفروسيته الجريئة. من كان يستطيع أن يقاوم الذكاء الواسع لأستاذ التاريخ وعلم الآثار الذي كان يعيش حياة مزدوجة كمغامر محتال من ثلاثينيات القرن الماضي؟

كانت البتراء تقع على مفترق طريق القوافل التجارية منذ آلاف السنين. وقد استوطنها الناس منذ عصور ما قبل التاريخ. كنت أتخيل هذا المِفصل التجاري المهم وهو يعجُّ بالمسافرين الذين نقلوا مهاراتهم وبهاراتهم بين الصين والهند والجزيرة العربية ومصر واليونان وروما.

للوصول إلى «المدينة الوردية» كان علينا أن نشقَّ طريقنا ببطء عبر النفق، وهو ممر مظلم وضيق طوله حوالي الكيلومتر ونصف، وكان عرضه أحيانًا لا يزيد على ٣-٤ أمتار فقط. كانت الجروف الطينية الملونة ترتفع بشكل مخيف إلى السماء، تاركة بقعًا صغيرة من الضوء تتسلل إلينا، بينما نتصبب عرقًا في سعينا إلى الخروج من الممر الضيق. وعلى الرغم من أننا بدأنا السير في الساعة السادسة والنصف صباحًا، إلا أن الحرارة كانت قد وصلت إلى حد لا يُطاق. ضاق الممر الذي نسير فيه أكثر، وارتفعت الصخور البرتقالية على الجانبين إلى ارتفاعات أعلى، واتسع الممر أخيرًا ودُفعنا إلى المدخل.

كنا عند بوابات المعلم التاريخي في الساعة السابعة صباحًا. نظرنا حولنا لما بدا وكأنه قرية مكتظة بالناس. تجمع الكثير من السكان المحليين في مقاهٍ صغيرة حول حشد من السياح الصاخبين. امتدت ظلال طويلة حول الطاولات المنخفضة والكراسي المصفوفة على الطراز العربي التقليدي لخدمة الزبائن وتسليتهم. كانت المقاهي فارغة في هذا الوقت من النهار، إذ ركز المسافرون على استكشاف الآثار التاريخية للبتراء. امتلأت المقاهي بالزبائن الجائعين لاحقًا في فترة ما بعد الظهر ومع اقتراب الغروب. مررنا قربها فأومأ إلينا السكان بالتحية في إشارةٍ إلى أنهم لاحظوا وجودنا.

انفرجت الصخور وشكلت حلبة واسعة مفتوحة، وانتصب أمامنا بناء شاهق يزيد طوله عن ٤٠ م. نصف البناء كان مبنيًّا والنصف الآخر محفور في الصخور الصلبة. وخلف ذلك استطعنا أن نرى منازل كاملة وصروحًا محفورة في الجبال احتفظت بتفاصيلها الرائعة على الرغم من مرور آلاف السنين على بنائها. نُحتت الصخور بأحجام متناسقة لدرجة أنها بدت وكأن غرفها قد تشكلت طبيعيًّا منذ وُجدت هذه الصخور. وأكثر ما أذهلني هو الإنسان الذي وقف أمام هذه الجبال المنيعة التي ترتفع آلاف الأمتار، وكان لديه الخيال والإبداع ليتخيلها كبيوت ومعابد وسراديب. كان مجتمع كامل يعيش في هذا المكان.

جاء في القرآن ذِكر لمكان يعتقد أنه البتراء، وأنه كان موطنًا لقوم «ثمود»؛ إذ جاء في الكتاب: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر: ٨٢). ومن منا لا يشعر بالأمان وهو معزول في هذا الوادي تحت حماية هذه الجبال الأسطورية المهيمنة؟ عُرف قوم ثمود بمهاراتهم العالية في حفر الصخر، لكن القرآن وصفهم بأنهم أهملوا البحث عن معنى أعمق للإله. وقد بنوا نجاحهم بطرقٍ ماديةٍ خبيثة، غالبًا ما اشتملت على خداع الآخرين. وكانوا فخورين

جدًّا بالمكاسب المادية والمعمارية التي حققوها، واعتقدوا أن مجدهم سيكون أبديًا.

يحكي القرآن قصتهم ليعلم الناس الحكمة القائلة بأن المجد لا بد أن يزول إذا تكبر المرء وإذا عصى الله. تمثلت معصية قوم ثمود في خداع الناس وسلب أموالهم. ذكَّر القرآن الناس بضرورة السفر لرؤية بقايا الحضارات البائدة مثل حضارة البتراء، وعلى الرغم من أنني سمعت الكثير عن المكان إلا أن لا شيء يضاهي رؤيته رأي العين. إن التجوال في الموقع وملاحظة حجم العمارة عند الوقوف قربها جعل المسألة واضحة، حتى أعظم الإمبراطوريات يمكن أن يقضي الفساد عليها. ولا عجب أن القرآن شجع الناس على زيارة المعالم التاريخية، فما يُرى بالعين يرسخ في العقل.

قصة البتراء هي واحدة من قصص عديدة تكلمت عن صعود واندثار الإمبراطوريات، وعن الشعوب التي شيَّدت الأبنية الضخمة وظنت نفسها خالدة منيعة. كان فرعون من هؤلاء، رجل قتل آلاف الأطفال الأبرياء وبجبروته وادعائه الألوهية أراد أن يبني سلمًا لولبيًا يصل إلى السماء، كي يصعد ويقتل الإله فيها. لكني كنت كلما ذكرت قصة فرعون أجد نفسي مهتمة بزوجته «آسية بنت مزاحم» أكثر منه. فهذه كانت امرأة حقيقية.

منذ زيارتنا إلى مصر أخذت أفكر فيها كثيرًا. فقد كانت آسية أجمل وأذكى زوجات فرعون، ولهذا كانت أقربهن إلى قلبه. كانت الحضارة المصرية أعظم حضارات ذلك الزمان، مما يعني أن ملكتها كانت أقوى نساء الأرض. كان بإمكانها الاستمتاع بالرفاهية والمسرَّات والمكانة الاجتماعية التي لا تضاهى؛ فالعالم كله كان تحت قدميها. لم يكن ينقص آسية شيء، فهي ملكة مصر.

أعجبت بآسية لأنها رأت ما وراء الثروة والسلطة. وعلى الرغم من الموقع المميز الذي احتلته في قلب فرعون، إلا أنها عرفت أنه طاغية ومجرم، وعلمت أنه لم يكن يطبق العدالة والمساواة، وكان يقتل الأبرياء. ادَّعى فرعون أنه الله، لكنها لم تقبل ذلك، فغضب منها، إذ كيف تعصاه! لكنها تبعت قلبها الذي دلها إلى الحقيقة، ولم تتقبل ببساطة ما أخبرها به زوجها. اختارت أن تؤمن بالخالق المعز، الإله الواحد. كان إيمانها أن الإله هو الحقيقة، وأن المبادئ التي تخرج من الحقيقة كالعدالة والمساواة والاحترام هي المبادئ التي يجب أن يسير عليها الناس؛ لذا تحدَّت فرعون ولم تقبله ولا أساليبه الملتوية.

صلَّت تقربًا لله الذي لا يحده زمان أو مكان وقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ (التحريم: ١١).

وعلى الرغم من هيام فرعون بها حبًّا إلا أن كبرياءه أجبرته على الحكم بالإعدام عليها لتحديها له، ولإيمانها بالإله الواحد، ونكران ألوهيته. كان يمكنها الاستمتاع بالحياة الملكية، وتجاهل الطريقة التي حكم بها فرعون البلاد. توسل إليها فرعون أن تغير رأيها، لكنها رفضت. أية زوجة كانت ستكون لو لم تنتقد أخطاء زوجها الشائنة؟ وأية زوجة ستكون إن لم تهب حياتها في سبيل الحقيقة والعدالة؟

ازداد احترامي لآسية عندما نظرت إلى الأبنية الشاهقة من حولي. لقد كانت ملكة مصر، ملكة الأهرامات، وبإمكانها الحصول على كل شيء، لكنها فضلت أن تتحدى أقوى رجال زمانها، وتخلت عن حبها وحياتها ومكانتها كي تأخذ موقفًا مناصرًا للإنسانية.

تنقلنا بين غرف الكهوف ونحن نعجب لجمال هذه المعابد والسراديب والحمامات وغرف المعيشة، ونفخر بزيارتنا لها أخيرًا، وحذف اسمها من

قائمة الأماكن التي لطالما حلمنا بزيارتها. تابعنا تنقلنا بين المواقع الأثرية ونحن نشهق بين الفينة والأخرى للبراعة الفنية التي بُنيت بها هذه المواقع حتى غابت الشمس وخفَّت حدَّتها، وبدأ الظلام يلف المكان.

بدأت الأنوار تُضاء وتلمع بشكل رومانسي في المقاهي عند الغسق. غرقنا في الضحك والإعجاب والاحتفال بهذه التجربة لدرجةٍ نسينا معها حلول الليل، وعندما وصلنا إلى البوابة كان الظلام قد خيَّم تمامًا. تجمع السكان المحليون في المقاهي للاستراحة بعد يوم من العمل الشاق. بعد مغادرة الزوار بدأ أهل البتراء يتصرفون على سجيَّتهم وتغيَّر الجو تمامًا، فاستطعنا رؤية الحياة المحلية الآن بدلًا من التمثيلية الهزلية التي تُؤدَّى أمام السياح في الصباح. تريثنا قليلًا ونحن نثرثر معهم ونرشف من شرابنا. «لا تستطيعون مغادرة البتراء في هذا الوقت». أخبرونا: «يمكنكن البقاء هنا إذا أردتن، ويمكن أن تغادرن في الصباح».

لم يكن يسمح للسيَّاح بالبقاء في البتراء، وكان السكان المحليون يعرفون ذلك. ومن خلال دعوتهم تلك كانوا يعرضون علينا نوعًا من المتعة التي لم يحظَ بها أي من الزوار الآخرين. ليلة مقمرة في البتراء التي بدت مليئة بالمغامرة والرومانسية!

قالوا: «تذوَّقن هذه المعجنات»، ثم سألونا: «هل ترغبن في بعض الشاي؟». هززنا رؤوسنا بالرفض ونحن غارقات في مناقشة إمكانية قبول عرض البقاء ليلة واحدة. لم تكن مجرد تجربة فريدة، بل كانت ستوفِّر علينا عناء العثور على وسيلة نقل تقلنا إلى وجهتنا التالية في هذا الوقت المتأخر من الليل. كانت البتراء بعيدة جدًّا عن أية مدينة، لنستطيع أن نجد فيها تاكسيًا أو باصًا.

تبادلنا كثيرًا من الهمس السريع بيننا نحن الأربعة، وأبقينا على خفوت أصواتنا حرصًا منا على الخصوصية، لكن العاملين في مضمار السياحة غالبًا

ما يكونون ماهرين في تتبع ما يقوله الآخرون بأية لغة كانت. فبدا أنهم نجحوا في متابعة حوارنا، حتى عندما كنا نتهامس أو نغمغم. وكانت تعابير وجوههم تتغير في كل مرة كنا نطرح فيها فكرة جديدة حول مزايا البقاء. التفتنا فجأة إليهم وواجهناهم قائلين: «حسنًا، وافقنا!».

استقرت الدهشة على وجوه الرجال. وبما أننا نحن الأربعة كنا نرتدي الحجاب وكان من الواضح أننا مجموعة من النساء المسلمات اللواتي وافقن للتو على تمضية الليلة في البتراء، فقد ظهرت ابتسامات واسعة على وجوه الرجال وبدأوا يلعقون شفاههم.

ابتسموا قائلين: «حسنًا، إذن لا شك أننا سنستمتع كثيرًا هذه الليلة». ثم انفجروا بالضحك.

في تلك اللحظة علمنا ما يجب علينا فعله: أن نغامر بتصرف مستقل وجريء شيء، وأما أن نعرض سلامتنا للخطر فشيء آخر. التفتنا ونظرنا بعضنا إلى بعض ثم التفتنا لنواجه الرجال وقلنا: «كلا شكرًا، لقد غيَّرنا رأينا!». أجبنا كلنا بصوت واحد كالجوقة، واستدرنا على أعقابنا، وركضنا خارجات من البوابة إلى أعلى التلة.

* * *

تكوَّمنا في الصباح الباكر في مؤخرة الشاحنة التي كانت ستأخذنا في جولة في الصحراء الأردنية. جلسنا أنا وسارة في الشاحنة المفتوحة تحت الشمس الحارقة في مواجهة شابين إنجليزيين وفتاة فرنسية. كانت هذه بداية الرحلة التي يقوم بها الشابان الإنجليزيان الأشقران عبر الجزيرة العربية، وكانا يلبسان قبعتي بيسبول وقميصين قطنيين واسعين وبنطالين قصيرين لحماية جلدهما الأبيض الذي لم تمسسه الشمس بسوء بعد. كانت الفتاة الفرنسية أيضًا في مثل

عمرنا تقريبًا، تلبس سروالًا قصيرًا وبلوزة مفتوحة. بينما ارتدينا أنا وسارة بنطالين عاديين من الكتان وقميصين بأكمام طويلة وحجابين أبيضين. لم يدُر بيننا أي حديث في البداية، بينما انطلقت الشاحنة في الصحراء لتتوقف بين حين وآخر وتفسح لنا المجال لمشاهدة التشكيلات الصخرية الغريبة. التقطنا عددًا من الصور وأطلقنا الكثير من الصيحات إعجابًا بالتضاريس البعيدة الغريبة وبحار الرمال غير المتناهية.

وأخيرًا سألت الفتاة الفرنسية «آن»: «ألا تشعرن بالحر بهذه الأحجبة على رؤوسكن؟».

«من الأفضل ارتداؤها في هذا الجو الحار، فقد نُصاب بضربة شمس من دونها». قالت سارة ذلك وهي تشير إلى الشابين اللذين غطيا رأسيهما بالقبعتين اللتين كانتا تحميان وجهيهما أيضًا من أشعة الشمس اللافحة.

تابعت «آن»: «لكن لا أحد هنا يجبركن على ارتدائها».

أجبتها: «نعم لا أحد يجبرنا على ارتدائها، إنه خيارنا».

انزعجت «آن»، فالخيار هو شيء لا يمكن أن تتمتع به المسلمات. «أنتم المسلمون دائمًا جاهزون للوعظ؟». لم أكن قد سمعت هذه الكلمة من قبل، لكن لحسن الحظ بادرت سارة إلى القول: «نحن لا نطلب من الآخرين أن يتحجَّبوا». ثم كرَّرت: «إنه خيارنا أن نتحجَّب».

كان علينا أنا وسارة أن نرغم نفسينا على الصمت، إذ بدا من غير المجدي أن نذكر أننا في بلد مسلم، وأنه من المفترض مراعاة الحشمة في اللباس، لأنها جزء من ثقافة البلد. هذا بالإضافة إلى الحاجة إلى أن يغطي المرء نفسه للوقاية من الحرارة، وإلى أن الملابس المكشوفة جاذبة للانتباه.

«أنتم أناس متخلفون، تعيشون في العصور الوسطى وتعتنقون دين العرب الجهلة. عليكم أن تتثقفوا وتتعلموا بعض القيم الصحيحة كما نفعل نحن في أوروبا.»

ابتسمت في وجهها الخالي من التعبير وأنا متأثرة بسرعة هجومها. على الأقل هي لم تُخفِ حقدها.

التفتُّ لأواجه سارة وقلت لها: «سارة، ألم تتابعي دروسك في التعاليم الأوروبية المستنيرة عندما كنت في أكسفورد؟ أعتقد أنك أخذت المركز الأول عن مقالتك حول المفكرين العقلانيين؟».

انتقلت سارة إلى التحدث بفرنسية لا تشوبها شائبة فحذوت حذوها: «أنا لست عربية، هل أنت عربية شيلينا؟» حاولت مداعبتي.

ثم انتقلت إلى التحدث بإنجليزية راقية، وقلت: «أنا أوروبية، وأنت يا سارة؟ لقد وُلدت وعشت في لندن طيلة حياتي» توقفت «باستثناء الوقت الذي قضيته في الدراسة في أكسفورد». مع الإشارة إلى أنني كنت أحرص على إخفاء هذه الحقيقة عن العرسان الذين لم أكن أرغب في أن يقيِّموني بناءً على هذا المعيار، فقد استخدمت هذه المعلومة للهدف نفسه تمامًا في هذه الحالة.

كانت عملية إقناع «آن» مستحيلة. «أنتن النساء المسلمات مضطهدات، مجبرات على تغطية أنفسكن وعدم التعبير عن أنفسكن. يجب أن تمكثن في البيت وتتركن للرجال إدارة كل شيء».

مكتبة الرمحي أحمد

أخرجت هاتفي المحمول. «سارة اتصلي بزوجك من فضلك... أوه... لا... صحيح أنت لست متزوجة. دعينا نتصل بزوجي. أوه! أنا أيضًا لست متزوجة». قاطعتني قائلة: «دعينا نتصل بوالدك». أمسكت بالهاتف ووضعته على أذنها. «هل أنت والد شيلينا؟ نعم... نعم. كنت أتصل لأسألك. هي

مضطهدة، أليس كذلك؟ نعم... نعم أفهم، ولهذا السبب أجبرتها على السفر وحدها لتريها كم هي مكبوتة ومسكينة. نعم... نعم، هذا منطقي جدًّا. وطبعًا أنت أجبرتها على السفر من دون محرم».

لا يزال شعور بعدم الأمان المعقَّد يطفو إلى السطح لديَّ في مثل هذه الحالات. بدأت أفور بالتحدي تحت الشمس الحارقة. كيف تتجرأ على اتهامنا بالاضطهاد؟ لقد تعلمنا في واحدة من أرقى الجامعات في العالم، ونتكلم ما يقارب العشر لغات - نحن الاثنتين - إضافةً إلى قراءاتنا الواسعة لكتب الأدب من ثقافات ولغات متعددة، وأسفارنا إلى العديد من الدول. وها هي ترانا بأم عينها ونحن نسافر من دون مرافق في الشرق الأوسط باختيارنا. بالتأكيد لا أحد يستطيع أن يتهمنا بأننا مضطهَدات. كانت تنظر إلينا وكأننا روث بط! «أنتن تعتقدن أنكن متحررات، لكنهم لا يزالون يسيطرون على عقولكن. توقفن عن خداع أنفسكن. المسلمون أشرار والإسلام هو دين البرابرة الذين يهددون بقتل الناس من غير المسلمين».

يردُّ المسلمون عادةً على الأشخاص مثل «آن» بالعبارة التالية: «اكتشف المسلمون قوانين الكيمياء والجبر، ووضعوا أسس العلوم الحديثة والفلسفة وأسهموا في النهضة الأوروبية، بينما كان أسلافك لا يزالون يعمهون في عصور الجهل ويرتدون المآزر»، لكننا لم نحب إثارة هذه النقطة، ولا أن نذكر سخافة شغفها بالسفر إلى الشرق الأوسط طالما أنها تعتقد أنه سيئ لهذه الدرجة وأن سكانه من البرابرة. من الواضح أنها لم تكن مستعدة لسماع أي شيء.

انجرفنا أنا وسارة بالأفكار لـ«آن» وأمثالها من الذين يصمون أسماعهم عما يقوله المسلمون، حتى عندما يواجهون بمسلمين حقيقيين يستطيعون النقاش مباشرةً، ويعرفون كيف يديرون الحوار، ويخلقون نوعًا من التواصل، وربما يتفقون على ألا يتفقوا. اكتشفنا أن «آن» لم تقابل مسلمين أوروبيين من

قبل، وأن أفكارها كانت مرتكزة كليًّا على ما تقرأه في الصحف، وتراه في التلفزيون.

لم يخطر في بالها أبدًا أننا اخترنا الإسلام دينًا. صحيح أننا ولدنا في عائلات مسلمة، وصحيح أننا لن نعرف أبدًا الجواب عن هذا السؤال: «هل كنت ستصبحين مسلمة لو لم تولدي كذلك؟» لأن هذا سؤال وجودي من المستحيل الإجابة عنه الآن، إلا أننا كنا متأكدات من أننا اتخذنا قرارًا واعيًا في أن نكون مسلمات متدينات. كان الكثير من المسلمين لا يفكرون بطريقتنا، وجدوا أنفسهم ولدوا مسلمين، وشعروا بأنهم مجبرون على تقبل الإسلام كجزء من ثقافتهم وتراثهم لا أكثر ولا أقل.

شعرنا بأن اختيارنا جاء استجابةً لاحتياجات عقلنا الباطن، مما أعطى ضمائرنا ووجداننا فهمًا أوضح. اعتقدنا أن الإسلام يحمل إجابات بسيطة لأسئلة كبيرة عن الإنسانية، فهو يبدأ من فرضية بسيطة جدًّا: أنه لا يوجد إلا إله واحد. بعضهم يدعونه «النيرفانا»، وبعضهم يدعونه «التنوير»، وبعضهم يدعونه «الحقيقة» أو «العدالة» أو «يهوه» أو «الرب» أو «الحب». نحن كمسلمين نعرف أنه «الله».

إن البحث عن الله في قلوبنا بمثابة «رحلة» يجب علينا جميعًا اختبارها، وتعني التواصل مع الخالق. وجعل العالم مكانًا أفضل للأشخاص الذين يعيشون فيه، بالعمل على تحقيق المبادئ التي يؤمن بها الناس جميعًا، ألا وهي المساواة والعدالة والحب والوئام. نحن نعتقد أن الإسلام قد رسم طريقًا واضحًا للوصول إلى الأهداف الكونية. لقد اخترنا الإسلام، لأننا نشعر بأنه حرَّرنا كبشر. لم نختر الإسلام بشكل عشوائي، بل اخترناه لأنه يعني لنا الكثير.

* * *

لقد سيطرت صحراء الأردن على تفكير لورنس العرب. وها هي التضاريس الصخرية الغريبة التي شاهدناها على الرمال الذهبية تتناثر مشكّلة اتساعًا غريبًا طاغيًا، بدا وكأنه يمتد بلا نهاية والسماء الفسيحة الرائعة تعكس اتساع الأرض وامتدادها أيضًا بشكل لم أرَ له مثيلًا من قبل. أمضينا الليالي الحارة هناك ونحن نخيم في الهواء الطلق تحت النجوم المتلألئة. أودُّ أن أدّعي أنني اخترت النوم في الهواء الطلق بمحض إرادتي كفتاة معتادة على حياة المدينة، إلا أن الحكاية لم تكن كذلك. فكل الأسرَّة في الفنادق كانت محجوزة، والتخييم كان هو الحل الوحيد.

أقنعت نفسي بتحمل الصعوبات وتخيَّلت نفسي أميرة عربية. تصورت شخصيتي بشعري الأسود الطويل المبعثر وعيوني التي يزيِّنها الكحل العربي وأنا أختبئ داخل هودج تغطيه الستائر على ظهر جَمَل. ابتسمت لفكرة نجاح الصور التي رسمها الأوروبيون في القرن التاسع عشر لجميلات العرب في تخطي حواجز الزمن والبقاء والاستمرار حتى الآن، لدرجة أنها نجحت في التسلل إلى خيالي. يمكن أن أكون الأميرة ياسمين لعدة أيام. هكذا قلت لنفسي، لكنني تساءلت: أين علاء الدين؟ وكان هذا السؤال هو الذي وضع حدًّا لأحلام الأميرة.

حذَّرتنا موظفة الاستقبال: «احرصي على أن تغطي نفسك جيدًا، فالبعوض كثير هناك». قالتها مشيرة إلى خطٍّ الأفق القاتم، لكننا لم نستطع رؤية شيء. حدَّقتُ بعينين نصف مغمضتين في الاتجاه الذي حددته، وبعد لحظة صمت من جانبي عادت إلى الثرثرة.

«حبيبتي عليك أن تنامي في الوسط». سخِرت مني «تأكدي فقط أنه لا توجد حشرات سامة. ومن الأفضل أن تختاري مكانًا خاليًا من الصخور كي لا يؤلمك ظهرك في الصباح». قالت هذا وهي تقوِّس ظهرها وتمدُّ ذراعيها

لتؤكد على كلامها. «لا تهتمي، خذي الأمر بروح رياضية. النوم هنا مجانًا على الأقل».

سحبنا حقائب ظهرنا ومشينا أنا وسارة باتجاه المدى الواسع. استطعت سماع صوت آلة «الباس» تعزف عن بُعد «دوم، دوم، دوف». شدَّنا الصوت فمشينا إليه مسحورات بالإيقاع المنتظم الآتي من العتمة.

انفجرت سارة في الضحك وهي تشير إلى مربع مضاء هائل ظهر من بعيد. هنا وفي وسط الصحراء العربية الهادئة، حيث ظننا بأن حياتنا المدنية المشبعة بالأضواء والأصوات والأشخاص أصبحت مجرد ذكرى، فوجئنا بشاشة ضخمة تعرض فيلمًا هنديًّا راقصًا. وعلى الرغم من وجودنا في أرض عربية إلا أن الأغاني والحوارات كانت كلها باللغة الهندية المترجمة إلى العربية. وعندما بدأت المشاهد الراقصة تظهر على الشاشة بدأت أكتاف الجمهور وأيديهم ترتفع إلى أعلى ثم أسفل، بالتزامن مع حركات الممثلين والراقصين.

تابعنا السير ووجدنا أخيرًا مكانًا مفتوحًا على مسافة مناسبة من سُياح آخرين سبقونا للتخييم في المكان. سحبنا ناموسياتنا وشراشفنا المتعددة الاستعمالات التي نحملها معنا دائمًا. كانت هذه الشراشف مفيدة جدًّا في السفر؛ إذ كنا ننام عليها أو فيها أو تحتها ونستخدمها كسجادة صلاة أو للف أنفسنا عندما نشعر بالبرد، وفي بعض الحالات اليائسة كنا نستخدمها كمناشف. كوَّنَّا لأنفسنا شرانق فردية، لحماية أنفسنا من الحشرات الطائرة السامة التي كانت تنتظر كالوحوش المتلهفة لامتصاص دمائنا. ثم تمددنا، بعد تعب النهار، في صمت.

وبدلًا من إغلاق عيوني فتحتهما على اتساعهما. هناك وفي سماء الليل الأثيرية الرائعة لمعت مجموعات النجوم. لم أشاهد في حياتي هذا العدد من

النجوم المتلألئة تشعُّ في عليائها لا ينافسها شيء. لم تكن هناك أضواء مدينة على امتداد البصر من حولنا، وأقرب المدن كانت عمّان، عاصمة الأردن، الصغيرة نسبيًا. كان القمر يقبع على زاوية غير التي أراه فيها عادة، إذ كان معلقًا هناك مثل ابتسامة فضية أنيقة ترافقه نجمته، فيبدو الاثنان مثل أنف قطة صغيرة. إن قمر الأفق والنجمة هما رمز الإسلام الذي كانت تُزيَّن به أغلفة الكتب والأعلام والمواقع الإلكترونية وبطاقات الأعياد والملصقات، وتتخذه الحركات السياسية شعارًا. إن رؤية الهلال والنجمة بأم عيني كان شيئًا لم أختبره من قبل. لمدة ساعة كاملة لم أفعل شيئًا سوى التحديق والتحديق.

لم تكن النجوم مختفية تحت الغيوم كما هي الحال في سماء لندن، بل كانت كثيفة ولامعة. ولم تكن جزءًا من القصص الخيالية والأحلام البعيدة، بل كانت حاضرة هنا كقطعة من الحياة. أما الطريقة التي هيمنت بها النجوم على سماء الليل فجعلتني أفهم لماذا اخترع المسلمون كل تلك الآلات المبتكرة للملاحة والفلك. لقد تحكمت النجوم في تاريخ الناس في القرون الوسطى كما تحكمت في أسفارهم وأقدارهم. فجأة أصبح كل شيء مفهومًا وحقيقيًّا أمام عيني.

«أريد أن آتي إلى هنا في شهر العسل وأن أجلس مع حبيبي تحت هذه النجوم». فجأة زال سحر اللحظة. لماذا يتسلل الحب الرومانسي فجأة إلى مملكة التجربة الرائعة التي أعيشها الآن؟ من المفترض أن تكون هذه اللحظات ملكي وحدي، لحظات هي ملك روحي وقلبي من دون سواي. لماذا تدخلت فجأة فكرة العثور على حبيب لتفسد عليَّ اللحظة التي تربطني بالكون؟ هذه اللحظة لم تكن جزءًا من عملية البحث عن الشخص المناسب. وهي لم تكن جزءًا من عالم التعارف والخطابات والخالات والابتسامات الخجولة والرموش المرفرفة. هذه اللحظة كانت خلاصًا من سطحيات العمل والملابس والدوامة الاجتماعية والتسوق والضحك والقلق والتخطيط

والضغط والدموع. لم يبقَ من حياة لندن القديمة، التي تبدو الآن كذكرى بعيدة، سوى الحب والأمل.

إن الإحساس الفطري بالحب والأمل هو شعور لا يمكن عزله عن باقي لحظات الحياة. لم أكن أعلم بماذا أحلم. هل كنت أحلم بالحب الرومانسي أم بالحب الملحمي الأسطوري؟ هل سيُرضي هذا النوع من الحب إنسانيتي فأشعر معه بالاكتفاء؟ لا أظنني أدركت طريقة طرح السؤال حتى استلقيت هناك على الرمال محدقة في النجوم. كنت آمل أن أجد المعنى، أن أعرف من أنا وما ينبغي عليَّ فعله. وعند التفكير في شهر العسل بدأت الفكرة تتبلور. إن الشيء الذي أتمناه من أعماق قلبي هو الحب، هناك شيء في جو الصحراء الحالم يربطني بالرجل الذي أرغب في العثور عليه. إن مزج الصحراء مع الرجل هو الذي سيولد الشرارة. إنه البحث عن الحب، لا الحب الرومانسي ذو البعد الواحد الذي يشترط شابًّا أسمر طويلًا، ولا هو الزهد والتقشف اللذان ينتهجهما الكهنة والراهبات.

إنه بحث مشترك عن حب الخالق وحب الشريك، إنه حب متشابك. لم أكن أملك الكلمات كي أعبر عن هذه الفكرة بعد، لكنني لاحقًا سأفهم أن هذا هو البحث نفسه، والحب نفسه الذي لا يمكن أن يوجد وينتعش وحده من دون رعاية. لهذا السبب يبدو الحب الرومانسي كافيًا كنقطة بداية فقط، لأنه يحمل العاشق فيما بعد إلى نوع أعمق من الحب. ولهذا السبب أيضًا يبدو الحب الرومانسي فارغًا جدًّا عندما يغيِّر مساره، ما لم يحل محله حب أكثر عمقًا واستمرارًا.

الحب الرومانسي هو نقطة الانطلاق. إنه الحب الحالم. كنت أؤمن من كل قلبي أن فارس الأحلام موجود. بالطبع هو موجود، إذ ما معنى الحياة من دونه؟ ماذا يعني الحب إذا لم يكن هناك شخص نحبه؟ أن نجد رجلًا ونقع

في حبه بسعادة إلى الأبد كانت هي المعادلة البسيطة. ألم يكن هذا ما يحلم به الناس؟ ربما نستطيع نحن الشابات أن نصفه بشكل أفضل، وأن نشعر بالثقة ونحن نتكلم عنه ولن يضحك منا الناس لشاعريتنا، لكنني متأكدة أن الرجال أيضًا يبحثون عن هذا النوع من الحب.

كنت أريد رفيقًا يتسلل إلى روحي، لتنمو أحاسيسي من خلاله ولأتعلم المزيد عن الحب بمعناه الواسع، وأن أصبح جزءًا من هذا الحب. سمعت بعد ذلك بفترة طويلة عن نظرية «الين واليانج» التي تقول إن الرجل والمرأة ما هما إلا نصفان، ولا يصبحان كلًّا متكاملًا إلا عندما يتحدان. لقد حضرت أعدادًا لا تحصى من المحاضرات والندوات في المسجد، وكثيرًا من خطب الأعراس التي كان موضوعها الدائم هو الحب الرومانسي الذي يعتبر امتدادًا لحب الخالق، لكنني لم أفهم تلك الفكرة حتى هذه اللحظة. منظر الصحراء المنعكسة على صفحة السماء هو الذي جعلني أفهم. الصحراء تحتاج إلى السماء والسماء تحتاج إلى الصحراء، لكن كل واحدة منهما لها طبيعتها الخاصة، ويجب أن تبقيا كذلك. خطَّا الأفق الرائعان المتقابلان والمندمجان معًا جعلا الصورة واضحة أمامي. صحيح أن كل واحدة منهما كانت جميلة وحدها، لكنهما عندما اتحدتا أعطتا الكون معنى جديدًا. إن الاستلقاء تحت النجوم جعل بذور الحب السامي، الكامنة في قلبي وفي مبادئ الإسلام، تضرب عميقًا. لقد سمعت كلمات مثل «الحب يأتي بعد الزواج» كثيرًا، وبعدة أساليب. لكن هذه اللحظة الرائعة هي التي أضاءت لي معنى البحث عن الحب الإلهي الذي سيساعدني في بحثي عن الرجل. كان قلبي يحدثني بأنني إن وجدت طريق حب الخالق فعندها سأجد طريقي إلى حب الرجل.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١). استطعت سماع هذه الآية من القرآن

المرتل عميقًا في قلبي، وارتعشت لوقع الكلمات. كنت أتوق لأن أكون جزءًا من ثنائي يكمل واحدنا الآخر، وأتوق لاختبار هذا النوع الجديد والمجهول من الحب والسكينة. لم أكن قد فهمت بعدُ فكرة التوازن والشراكة والتناغم. كنت أتعطش إلى هذه الأشياء، لكن أين هو السراب وأين هي الحقيقة؟ لقد أعطوني وصفًا محددًا للحب كي يسهل عليَّ إيجاده. وهو الوصف نفسه الذي أُعطي لكل النساء اللاتي أعرفهن، مسلمات أو غير مسلمات، لكننا لم نرض بالعلاقات التي وجدناها، بل عانينا من الضيق وعدم الرضا، ما جعلنا ندرك أن الحب الرومانسي وحده ليس كافيًا.

فكرت في الطريقة التي يصف بها القرآن الكريم الشمس والقمر والنجوم. كل منها يتبع مساره الخاص الذي لا يتنافس فيه مع أحد. كما ذكر القرآن أن كل الأشياء تأتي على شكل أزواج: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: ٤٩)، فهناك النهار والليل، الأرض والسماء، النور والظلام. والبشر لا يختلفون عن هذا. النجوم تلمع بسعادة وسكون وهي تعلم مكانها. ابتسمتُ. كان من النادر رؤية هذا في العالم الذي أعيش فيه الآن. إحدى النجوم كان لها بريق خاص. لم أكن قادرة بعد على حل الشفرة التي كانت ترسلها إليَّ. لكنني سأفهم مغزى هديتها في يوم من الأيام. فكرت ثانية في الكلمات: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

لقد كنت مستعدة.

أساسيات الحب الثلاث

المنهج - المسلك - المعنى

كان طويلًا لكن ليس طويلًا جدًّا، ووسيمًا أيضًا، له ملامح قوية، لكن ليست قاسية. شعره قصير بني غامق، متموِّج بشكل عشوائي. كانت لحيته الصغيرة تعطي شكلًا مميزًا لوجهه إلى جانب النظارة ذات الإطار المعدني التي كان ينزعها من حين إلى آخر، لتُظهر عينين بلون الشوكولاتة. تكشف عيناه عن حساسيته وتتناسبان تمامًا مع ابتسامته المعدية وإن كانت نادرة.

كانت ملابسه عصرية من دون اهتمام، ومن الصعب وصفها بالتفصيل، إذ كانت كل قطعة فيها تمتزج بالأخرى بشكل يبرز وسامته من دون أن تطغى الملابس على شخصيته. درس الهندسة المدنية في كامبردج، وهو يصف الأمر بأنه دَرَس ودَرَس من دون انقطاع حتى حصل على المرتبة الأولى. كان صديقًا مقربًا لإحدى العائلات الصديقة التي كانت، بشكل أو بآخر، جزءًا من حلقتنا الاجتماعية الواسعة. كان شغوفًا بالإسلام يلتهم كتب الفلسفة والتأمل والصلاة والحكمة والجدل. كان يفكر ويتأمل ويبتسم. اسمه محمد حبيب. تقابلنا في عيد الميلاد الخامس لابنة إحدى العائلات الصديقة. ارتدت الابنة المُحتفَى بها ثوبًا مطرزًا بثلاث كشكشات، وكان وجهها ملونًا مثل الفراشة.

شاهدته في وقت سابق من الحفلة، كان ينضح فتنة ولطفًا، بينما انشغل بمناقشة رجل آخر داكن الشعر يرتدي نظارة أيضًا. كانا يجلسان متقابلَين على زاوية مائدة الطعام، وحدهما، عينًا بعين، ويداهما تمسكان بأكواب فخارية ثقيلة مملوءة بقهوة فلسفية سوداء، واستقر صحن من تورتة التوت أمامهما من دون أن يُمس. كانا يناقشان السير والسلوك ويتأملان في المسار الروحي للمسافر على درب الخالق. أوووووه! مرت الكلمة وطرقت أذني. لم أكن قد سمعت عبارة «المسار الروحي للمسافر» من قبل.

قال الرجل الآخر لمحمد: «لقد كنت أدرس المعنى الداخلي للقيام في بداية الصلاة على مدى الأشهر الثلاثة الأخيرة، وكلما درست الموضوع أكثر تكشفت لي حقائق وازدادت الأسئلة لديَّ». كنت أقف هذه الوقفة عدة مرات في اليوم بصمت وثبات قبل الانحناء والسجود. ما الذي يستدعي ثلاثة أشهر من التأمل في هذه الوضعية؟

أجابه محمد حبيب: «ما زلت أدرس السطور الأولى من الأذان». ماذا كان هناك ليدرس في سطر الأذان؟ تساءلت ما المعاني المبطنة المخبأة تحت كلمات الأذان البسيطة «الله أكبر، الله أكبر». أردت أن أتدخل في نقاشهما، وأسأل عن المعاني المخبأة تحت المعنى المعروف للعبارة.

شرح عبارة التكبير «الله أكبر» بسيط ولا يحتمل كثيرًا من المعاني باعتقادي. ولا تزال كلمات إمام المسجد ترن في أذني وهو يشرحها قائلًا: «الله أكبر من أي شيء تتخيلونه، والله حاضر دائمًا، أبديٌّ دائمًا، موجود دائمًا، رحيم دائمًا، عادل دائمًا. تخيلوا أي شيء واعلموا أن الله أكبر منه؛ لأن كل ما تتخيلونه هو قابل للتخيل ضمن حدود العقل. الله هو الذي خلق العقل، وخلق لكم الخيال».

حتى هذه اللحظة كان هناك صدى لنظرية القديس «أنسلم» بوجود الله. لقد اقترح «أنسلم» أن الله موجود، لأنه كامل، والوجود هو إحدى صفات

الكمال، هذه هي المسألة ببساطة! لا بد أن الله موجود. كنت أحب هذا الدليل على وجود الله بسبب بساطته المنطقية، ولطالما أضحكتني أناقة صياغته، مع أنني أعلم أنني يجب أن أظهر احترامًا أكبر لأي دليل على وجود الله.

وعلى الرغم من الفصاحة الأنيقة لهذا الدليل إلا أنه كان محدودًا جدًّا، لأن تخيُّل القدير بهذا الشكل كان محدودًا هو الآخر. حتى كلمة «الله» كانت تبدو ضيقة جدًّا في هذه النظرية، لأن الكلمة في حد ذاتها مثقلة فعلًا بالمعاني.

«لا يمكن أن تفهم «كيفية» الله لأن الله هو الذي خلق «الكيفية». ولا يمكنك استيعاب «ماهية» الله لأن الله هو الذي خلق «الماهية». ولا يمكنك أن تفهم «سببية» الله لأنه هو الذي خلق «السببية»...». هذه كلمات صِهر الرسول ﷺ الذي تركت أفكاره الروحانية إرثًا هائلًا للتجربة الصوفية والحكمة في الإسلام. لا حدود لوجود الله ولا يمكن استيعابه ضمن ضوابط العقل المحدودة. لكن الحكمة الإسلامية أيضًا تقول: لا يوجد مكان في العالم يتسع لله إلا قلب المؤمن. إن سماع هذا الحوار حول كشف المعاني المبطنة بدأ يتحدى قدراتي كمسلمة متديِّنة ومستنيرة.

ظهر والدا الفتاة صاحبة عيد الميلاد في تلك اللحظة وقدَّماني إلى الرجلين اللذين كنت أتظاهر بعدم التنصُّت إلى حديثهما. ابتسمت بعصبية حين علمت أن أسماءهما هي محمد وياسر. كان ياسر يلبس خاتم زواج بينما خلت يدا محمد من الخواتم. تبادلنا بعض العبارات المكررة حول العمل والجامعة وحفلات أعياد الميلاد وتحدثنا عن الأقارب والعائلات. كان محمد محاسبًا، وقد ختم الحديث بقوله إنه على الرغم من السمعة المملة التي تحملها مهنة المحاسبة إلا أنها أفضل من ناحية المركز والراتب على المدى البعيد من العمل في الهندسة التي درسها في الجامعة، «فهي تسمح لي بالتركيز على أشياء أخرى أكثر أهمية وإثارة». قالها متوجِّهًا بالحديث إلى ياسر أكثر مما توجَّه إليَّ، ثم نظر إلى ياسر

مشجعًا إياه على المتابعة. كان محمد لطيفًا ومهذبًا، لكنه كان ينظر بتعطش أكثر فأكثر إلى ياسر لاستئناف الحوار. استدعوني لتقطيع قالب الحلوى فتابع الاثنان حوارهما الجاد الذي فاتني.

نسيت أمر محمد ونسيت أمر الحديث. إن نسيان الأمور المهمَّة شيء سهل للغاية.

* * *

قابلت محمدًا ثانيةً بعد عدة أشهر في حفلة عيد ميلاد أيضًا. كان يجلس وحده بينما كانت المجموعة تتحدث وتضحك وتشرب الشاي. بدا غائبًا وكتفاه منحنيتان وعيناه مظلمتان. بدأ بإخباري أنه كان دائمًا يركز على دراساته وعمله، والأهم، على رحلته الروحية. كان محمد أول رجل أقابله يعتبر عمله مجرد وسيلة لتأمين ما يلزم من أجل متابعة بحثه الروحي. كان الآخرون دائمًا يتحدثون عن التوازن بين الدين والدنيا. معظم الرجال الذين قابلتهم كانوا يرون أن الدين والدنيا يحملان الأهمية نفسها، وكانوا يعجبون كثيرًا بالأشخاص الذين يستطيعون تحقيق هذا التوازن.

كلمات محمد وتصرفاته كانت ترفض مبادلة الحياة الروحية بالحياة المادية، فالاثنتان لا تنفصلان، بل إن الحياة المادية هي جزء من الحياة الروحية، وكان يحاول دمج الاثنتين بشدة لتصبحا شيئًا واحدًا. كما تربَّى محمد على تعاليم الإسلام التقليدية الرسمية المدروسة. وكانت حياة المسلم الصالح التي يشجع عليها المسجد والأئمة هي كل عالمه. وقد وضعته هذه الحياة في مكانة جيدة وجعلت منه إنسانًا صالحًا تفخر به عائلته ومجتمعه. «مواطن شريف»، هذا هو الوصف الذي ينطبق عليه. حتى هذه المرحلة كنا نتشابه كثيرًا.

ثم اكتشف أن هناك المزيد، شيئًا أعمق مخبأ تحت كل ما تعلمه. لقد فُتح له باب جديد. فتحت قوانين الإسلام ومبادئه الأساسية التي عرفها، وتحت

الدراسات الصلبة التي شكلت أساس معرفته وفهمه، اكتشف بُعدًا جديدًا من المعاني. شرح لي أن ما وجده كان مبنيًا على أسس كانت موجودة لديه فعلًا، لكنها بدأت تخلق صيغة جديدة وشبَّه ذلك قائلًا: «مثل الانتقال من فيزياء نيوتن إلى النظرية الكمية لأينشتاين».

غيَّر الموضوع فجأة. وبدا تعبيرٌ سئمٌ على وجهه حين قال إنه في الأشهر القليلة الماضية قابل امرأة سحرته. «لم أتوقع أن يحدث لي هذا، ولم أعتقد أنه يمكن أن يحدث. لقد نشأت بطريقة عقلانية جدًّا، وعشت حياة منطقية معتدلة. لم أشعر في حياتي من قبل بالمشاعر التي أثارتها فيَّ هذه المرأة. لم يكن من المفترض فيَّ أن أشعر بتلك المشاعر القوية. وهي قبلت». لم يرفع رأسه وهو يتكلم، بل كان يحرك الشاي بحزن. تساءلت ما الذي حدث.

«قابلتُ أهلها وقابلَتْ أهلي، فعلنا كل ما يفترض بنا فعله. لقد كانت الشخص المثالي: عائلة مناسبة، خلفية مناسبة، وقد أحببتها كثيرًا». توقف عن الحركة. «ثم وفي أحد الأيام وببساطة قالت إنها لم تعد تريد الاستمرار». نظر إليَّ بتعب مثل مجنون ليلى وهو يرتحل بحثًا عن حبيبته.

«مجنون ليلى» حكاية شرقية كلاسيكية تقابل قصة «روميو وجولييت»، أو قصة «أورفيوس ويوريديس». المجنون هو قيس بن الملوح وقد وقع في طفولته بحب فتاة تدعى ليلى. كانا من قبيلتين مختلفتين، وقد منعتهما ظروفهما العائلية من الزواج. أمضى قيس حياته كلها متلهفًا إلى لقاء ليلى، وكان يجوب الصحراء المترامية يائسًا لانفصاله عن حبيبته. نصحه أحد الحكماء أن يعلن الحرب على قبيلة ليلى وأن يخطفها، لكن والدها سبقه ورتب لزواجها من رجل آخر، مما دفع بقيس إلى الجنون. ومن هنا أتى اسم المجنون لأن الجميع اعتبروا هذا النوع من الحب والالتزام جنونًا. عندما مات زوج ليلى نُصح قيس بأن يتظاهر بأنه سليم العقل وأن يتقدم لخطبتها. لكنه أجابهم: «كيف يمكن للعاشق أن يتظاهر بالتعقل؟».

وقد جمع الموت بين ليلى والمجنون أخيرًا عندما دُفنا معًا في قبر واحد.

قصة مجنون ليلى هي قصة الخطر الذي يحدق بالعاشق الذي يستسلم كليًّا للحب. لقد كرَّس قيس حياته لحب الحب أكثر من حب الحبيبة: هل ليلى هي الحبيبة في القصة، أم إن هناك شيئًا أعمق يتعلق بالحب الإلهي؟

كان حب المجنون هو حب الخالق البعيد المنال، الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بزوال الجسد. وقد تأثر «إريك كلابتون» بأسطورة ليلى والمجنون مثلي. وكتب أغنية «ليلى» عنها. أتمنى لو أنه لم يفعل، إذ أفسد روحانية القصة.

تابع محمد الحديث عن خيبته في الحب: «قالت ببساطة إنها فقدت الاهتمام، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف يمكنها أن تقلب حياتي رأسًا على عقب، وأن تخرجني من حياتي الآمنة الهادئة ثم تمشي وتتركني؟ لقد مزَّقت كياني. من أجل ماذا؟ لماذا؟».

بدا ضعيفًا جدًّا. ها هو يجلس هناك مفطور الفؤاد كطفل حزين. لقد اختبر مشاعر لم يكن يعرف أنه يملكها، مما فتح عينيه على أبعاد كونية غير مدرَكة. كان مسلمًا يحاول ارتياد درب الروحانية المثالية الوعر، درب «الإسلام»، وقابل في رحلته نصفه الذي اعتقد أنه سيكمله وسيسمح له بالتحليق.

كان رجلًا صالحًا يقوم برحلة بحث روحية. لماذا لم أرَ ذلك بوضوح من قبل؟ لقد تأثرت بمشاعره كثيرًا. وعلى الرغم من كل الثرثرة من حولنا، سمعت صوتًا حادًّا ينبعث من داخلي ويسألني: لماذا كنت عمياء لدرجة أنني لم أفكر فيه كزوج عندما قابلته في المرة الأولى. لقد لاحظت ذكاءه وإيمانه وروحانيته، وطبعًا وسامته، ومع هذا مشيت من دون أن أهتم بمعرفة المزيد عنه. كان يمكنني بسهولة أن أطلب من عائلتي التقصِّي لمعرفة إمكانية ترتيب لقاء أو تعارف بيننا. وسرعان ما عادت قصة ابنة الرجل الصالح وموسى

ﷺ إلى ذاكرتي، وكيف تمسكت ابنة الرجل الصالح بفرصتها، وكانت واثقة من رغبتها في لقاء موسى ﷺ. لم أنتبه إلى وجود محمد إلا بعد أن تحطم قلبه وكل ما يحتاجه الآن هو كتف يبكي عليها.

تبادلتُ أطراف الحديث مع محمد من حين إلى آخر في الأعراس والاجتماعات العائلية والاجتماعية. أصغيت إلى جراحه التي بدأت تندمل تدريجيًا. وفي المقابل شرح لي ببطء وتفصيل ما يعنيه البحث الروحي. كنت قد أدركت في أثناء استلقائي تحت السماء المرصعة بالنجوم في صحراء الأردن أن بحثي عن الحب كان جزءًا مهمًا من هدفي الأسمى لإيجاد الحب نفسه. كنت أعتبر نفسي باحثة، وكنت مصممة على متابعة البحث.

وقفت بثبات على الطريق بينما كان يصف لي رحلة الحب. لم أشعر بمثل هذه الطاقة والتأثر اللذين شعرت بهما خلال هذه النقاشات. شعرت بالحرية في أن أكون نواة للإنسان الذي كنت أريد أن أكونه. لم أكن مفتونة به شخصيًا بقدر ما كنت مفتونة بحقيقة أن كل المعلومات والمعارف النظرية التي جمعتها حول الإسلام أصبحت ذات أثر كبير في رحلتي الحقيقية كإنسان يعيش في هذا العالم.

أخبرني أن بعضهم يدعو هذه الرحلة باسم «درب التصوف».

سألته: «هل يشبه هذا كون المرء صوفيًا؟».

ابتسم وقال: «إنها موضة هذه الأيام أن يكون المرء صوفيًا. لا أحد يعرف تمامًا من أين أتت الكلمة. يعتقد البعض أنها تشير إلى الملابس الصوفية التي كان الصوفيون يرتدونها كنوع من التقشف والزهد».

توقف وضحك ضحكة خفيفة: «يعتقد الناس أن الصوفية هي شيء لذيذ، دارج أو خفيف الدم، أو أنها تعني عدم التقيد بالقواعد». اتكأ إلى

الأمام وتابع: «الصوفيون هم الأشخاص الذين يغيرون العالم، إنهم يفهمون كيف تجعلك الرحلة الروحية تكرس حياتك لجعل العالم أفضل».

فتحتُ عيني على اتساعهما وسألته مندهشة: «هل أنت صوفي؟». لم يكن الصوفيون يتمتعون بسمعة عطرة بين المسلمين المعتدلين الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم يعطون التجربة الصوفية أهمية أكثر من قواعد السلوك والتصرفات اليومية مثل الصلاة وغيرها من الشعائر.

ابتسم بحكمة وامتلأت عيناه بالمشاعر. «التسمية ليست مهمة في عملية البحث. كلنا مهووسون بالكلمات والتسميات والصفات. لتفادي كل هذه التعقيدات، أفضل أن ندعوها «العرفان»، الذي يعني المعرفة الروحية. إن الهدف الأسمى للعرفان هو اكتساب المعرفة، معرفة الخالق. العرفان والمعرفة يأتيان من المصدر نفسه: فعل عرف». وحالما نطق بالكلمات عرفت أن هذا ما كنت أبحث عنه طوال الوقت.

بالنسبة إلى محمد، كل ما له علاقة بالخالق يأتي على شكل ثلاثيات. أول شيء يجب معرفته عن الكون هو أن كل بعد مكوَّن من ثلاث نقاط، اثنتان متطرفتان وواحدة في الوسط تحقق التوازن.

شرح محمد: «فكِّري في الشجاعة مثلًا، هذه صفة ممتازة. معظم الناس يفكرون فيها كصفة جيدة، ثم يقولون إن لها صفة معاكسة هي الجبن الذي يُعتبر من الصفات السيئة، لكن الشجاعة ليست جزءًا من ثنائية، بل هي جزء من ثلاثية. في أحد أطرافها هناك الجبن وهو انعدام الشجاعة، وفي الطرف الآخر التهور وهو التمادي في الشجاعة إلى درجة الجنون. إذًا الشجاعة تقع في الوسط. والتوازن الصحيح هو أن يعرف المرء نفسه ووضعه تمامًا. عندما تنطلقين في طريقك كمسلمة، عليك أن تعرفي أن هدفك هو تجنب التطرُّف وأن تكوني إنسانًا يلتزم بالطريق الأوسط، أي ما يُدعى بالصراط المستقيم».

المعرفة أيضًا لها ثلاثة أنواع: النوع الأول هو المعرفة التي تكتسبينها مما يخبرك إياه الناس وهي معرفة ثانوية، وهي نقطة البداية لنا جميعًا: تعاليم الأهل والمدرسة والمحاضرات والكتب والحوارات. شرح محمد أن هذا النوع من المعرفة يعتبر ضعيفًا نوعًا ما، فهو عبارة عن أقاويل، وهذه الأقاويل تأخذ أهميتها من سلطة الشخص الذي ينقلها. ثم هناك المعرفة بالرؤية بأم العين وهي «عين اليقين»، وهذا نوع أقوى من المعرفة؛ فالرؤية تعني التصديق، وهذه هي الطريقة التي يرى بها معظمنا العالم. «فكري في السلطة التي يمتلكها الأشخاص الذين شاهدوا الحدث بأعينهم، الأشخاص المتأكدون فعلًا من وقوع الحدث بينما يبقى الذين سمعوا به فقط مرتابين بشأن حدوثه».

وتابع: «أما أسمى مستويات اليقين، فهو المعرفة التي اختبرتِها بنفسك. لا يمكن لأحد إقناعك بتغيير رأيك حول شيء اختبرتِه بنفسك. وإن كنتِ قد اختبرتِه فعلًا تصبح معرفتك به هي الأثمن والأكثر قيمة. يحترم الناس المعرفة التي تأتي من الخبرة؛ لهذا السبب يحرصون على الاستماع إلى رأي ذوي الخبرة. إن الشخص الذي يتحدث من واقع الخبرة يحقق نتيجة لا يحلم بتحقيقها من يتكلم من واقع المعرفة النظرية».

تدخلتُ: «لهذا نقول نفِّذ ما تعظ به، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للحصول على نتيجة». كنت دائمًا أتساءل عما يكشفه سلوكي عن شخصيتي: هل يعكس أخلاقًا جيدة وهل يوحي للآخرين بأن يقلدوه؟

«تمامًا!» لَكَم الهواء بقبضته بحماسة. «ولهذا السبب بالذات كان لكلمات الرسول ﷺ هذا التأثير. عندما التزم بالأخلاق الحميدة واللطف والتهذيب في سلوكه، استمع إليه الناس وصدقوه، لأنه كان يطبق ما يقول. كان سلوكه رائعًا لدرجة أننا لا نزال نصغي إلى كلماته حتى اليوم. والأهم أنك إن أردت الحصول على المعرفة الحقيقية للحب، فعندها سيكون لكلمات الرسول ﷺ

الأثر الأكبر في إنارة طريقك، لأنه رأى الله بنفسه: والرؤية هنا لا تكون بالعين بل بالقلب، لهذا السبب يحدد الحب كل تجاربنا».

«في الحقيقة لقد تذوقه. لقد اختبر الحب بأصفى أشكاله وهذه هي قمة مراحل المعرفة».

نظرت إليه بحيرة. لقد كان هذا معقدًا جدًّا. ماذا يعني تذوق الحب الإلهي؟ كانت حيرتي واضحة لذا حاول أن يشرح لي: «تخيلي أحدًا يخبرك بوجود حريق في الغرفة المجاورة». اكتشفت لاحقًا أنه اقتبس هذا من مثال فلسفي مشهور. «يمكن أن تصدقيه أو لا. إن ما أخبروك به هو المستوى الأول من المعرفة».

أومأتُ موافقة وأنا أفهم فكرة المعرفة الثانوية.

«تخيلي لو أنك مشيتِ إلى الغرفة وشاهدتِ الحريق بأم عينك، عندها فقط ستتأكدين من حدوث الحريق هناك. لكن تخيلي لو جلستِ داخل النار، عندها سيصبح لديك يقين راسخ حول ماهية النار، ستكونين قد ذقتِها واختبرتِها بنفسك».

حدَّقت فيه بإمعان وأدركت ببطء أن المعرفة البسيطة ليست كافية؛ فقد كان هذا بعيدًا كل البعد عن فهم أسرار الكون - أسرار الحب الذي كنت أبحث عنه. أردت أن «أتذوقه» بنفسي.

«هذه مثل الأنواع الثلاثة لمعرفة الخالق. إذا وصلتِ إلى أصدق مستويات التجربة يمكن أن تضيعي فيها كليًّا. عندها تَصلين إلى المكان الذي تنعدم فيه «الأنا» الخاصة بك و«الأنا» الخاصة بي، عندها تكونين قد وصلتِ إلى مرحلة «الفناء». عندما تَصلين إلى تلك المرحلة في الانفصال بينك وبين مَن حولك، عندها تَصلين إلى مرحلة «البقاء». إنه الخلود الذي نتوق إليه جميعًا. إنه الإكسير الذي كتبت عنه الأساطير لتحقيق شوق الإنسان إلى العيش إلى

الأبد، كل هذا يصبح ملك يديك». لكن كيف الوصول إلى هناك؟ لقد كانت الرحلة التي وضعها محمد عاطفية جدًّا ومحفوفة بالمخاطر.

استدعت كلماته العبارة التي يقولها الناس عند إشهار إسلامهم: «لا إله إلا الله»، أي لا شيء إلا الخالق، هو الحي الباقي بعد زوال العالم المادي من حولنا.

تذكرت بعض الآيات من سورة الرحمن التي تؤكد أن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦). كانت هذه حقيقة قاسية وواعية اتفق عليها البشر جميعًا. وتُتابع الآية التالية: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧). إن أرواحنا أيضًا تبقى إلى الأبد كجزء من الواحد الأحد.

تابع محمد كلامه بشغف: «إن غرور الأنا يفصلك عن الخالق ويقيم بينك وبينه الحواجز. كلما ازدادت أنانيتك تحدثت عن التفوق كإنسان وابتعدت عن معرفة أسرار الخالق والكون. عليكِ أن تزيلي الحواجز بين قلبك وبين الخالق. كوني لا شيء كي تولدي من جديد وأنت تملكين كل شيء».

كان هذا الحديث قد بدأ يصل إلى منطقة مثيرة للأعصاب. أكون لا شيء؟ لكن الكلمات كانت مقنعة. ألم يكن الاقتراب من الخالق تقدمًا طبيعيًّا في طريق الإيمان؟

لذا طرحت السؤال الذي غالبًا ما أثاره نُقاد المذهب الصوفي: ماذا عن القواعد؟ سألته: «ما الحدود والإرشادات والقوانين والطقوس؟ كل هذا متضمن في تعاليم الإسلام. لا يمكنك ببساطة تجاهلها من أجل الوصول إلى الفناء».

ابتسم: «هذا هو سوء الفهم الذي يقع فيه الناس حول الإيمان والمعنى

الداخلي، إن فكرة التخلص من الغرور والقضاء على شياطينك الداخلية ليست مسألة سهلة».

رفعت حاجبيَّ بسخرية بالنيابة عن الناس الذين بدوا وكأنه يستبعدهم بكل سهولة من المعادلة، وقلت: «إن هؤلاء الناس الذين يتبعون الدرب الداخلي يحاولون بكل قوتهم أن يصلوا إلى الله».

«لكن الداخلي لا معنى له وحده». أجابني: «للوصول إلى نقطة «المعرفة» عليك أن تكوني قادرة على العيش في العالم المادي الذي حولك. عليك أن تكوني متلائمة مع البيئة ومع الآخرين. هذا هو ما نعنيه بالإنسان المتوازن. لفعل هذا أنت بحاجة لاتباع قواعد السلوك والقوانين وإلا كيف تستطيعين العيش بسلام مع الآخرين؟».

أومأت موافقة. هذا صحيح، إن التعامل مع الآخرين يجعلك شخصًا أفضل.

«أنت تحتاجين للقانون والعاطفة والحب». ها قد عدنا إلى الثلاثيات مرة أخرى. ابتسمت لنفسي.

شرح لي: «هناك ثلاث طرق». وهذه المرة ضحكت بصوت عالٍ من أسلوبه في العد.

نظر إليَّ مستغربًا لما يمكن أن يضحكني في هذه النقطة، لكنه كان مسرورًا من انتباهي الشديد لما يقول.

«الأولى هي «الشريعة» وهي كلمة ترد في كل النقاشات عن الإسلام من دون أن يعي الناس معناها فعلًا.

الشريعة ليست شيئًا سوقيًا يعني قطع الأيدي وسجن النساء». كان محقًّا. كنت أنزعج كثيرًا من تشبيه قواعد الشريعة بقصص الرعب في القرون

الوسطى. كانت الكلمة تستخدم بكسل كاختزال لكلمة «الإسلام المتخلف»، وفي الحياة اليومية كانت الشريعة تستخدم لتشير إلى القوانين الشرعية التي تطبق في القانون المحلي والتي أمضى الحقوقيون سنين عديدة في دراستها تمامًا كما يدرسون القانون البريطاني في الجامعات لممارسة المحاماة. كانت هذه القوانين المحلية تختلف في العالم الإسلامي وفقًا للتفسيرات المختلفة التي يقدمها المفكرون عن مصادر القانون، إضافةً إلى الاجتهادات المختلفة والاحتياجات التي تتطلبها ثقافتهم. «هذه كلها ليست الشريعة التي تهمنا في الوقت الحاضر»، قال محمد. «بالمعنى الواسع: الشريعة هي المبادئ التي تنظم الكون؛ إنها الدستور الإلهي، إنها الكيفية التي يعمل على أساسها هذا العالم المذهل حولنا. وهي القوانين المادية والروحية التي تجعل جميع الأشياء تتماسك معًا».

سألته: «إذن هل قاعدة عامة مثل «أنت تحصد ما تزرع» هي جزء من الشريعة؟».

«نعم، طبعًا إنها القاعدة العامة التي تقول «إن عملًا صالحًا يؤدِّي إلى آخر». إنها إحدى القواعد التي يعيش عليها عالمنا. كيف يعمل الكون ويبقى متوازنًا، هذه هي الشريعة. وعندما يقول المسلمون إنهم يريدون أن يعيشوا وفقًا للشريعة فهذا يعني اتباع الدستور «الخارجي» بشكل يجعلهم في تناغم مع كل شيء حولهم».

لقد أصبح الأمر واضحًا - الشريعة توفر الإرشادات لحياتك ولطريقة تَعاملك مع الآخرين. إنها تحدد لك كيف تعتني بجسدك بأفضل طريقة ممكنة. إن تناول اللحم يعني تناول طعام جيد، والصوم يساعد على المحافظة على الرشاقة وينقي الجسم من السموم. كما يحافظ الامتناع عن المشروبات الكحولية على الصحة. حين يكون الجسم نقيًا يستطيع المرء التفكير بوضوح.

تشرح الشريعة أيضًا بعض الأشياء المتعلقة بحياة المسلم الشخصية: كيف يصلي وكيف يتزوج وكيف يصوم. وأخيرًا تنظم الشريعة الطريقة التي يتعايش بها المرء مع الآخرين: ألا يسرق أو يقتل وأن يعمل على تحقيق المساواة والعدالة ومعاملة الناس بشكل جيد وتحديد مسؤولياته وواجباته تجاه الناس والبيئة من حوله.

ثم صاغ محمد أحد أهم التحديات التي تواجه إيمان الناس: «إن أصعب شيء في الشريعة هو الفكرة الأساسية في العمل لتحقيق العدالة والمساواة. إن هذا هو جوهر القوانين. يعتقد الناس أنها مسألة طقوس، لكن هذا هو عنصر واحد فقط من الدستور الخارجي الأكبر. يبدو المسلمون مهووسين بالتفاصيل، لدرجة أنهم ينسون الهدف من هذه التفاصيل: إنه الوصول إلى الهدف النهائي، ألا وهو مجتمع عادل وبشر سعداء».

كنت قد تعبت من هذا الهوس بالقواعد والقوانين. لقد التزمت بكثير من القواعد، لكن كيف يمكن لهذه القواعد أن تمنحني الحرية؟ وكأنه كان يقرأ أفكاري، فقال: «الشريعة هي مجرد نقطة انطلاق لطريقة فعل الأشياء. لا يكفي التقيد بالقانون حرفيًا، عليك أن تُطبقي روح القانون أيضًا. لهذا السبب تعتبر المودة والرحمة من المطالب الرئيسة».

ذكرني الحديث بكريم وقصة الصاعقة. كان بإمكانه أن يخبرني ببساطة أنني لا أعجبه بدل أن يدوخني بقصة لا يصدقها عقل حول تدخل البرق في الأمر. أو خليل الذي رفضني حتى قبل أن نلتقي لأنني كنت أقصر من توقعاته، لكنه على الرغم من ذلك أصر على لقائي لكي يأخذ مني نقودي.

كان من السهل نسيان ما تفعله، لكن ما يهم هو الطريقة التي تفعل بها الأشياء. إنه الفرق بين الالتزام بحرفية القانون الجاف وبين تجميل الحياة

بالابتسامة واللطف والكرم والعاطفة. إذا أديت واجباتك حرفيًّا تكون قد نفذت الشريعة فقط، أما الطريقة فهي الأسلوب الذي تؤدي به مسؤولياتك. الطريقة هي فعل الأشياء بأفضل أسلوب ممكن.

أصبح محمد أكثر حيويةً وشغفًا عندما بدأ الكلام عن الطريقة الثالثة: الحقيقة.

توهجتْ عيناه. «هذا عندما تعرفين الحقيقة فعلًا. عندها تستطيعين تذوق جلال الإله ومشاهدته. هذا هو الدرب الداخلي، حيث تتحرر الروح باتباع الشريعة والطريقة، والآن يمكنها أن ترتمي في أحضان الحبيب».

الحبيب؟ من يسمي الله بالحبيب؟ لقد بدا الأمر رومانسيًّا جدًّا، لكن ربما تكون هذه هي الفكرة. كانت هناك أسماء كثيرة لله: العدل، الرؤوف، الرحيم، اللطيف، الجليل، الحي. وافقت أنه الحبيب أيضًا. لكن بربكم من يدعو الله بالحبيب؟

أخبرني محمد بعدها بشيء كنت قد سمعته آلاف المرات من قبل، لكنه في هذه المرة غيَّر حياتي. «يقول الله إنَّه خلق الخلق ليعرفوه. كي تعرف، أنت بك حاجة إلى شخص أو إلى شيء يقوم بفعل المعرفة». توقف ليجعلني أستوعب الفكرة. «يقول الله أيضًا إنَّه خلق الخلق ليحبُّوه، والمحبَّة بحاجة إلى أشخاص أو أشياء يقومون بفعلها». انتظرت سماع الطريقة التي سيربط بها القصة. «لكي يُعرف الله ويُحَبُّ يجب على أحد ما أو شيء ما أن يقوم بمحبَّة الخالق ومعرفته. البشر هم أفضل خلق الله، وقد وُجدوا ليعرفوا الخالق ويحبُّوه. لقد خُلقنا لهدف واحد بسيط: أن نحِبَّ».

لقد وجدت مكاني ومعنى وجودي. لقد فهمت الآن معنى بحثي عن الرجل المناسب، فارس الأحلام، إنه جزء من بحثي عن الواحد الأحد، الحبيب. أنا كائن وُجد كي يحب، كلنا وُجدنا لهذا السبب.

خلال كل البحث الذي نقوم به في الحياة العصرية، من خلال الأفلام والموسيقى والكتب والفنون والحياة والأحلام، نحن نبحث عن شيء واحد، قد نجده في وجه بشري أو وجه هوليوودي أو وجه الخالق. إنه الشعور بالاكتمال الذي يأتي من التوازن مع محيطنا. إنه الشعور الذي يأتي من تقديم الحب وتلقِّيه.

كل إنسان يتوق إلى شريك ورفيق وحبيب. ما قيمة القلب من دون شخص تحبه؟ ما قيمة الحياة من دون شخص تشاركه فيها؟ لهذا عرفت بكل تأكيد أنني سأجد الرجل. كنت أعلم أن قلبي منسوج من خيوط الحب وكان لديَّ كثير من الحب كي أعطيه. كل ما عليَّ فعله هو أن أجد فارس الأحلام. ما لم أكن أعرفه حتى الآن هو أن هذا النداء الداخلي لحب فارس الأحلام، كان أيضًا نداء لحب الخالق، «له».

الحب هو المبدأ الإلهي، وأن تحب يعني أن تعرف، لهذا السبب يتسع القلب البشري ليحتوي أسرار الكون.

النظرية الكمية

لقد شتتني البحث عن الزوج عن اكتشاف عالمي الداخلي. كان يجب أن ينصبَّ تركيزي، كإنسان، على جعل روحي تتفتح وتزدهر. إن البحث عن الرفيق والزوج كان جزءًا من رحلة التفتح كإنسان: كانت تلك هي الفكرة الإسلامية وراء الزواج، لكنني ركزت كثيرًا على البحث الخارجي عن الزوج المناسب، وأقنعت نفسي أن تلك هي الطريقة المثلى لتحمل مسؤولياتي. وكنتيجة لذلك وضعت حياتي الداخلية وتطوري الروحاني في طور الانتظار. لقد أنهت النقاشات مع محمد كل ذلك، وجعلتني أقوم بقفزة كمية في اتجاه رحلة الاستكشاف.

وبدأت تدريجيًا أعيش حياتي حقًّا بعد أن تأكدت أن رفيقي وديني مترابطان. إن قيمتي كإنسان هي ذاتها به أو من دونه، وكان طريق المعرفة والنضج أمامي لا يزال مفتوحًا. سيظهر فارس الأحلام عندما أكون جاهزة، وسنبدأ رحلتنا معًا يدًا بيد. وبعد أن تحررت من الأفكار التي كانت تعيقني إلى درجة كبيرة بدأت تدريجيًا أفتح قلبي لاحتمالات الحياة من حولي. لقد ساعدني الحديث مع محمد على فتح الأبواب التي كانت موصدة أمامي لعدة سنوات، وفتح أمامي نوعًا مختلفًا من الحرية. لقد تحررت من الداخل. لم أكن أريد أن

أتزوجه بسبب عرفان التلميذة بجميل أستاذها، أو بسبب الحب لشخص يشاركني المعرفة، بل شعرت بأنه شخص أستطيع أن أسير معه على درب رحلتي الروحية. سيكون قادرًا على العناية بي ماديًا وروحيًا. كلما تكلمت معه أكثر تأكد لي أنه الرجل الذي أستطيع أن أمضي بقية حياتي معه.

بدأ يتعافى من خيبته في الحب شيئًا فشيئًا، ومع هذا كنت متوترة جدًّا من فتح الموضوع معه. لقد كنت أخبر والديَّ بكل شيء عنه أولًا بأول. وفي ظروف أخرى كنت طلبت منهما اتخاذ الطريق الرسمي للتواصل مع عائلته عن طريق الخَطَّابة. لكن ونظرًا لحالته الحرجة شعرنا جميعًا بأنه قد يشعر بأنه محاصر إذا تدخلت العائلة في الموضوع.

صارحت زميلي في العمل «جاك» بالأمر وسألته النصيحة: «أنت تستطيع مساعدتي، فأنت رجل. ماذا أستطيع أن أفعل؟». شرحت له أن محمدًا طلب من أصدقائه أن يبدأوا بتعريفه إلى فتيات بهدف الزواج. وبعد لقائه بهن كان يندب لي كيف أساءت إليه الفتيات، وكان يخبرني عن أخطائهن الواحدة تلو الأخرى. لكنه لم يطلب مني أبدًا أن أفكر في أمر الزواج به. انتظرت على أمل أن يحدث هذا.

واسيت نفسي بحقيقة أنه لا يزال ضعيفًا من الناحية العاطفية، وأنه ربما يرفضني للأسباب نفسها التي رفض بها الفتيات الأخريات: لأنه لم يكن مستعدًّا بعد. لقد شعر بأنه كلما تعرف على نساء أكثر شُفي من جراحه أسرع. وهذا الأمر أغضبني، فهذه الفتيات كن يقابلنه بأمل وقلوب مفتوحة، بينما كان هو يستغلهن ليشفي جراحه. كان يجب أن ألاحظ هذا.

أنصت إليَّ «جاك» باهتمام، ثم توقف بشكل مسرحي قبل أن يعطيني رأيه: «إن كان يعجبك فعلًا وتعتقدين أنه الزوج المناسب لك، عليك أن تخبريه».

ندبت حظي: «لكن من الواضح أنني لا أعجبه، وإلا لكان صارحني!».

«هل تعتقدين هذا؟ ربما يبادلك الشعور، لكنه يخشى المصارحة!».

قطبت جبيني بينما تابع «جاك»: «فكِّري في الأمر من هذه الزاوية. إذا كنتِ تريدين عملًا أو منزلًا فإنك تسعين للحصول عليه، أليس كذلك؟ فكري في الجهد الذي يبذله الناس في سبيل المناصب والأعمال. ومن الناحية الأخرى وعندما يصل الأمر إلى حياتهم الخاصة وإلى اختيار الشريك الذي يعتبر أهم ما في الحياة، فإنهم يصبحون سلبيين وخائفين ويأملون أن يحدث الأمر من تلقاء نفسه. عليك أن تجعلي الأمر يحدث».

دهشت من حكمته التي تشبه حكمة الخالات. كنت أسمع أصواتهن وهي تقول: «من الصعب إيجاد رجل جيد، عليك أن تقبضي عليه». كان من الواضح أن نصيحتهم هي إعطاء الأولوية لإيجاد الشريك قبل كل شيء. لقد اتفقت التقاليد والقواعد العامة على هذه النقطة.

شعرت بالمعاناة على الرغم من أنني كنت أتابع هذه المسألة لعدة سنوات، فإني لم أفهم المبدأ الكوني الرئيس خلفها: أن أفكر بوضوح وعقلانية في الطريقة التي يجب أن أسعى بها إلى الشريك المناسب.

لقد تركت الأفكار التقليدية التي كنت جزءًا منها تُملي عليَّ سلوكي. مفاهيم استقيتها من أفلام «هوليوود» و«بوليوود» تقتضي بأن يقوم الرجل بالخطوة الأولى، وأن الأمر يجب أن يحدث من تلقاء نفسه. كانت هذه الخزعبلات قد تأصلت في نفسي بشكل أعمق مما تخيلت.

على الرغم من انتقادي للتقاليد المختلفة التي كان يفضلها الناس أكثر من تعاليم الإسلام، إلا أنني وجدت نفسي أفعل الشيء نفسه. كنت أحب قصة خديجة أولى زوجات الرسول ﷺ وأقربهن إلى نفسه حين أرسلت من يتقرب

من محمد ﷺ مباشرةً لترى إن كان مهتمًا بأمر الزواج منها. ابنة الرجل الصالح أيضًا أخذت الأمور على عاتقها وطلبت من والدها أن يدعو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيتهم ويجعله يعمل معهم في تجارتهم. لقد جعلت من هاتين المرأتين القويتين المستقلتين المصممتين قدوة لي، لكني تخاذلت على الرغم من ذلك.

شرح لي «جاك» أنني إذا بُحت بمشاعري لمحمد فلن تكون نهاية الدنيا، وأنني لن أكون خائفة هكذا. تأكدت أني كنت أستطيع أن أفتح مع محمد الأحاديث نفسها التي كنت أفتحها خلال لقاءات التعارف مع الخطَّاب. ستكون بداية الحوار حول ما إذا كنا نرى بعضنا بعضًا متناسبين كزوجين. لقد مررت بكثير من هذه النقاشات. لذا يجب ألا أخاف. إذا كنت فعلًا أعتقد أن محمدًا هو الشخص المناسب، فعليَّ التمسك بفرصتي للتحدث معه حول إمكانية أن نمضي حياتنا معًا.

لقد مررت بالكثير وقابلت كثيرًا من الخطَّاب، وعملت في هذه القضية طويلًا ورفضت التقاليد، ثم وجدت مكاني فيها ثانيةً. لقد تعلمت ماهية الحب وماذا يمكن أن يفعل. إذا لم أنتهز هذه الفرصة سأخذل نفسي. قررت ألا أتراجع عن خوض الرحلة التي أوصلتني إلى هذه النقطة. لقد تعلمت كثيرًا عن نفسي مما يؤهلني لفعل ذلك.

حول فنجان قهوة جلسنا أنا ومحمد نتحدث من دون هدف عن العمل والمساجد والأدب والفن والعطلات والطعام، ثم وفي لحظة هادئة بينما نحن نرشف قهوتنا قلت له:

«أنت تعجبني.»

حدَّق فيَّ بفضول بعينين نصف مغمضتين.

«اعتقدت أنني يجب أن أخبرك، أنت تعرف..». تلعثمت وأنا غير واثقة مما سأقول بعد ذلك.

كوني شجاعة، قلت لنفسي، لقد وصلت إلى هذا الحد.

«وكنت أتساءل...». خانتني الجرأة أن أسأله إن كنت أعجبه أيضًا. خانني صوتي في هذه اللحظة. ذهب من دون رجعة فأطلقت صوتًا كالنعيب وقلت: «ترى ما رأيك في هذا؟».

ها قد ألقيت القنبلة. أمسكت بفنجاني وخبأت وجهي في السائل الداكن. شعرت بصمت مطبق في الغرفة.

استمر في صمته. في البداية اعتقدت أن السبب هو إطلاقي لعبارة غير متوقعة. ربما هو يفكر فيما قلته. ربما حركت كلماتي مشاعره المخبأة، لكنه لا يزال صامتًا. الآن وبعد أن فكر، لا بد أنه يصيغ الكلمات للتعبير عن عمق مشاعره. بدأت أشعر بالقلق. من المؤكد أن مشاعره ليست بهذه الفخامة والثقل لدرجة أنه يحتاج كل هذا الوقت لإعلانها.

تململت وأردت أن أكسر الصمت، لكن ذلك يعني أنني يجب أن أكرر ما قلته للتو - الأمر الذي سيفاقم الصمت أكثر فأكثر - أم إن عليَّ أن أغيِّر الموضوع. لقد صرفت كثيرًا من الطاقة والشجاعة لأقدم له هذا العرض، لدرجة أنني أفضل الانتظار لأسمع ما سيقول. لن أغيِّر الموضوع الآن.

كان يجب أن أفهم أن هذا الصمت كان نذيرًا بالشر، لكنني أردت أن أسمع. أن أتأكد. الرفض مؤلم، لكنني سأذهب على الأقل وأنا أحمل شرف المحاولة. كان يجب أن أجد طريقة للشفاء من اقترابي الشديد من الزوج الذي كنت أبحث عنه، لكنني فشلت في الحصول عليه.

إن شجاعتي بسؤاله عن مشاعره بصراحة كانت على وشك أن تؤتي ثمارها؛ لأن رد فعله كشف لي الكثير عن وضعه العاطفي. كشف في لحظات أشياء لا تستطيع سنوات طويلة من الزواج أن تكشفها، فقد علمتني الحياة أن الناس يكشفون شخصياتهم الحقيقية في أوقات الضغط العاطفي الشديد.

لقد كان جوابه أفضل وأوضح مما كنت أتوقع. فكل ما أبداه كان تجاهلًا لشجاعتي وحساسيتي، مما جعل الأمر واضحًا بقسوة، فهو لم يكن يناسبني كشريك حياة كما كنت آمل.

كان الجواب أسوأ مما توقعت، فهو لم يكتفِ بسحق مشاعري، بل إنه فعل ذلك من دون احترام أو رفق.

قال وهو ينظر إلى قهوته: «شيلينا، أنا عالم. وقد اكتشفت لتوي أن نظرية النسبية لـ«أينشتاين» قد لا تكون صحيحة. وهذا الأمر قد قلب عالمي رأسًا على عقب ولا أستطيع أن أفكر في أي شيء آخر الآن. لا شيء، أنا منهك». قالها وتابع رشف قهوته.

الباب الثامن

أزمة عالمية

نظرة من فوق الرف

الشفقة

بدأت الخالات يشفقن عليَّ، «هذه الفتاة اللطيفة». كن يتعجبن. «وهذه الأخلاق».

قالت إحداهن للأخرى وهي تشد على الكلمات: «لا أفهم كيف لم تتزوج».

كنت أتوقع أن يلقين اللوم عليَّ لعدم الزواج أبكَر، أو لعدم اختيار أحد العرسان غير المناسبين الذين تقدموا، لكنهن لم يفعلن، وقد أدهشني موقفهن.

«جميلة جدًّا وذكية جدًّا ومحبوبة ومتدينة، لا أتخيل من ذا الذي يصلح لها».

تنهدت الأخرى في المقابل.

مكتبة الرمحي أحمد

تأثرت كثيرًا بتعاطفهن. تُرى هل نسين التواطؤ لتعذيبي، في أثناء عملية البحث؟ أم إنهن كن يقمن برحلتهن الخاصة؟ كن يدرن رؤوسهن لمواجهتي في كل مرة أظهر فيها ثم يربتن على شعري بمحبة: «عندما تجدين الرجل المناسب ستعلمين أن الأمر جدير بالانتظار». كن يواسينني: «أنت لا تزالين شابة وجميلة جدًّا. لديك وقت! سيكون الرجال مجانين إن لم يتزوجك أحدهم».

شعرت بالدموع تطفر من عيني. كنت أحس أنني حققت الكثير: التعلم والاستقلالية والمركز والسفر. وخلال ذلك كله كانت علاقتي مع عائلتي حميمية جدًّا، وكذلك علاقتي مع مجتمعي وديني، ومثل أية فتاة عازبة مسلمة ناقشت تعقيدات النشأة في بيئة جديدة وضرورة التفوق في مجالي العلم والعمل والمحافظة على احترام الأصول والأديان والجنسيات الأخرى. كنت مستقلة واجتماعية وعصرية ومحافظة. وباختصار فقد كسبت احترام الخالات.

سواء أكانت كلماتهن مؤلمة أم حنونة، فإنهن كن يفتحن الموضوع الذي أرغب فيه أكثر من أي شيء آخر في العالم: الرفقة. بالنسبة إليهن كان الزواج مصدرًا للمكانة الاجتماعية ونوعًا من المحافظة على التقاليد. كانت هيكلية الزواج تناسبهن جدًّا، إذ منحتهن المكانة والاحترام.

وكانت هناك ناحية من الزواج بدأن يشرحنها لي في هذه المرحلة المتأخرة، وكنت أتمنى لو أنهن فعلن ذلك منذ البداية: الاكتفاء بوجود شخص إلى جانبك. وقد عبَّر والداي عن عاطفتهما بالقول: «نريدك أن تحصلي على شخص لك أنت يرافقك دائمًا وتخرجان معًا، أحد ما يشاركك كل شيء».

كانا محقين. كنت قد فعلت كل ما أريد أن أفعله وحدي، ولم أسمح للتوقعات أو الثرثرة أو النمطية أن تعيقني. اكتشفت أني أستطيع فعل كل ما أريد وحدي، لكنني لم أعد أريد أن أفعل هذه الأشياء وحدي بعد الآن. ستكون التجارب أغنى وأقوى إذا اقتسمتها مع شخص آخر. في الماضي حلمت بفارس الأحلام ولا أزال، لكن الآن أصبح الرفيق الحنون يكفيني، شخص أمضي الوقت معه ونكبر معًا، شخص ما، أي شخص، هل هناك أحد؟!

الخالة «جيم»: «يجب أن نجد زوجًا لشيلينا».

الخالة «هاء»: «ما رأيك في ذلك الطبيب اللطيف؟ ما اسمه؟ اسمه يبدأ بالميم. هل هو مهدي، مسعود، مالك؟».

الخالة «جيم»: «مازن؟».

الخالة «هاء»: «لا... لا... دعيني أتذكر».

الخالة «جيم»: «موسى؟».

الخالة «هاء»: «لا ليس موسى، وليس منيرًا أيضًا».

الخالة «جيم»: «مالكولم؟».

الخالة «هاء»: «مالكولم؟ مَن «مالكولم» هذا؟».

الخالة «جيم»: «ابن «سابين». أنت تعلمين أنهم كانوا منفتحين جدًّا وعندما وُلد الأطفال أطلقوا عليهم أسماء من كل الأنواع. ولكن «سابين» اليوم أكثر تدينًا من مولانا نفسه! هل تقصدين محبوبًا؟».

الخالة «هاء»: «نعم، نعم. هو محبوب!».

الخالة «جيم»: «لكن عمره ٥٠ سنة تقريبًا! كبير جدًّا عليها! وقد طلق زوجته مؤخرًا، ولديه ثلاثة أولاد يعيشون معه. لا، لا، لا! ليس مناسبًا. وتعلمين أنه كانت هناك إشاعات فظيعة عن أسباب ترك زوجته له. صديقات وعلاقات وكحول».

الخالة «هاء»: «لا يمكنها أن تتطلب كثيرًا، بالنسبة إلى عمرها، وبعد أن رفضت كل هؤلاء الشبان الجيدين. إنها صعبة الإرضاء وتعلمين ماذا حصل للغراب المتطلب!».

أصدرت الخالة «جيم» تنهدًا قلقًا يدل على تفهمها للأمر.

الخالة «هاء»: «ترفَّع الغراب المتطلب عن المقتنيات الثمينة فانتهى به الحال جالسًا على كومة من الروث»!

الغضب

حيثما ذهبتُ كان الناس ينظرون إليَّ بحزن. لم يستطع المجتمع أن يفهم لماذا لم يخطفني أحد للزواج. وفي ذهني كنت أعيد الحوارات التي كنت أود التحدث معهم فيها.

«لقد قلتم إنني متعلمة زيادة، ولن أكون زوجة جيدة.»

«لقد قلتم إن الشبان يريدون فتاة أصغر سنًّا...!»

«لقد قلتم إنني متدينة زيادة...»

«لقد قلتم إنني لم أكن متدينة كفاية...»

شعرت بالغضب والاستسلام، ولزيادة الطين بلة لم أكن الفتاة الوحيدة الجالسة على الرف. كان هناك أعمال شغب حقيقية على ذلك الارتفاع!

لقد بدأ المجتمع أخيرًا يدرك أن هناك مشاكل، وأن إيجاد الشريك المناسب أصبح أكثر صعوبة. والغريب كان وجود الكثير من الفتيات العازبات، مع نقص غامض في أعداد الشبان العازبين. بعضهم اختفى تمامًا وبعضهم الآخر كان مستمرًّا في الذهاب إلى «البلد» للزواج. وهذا كان حقهم طبعًا، إن اختيار الشريك هو أمر شخصي بحت. لكن نتيجة قرارهم هذا ترتب عليها حدوث فجوة وخلل في نظام الزواج، إذ بقيت الفتيات المتعلمات اللواتي يحملن التجربة نفسها والقيم البريطانية الإسلامية الجديدة من دون زواج. لماذا لا يفكر الرجال بالطريقة نفسها فيما يعنيه حسن اختيار الزوجة؟

بدا لي أن الجواب هو أن النساء أجبرن على إعادة تعريف أنفسهن من خلال الفرص والتجارب التي عشنها. لقد تغيرت معايير الأنوثة، وتم تحديثها لتتناسب مع التحديات التي تواجهنا. والنتيجة كانت بروز نساء أكثر قوةً وذكاءً. ينقصنا أن يبادر الرجال بدورهم إلى شحذ قواهم وتحديث معايير رجولتهم، لكنهم وبدلًا من أن يتصدوا للتحدي شعر بعضهم بالتهديد من تلك النساء النشيطات القادرات الراغبات في حياة روحية ومادية فعالة، ومن لم يشعر بالتهديد تجاهل وجودهن تمامًا.

إن ما نحتاجه هو إعادة تقييم جماعية لما تعنيه كلمة رجل وما تعنيه كلمة امرأة، إعادة هيكلة للأنواع الجديدة تعود بنا إلى جذور الإسلام، حيث كان الرجال والنساء شركاء ورفاقًا، وليس كيانًا مفككًا ومختلًّا من الناحية الوظيفية كما هي الحال الآن. ولن ننسى ما جاء في القرآن: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ (الروم: ٢١). إن الهيكلية النوعية تعني عمل المجتمع بطاقته الكاملة - وهذا ينطبق على مجتمعي الصغير كما ينطبق على المجتمع الأوسع - حيث أصبحت الرؤية ضبابية أو ضاعت كليًّا، مما يعني فقدان القدرة على حب بعضنا بعضًا لما نحن عليه فعلًا.

هل كان الضغط الاجتماعي والألم اللذين تحملناهما أنا وصديقاتي هما الثمن الذي يدفعه الرواد عند إحداث التغيير؟ لم يكن لدينا أحد نشير إليه على أنه قدوتنا، فكسرنا القوالب بأنفسنا. حتى بعض المساجد والأئمة كان بحاجة إلى التغيير: لا تحتاج الشابات فقط إلى تعلم أصول العلاقات وروابط الزواج، بل الرجال أيضًا، لكي نستطيع تدارك هذا الخلل في عملية الزواج والبحث عن الشريك. ما الفائدة من لوم النساء على عزوبتهن، أو على ارتفاع نسب الطلاق، إذا لم يكن الرجال مستعدين، أو لم يملكوا مهارات التعامل مع حالات الزواج؟

اجتمع الكبار ليناقشوا المشكلة واتفقوا على وجود مشاكل كبيرة تتعلق بترتيب زيجات لائقة والحفاظ عليها. اتفقوا أن يجتمعوا ثانيةً ويناقشوا هذه المشاكل، ثم استأنفوا وناقشوا قضية تزايد المشاكل وأشاروا إلى أن حلها هو أولوية اجتماعية. فعماد المجتمع في النهاية هو هذا النسيج المؤلف من العائلات المتماسكة. نظموا سلسلة من ندوات العصف الذهني لطرح الأفكار وإدراجها في المجتمع. عقدت الحلقة الاجتماعية اجتماعاتها واتفقت على أن حجم المشكلة أصبح كبيرًا جدًّا، وأنه يستحسن البدء في حلها. والنتيجة التي اتفقوا عليها جميعًا هي أنه من المهم للشباب أن يتزوجوا، ومن هنا فإنهم سيستشيرون خبراء في الموضوع. أما الخبراء فاتفقوا على أن المشكلة عويصة، وأنه لا يمكن السكوت عنها، وأنه إن لم يوجد حل فإن الأمور ستنتقل من سيئ إلى أسوأ، وأن القضية بحاجة إلى حل سريع، وأنهم سوف يستأنفون مناقشة القضية.

الحزن

زار والداي عددًا من المساجد المحلية لطلب مساعدة الأئمة والشيوخ، وفي أحد المساجد سحب الشيخ الطيب مجلدًا كبيرًا من درج مكتبه. أدار المجلد الضخم ليضعه أمام والديَّ اللذين كانا يجلسان على الطرف الآخر من المكتب. احتوى المجلد على أوراق بالحجم العادي موضوعة داخل مغلفات شفافة، فيها تفاصيل الأشخاص الذين كانوا على عجلة من أمرهم في موضوع الزواج، لدرجة أنهم قرروا وضع إعلانهم في الكتاب الكبير. كانت الصفحة تحتوي على صورة المتقدم وسيرته الذاتية.

تتالت صفحات وصفحات لشبان يبحثون عن شريك يكملون معه أنفسهم ودينهم. كانت تلك صحيفة مجتمعية من زمن ما بعد الحداثة، تعبر

عن الفشل الجماعي في تأمين الزواج السعيد وعن الخوف الفردي من عدم إيجاد الشريك. اقترح الشيخ على والدي أن أضع صفحة خاصة بي مع صورة وأن أذهب إلى المسجد لاستعراض المجلد معه، باعتباره المسؤول عن أفضل كتاب للعزَّاب. لم أستطع أن أتقبل فكرة وضع إعلان مع صورة في كاتالوج الزواج كي يراه الجميع. هل يجب أن أعيد ترتيب الأولويات بين الحفاظ على كرامتي والحصول على عريس؟ أدركت من رد فعلي تجاه الكتاب أنني لم أكن قد تقبلت تمامًا بعد أن الاعتراف بالبحث عن عريس فكرة مقبولة.

كانت نسبة العزوبية تتزايد من حولي - نساء من كل شرائح المجتمع تعاني. كنا نفكر جماعيًّا في العمل. «إيما» كانت عازبة، وكذلك «إيلين» و«نيكولا». ويا للغرابة، كان الرجال كلهم متزوجين أو مرتبطين بعلاقات جدية. ما سبب هذا الانفجار الكوني للعزوبية إذن؟

كنا ندلل أنوثتنا بشراء المجلات النسائية البراقة ونتصفحها في استراحات الغداء ونتناقش في العناوين ونضحك على الادعاءات المهمَّة، وحالة الحداد التي أعلنتها المجلات شفقة على النساء العازبات.

اختارت «إيما» إحدى المقالات وقرأت بصوت عالٍ: «علينا أن نحب أنفسنا قبل أن يحبنا الآخرون».

أجابت «إيلين»: «إذًا يعني هذا أننا إن كنا عازبات فإننا غير محبوبات، وإننا غير مستعدات للحب». توقفت ثم أردفت: «هذا مريع. أنا أنسحب من الآن».

قرأت «نيكولا» بصوت عالٍ سلسلة من النصائح في مجلة أخرى: «من يحتاج الرجال؟»، «الاستقلالية هي أفضل»، «عيشي حياتك»، «إن لم يكن هو الشخص المناسب لا تضيعي وقتك معه، وانتقلي إلى الذي يليه».

صرخت باحتجاج على هذه المنشورات البراقة: «هذا جنون، يا للمجلات السخيفة! لقد جربنا العزوبية وقررنا أننا نريد رجالًا! يمكننا أن نكون مستقلات في حياتنا، وأن نكون على علاقة برجل في الوقت نفسه. ماذا لو لم يكن هناك ما نسميه الرجل المناسب؟ ربما يجب علينا تحويله إلى الرجل المناسب.

لطالما لاحظت أن الرجال المتزوجين يبدون أكثر جاذبية بالنسبة إلى الفتيات العازبات، لأنهم أكثر اتزانًا، ومنفتحون، وقادرون على التعامل مع النساء. وقد يعود ذلك إلى أنهم بالفعل متزوجون ومعتادون على قضاء الوقت مع امرأة. ربما يجب علينا أن نختار رجلًا نجد فيه القدرة على التطور، ونأمل أن نغيره بعد الزواج ليصبح الرجل المناسب. وكما تقول الخالات: إن الزواج يشبه النهر وقاعه، فالقاع يتشكل حسب شكل النهر ويصبح الاثنان مع الوقت نسيجًا واحدًا.

وربما كان والدي على حق طوال الوقت. كان قد نصحني أن أختار رجلًا يتمتع بأربع مزايا من أصل الستة المهمة بالنسبة إلي، وأن أعمل على تحسين الباقي فيما بعد. ويعني ذلك أن لا أحد كامل، ولا حتى أنا.

قالت «إيما»: «ربما أكون متشائمة، لكنني أعتقد أن المعلنين في المجلات يريدوننا أن نبقى عازبات حتى ننفق نقودنا على الماكياج والزينة التي يبحث عنها الرجل المناسب المراوغ. لكنني أنفقت كل نقودي ولا أزال من دون رجل!». تركت «إيما» اكتئابها يعيث فسادًا في الحوار.

تابعت قائلة: «ربما أرادوا خداعنا كي لا نصبح زوجات مطيعات ونحن وقعنا في الفخ! ربما كان عليهم أن يعلمونا العادات القديمة للحياة الزوجية مثل ترتيب ميزانية البيت، وإنفاق النقود بحكمة على شراء أواني الطعام والمربى».

ضحكنا بصوت عالٍ من فكرة حفلات الشراء المنزلية لأواني الطعام. أضافت «إيما»: «أعتقد أن أواني الطعام لا تتمتع بجمال وجاذبية الملابس ذات الماركات المشهورة».

ربما يوجد حل وسط سعيد لم تدركه المجلات بعد، أو لم تعترف به، وهو أننا نستطيع أن نكون سعيدات مع رجل شبه مناسب، ونحن نعلم أننا لسنا كاملات أيضًا، لكننا في الوقت نفسه يمكن أن نكون عصريات وجميلات. والأهم من هذا فإن المجلات لم تُرضِ طموحنا في الإحساس بالرضا عن الذات. لا عجب أننا كنا نشعر بالضغط باستمرار.

استلمت «إيما» الحديث لتتكلم عن خيبتها في عطلة نهاية الأسبوع: «كنت أشبينة في حفل زفاف حيث كان الجميع برفقة أحبابهم باستثنائي أنا. حتى الأشبين كان مرتبطًا! ما العيب الذي فيَّ؟».

أجابت «جاكي»: «الرجال العزَّاب المتوفرون هم الفاشلون الذين ابتعد عنهم الجميع وكأنهم سلة مهملات قذرة». كان تشبيهًا مروعًا، لكننا تركنا المسألة تمر من دون تعليق - لقد بدت ذاهلة نوعًا ما، «كلهم يبدون مثل شخصية «جورج» في مسلسل «ساينفيلد»».

ارتعدنا كلنا من القرف والتعاطف.

التفتت إليَّ «إيلين» وقالت بغيرة: «على الأقل أنت لديك أشخاص يساعدونك في البحث».

«هذا صحيح»، وافقتها، «إن عملية البحث صعبة جدًّا حتى باستعداد الناس والخَطَّابات للمساعدة في ترتيب اللقاءات، فما بالك إن كان عليكِ أن تفعلي ذلك وحدك؟».

أدرت رأسي وحاولت ابتلاع دموعي. فعلى الرغم من تدخل عائلتي لطلب المعونة من كثيرين لإيجاد العريس إلا أن لقاءات التعارف أصبحت نادرة هذه الأيام. كان يكثر هز الرؤوس ويقل التنفيذ، والعروض القليلة التي أتت كانت غير مناسبة البتة، لكنني كنت مجبرة على التفكير فيها إذ بدا من التهذيب أن أظهر بعض التقدير للمبادرات التي تطوَّع الناس لتقديمها إليَّ.

قابلت عارفًا الذي كان يعيش في هنغاريا وحده خلال السنوات العشر الماضية، وقد عاد الآن للبحث عن زوجة. كان في أوائل الأربعينيات، وقد رضخ أخيرًا لمطالب أمه التي عانت الأمرَّين من هذا الموضوع، والتي قالت له بأنه من غير المسموح أن يبقى من دون زواج، وأنه يجب أن يتزوج وينجب في الحال. كان قد عانى كثيرًا للحصول على عمل في بريطانيا، لكنه وجد عملًا كمدير مالي في شركة استثمار صغيرة في إحدى الضواحي المنعزلة خارج بودابست. وعلى الرغم من السنوات العشر التي قضاها هناك، إلا أنه ذكر بفخر أنه لم يختلط بالمجتمع، وليس لديه أصدقاء، وأنه لم يكن يعرف حتى أين يقع المسجد، ولا أماكن تجمع الجالية، كما أنه لم يشعر بضرورة الانخراط في الحياة الهنغارية أو التعرف إلى السكان المحليين. وهو يتوقع أن يعيش هناك طويلًا، ويعتقد أن زوجته ستكون سعيدة بالعيش في شقته المؤلفة من غرفة واحدة. إن تعلم اللغة الهنغارية والعمل والحياة الاجتماعية لم تكن من العوامل المهمة لراحة الزوجة وسعادتها وفق حسابات عارف.

على الأقل كان عارف يحمل أوراق الهوية ويحمل الجنسية، بينما وصل نبيل إلى بريطانيا زائرًا كفرد من جالية صغيرة مقيمة في الكويت، وقد أتى خصيصًا ليبدل بجوازه الحالي جوازًا بريطانيًّا. وقد قيل لي بأن هذه القضية هي لِ صالحي، فهو يحتاج إلى أن يقابل فتاة ويتزوجها على وجه السرعة لتأمين الأوراق الرسمية، مما يعني أنني لن أضطر إلى الانتظار طويلًا للحصول على أوراق إقامتي في الحياة الزوجية السعيدة.

«أصغر» وصدِّيق وجابر، كلهم توالوا، لا تفصل بينهم إلا فترات زمنية قصيرة، كلهم من دون فيزا، وكلهم من دون عمل وكلهم غير مناسبين. أما توقعاتهم في المرأة والزوجة والزواج، فكانت مختلفة تمامًا عن توقعاتي. لقد نشأوا على فكرة أنماط الزواج التقليدية في الزواج التي استقوها من الحياة «في البلد»، ولم ينخرطوا بعدُ في ضغوط الثقافة والتحديات الجديدة التي واجهتُها أنا، مما أدى إلى وصولنا إلى نقاط مختلفة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والعائلية.

الزوجة هي الزوجة والزواج هو الزواج في رأيهم. وطبيعة العلاقة والتوقعات هي نفسها بصرف النظر عن الجغرافيا والثقافة. الفرق الوحيد هو أن هذا الزواج يتمتع بميزة الحصول على جواز سفر بريطاني. لم أفكر أبدًا أن أفضل صفة لديَّ ستكون امتلاكي للجنسية البريطانية. تساءلت عما إذا كانت سيرتي الذاتية قد تقلصت لدرجة أنها أصبحت تحوي فقط عبارة: عازبة تحمل جواز سفر بريطاني.

العـار

وضع أحد الأعمام الطيبين قطعة مهلهلة من الورق في جيب والدي بعد صلاة الجمعة. كان متكتمًا وحاول ألا يراه أحد وهو يفعل ذلك. كان من المهم ألا يراه أحد وهو يمرر تلك المعلومة الخطيرة إلى والدي، وألا يرى أحد والدي وهو يستلمها. همس لوالدي بتكتم: «قل لشيلينا أن تلقي نظرة على هذا. كلنا نريد لها الخير». أسرع خارجًا من قاعة الصلاة من دون أن يلتفت إلى الوراء.

فتحنا القصاصة المهترئة أنا ووالدي حين أصبحنا وحدنا في البيت. كان فيها عنوان لموقع إلكتروني، لكنه لم يكن موقعًا عاديًّا. كان موقعًا إلكترونيًّا

للزواج. في ذلك الوقت كانت شبكة الإنترنت لا تزال جديدة نوعًا ما، غير مختبَرة وغير موثوق فيها بعد. عمت حالة من الهستيريا العامة حول موضوع الإنترنت نفسه، فما بالك بموقع إلكتروني للزواج على الإنترنت؟ كان العم مصدرًا موثوقًا ذا مكانة عظيمة في مجتمعنا؛ لذا فقد أتى هذا الخيار الإلكتروني مع دفعة قوية من المصداقية والثقة، وأيّد والدي فكرة البحث عن الشريك على الإنترنت.

زرت الموقع الذي كان يحوي آلاف الصفحات من المعلومات الشخصية. لم تكن هناك أسماء، مجرد أرقام وكمية هائلة من التفاصيل. بنك للسير الذاتية الإلكترونية. يمكنك إجراء البحث حسب العمر أو الدولة أو المدينة وحتى حسب الطول، على الرغم من أن مسألة الطول تلك لا تزال تحزُّ في نفسي حتى الآن. ثم كان هناك قسم حر تستطيع من خلاله كتابة وصف ذاتي وقسم آخر لكتابة مواصفات الشريك الذي تبحث عنه.

قررت أن أبدأ البحث، فاخترت فئة أنثى تبحث عن ذكر. ثم اخترت شريحة عمرية واسعة لأنني لم أكن أريد أن أفوِّت شخصًا قد يكون قريبًا جدًّا من الرجل الكامل بسبب معاييري الصارمة. في خانة الدولة اخترت بريطانيا، لكنني تركت خانة المدينة فارغة، وتجنبت عن عمد كتابة أي شيء في خانة الطول.

عاد عليَّ البحث بمئات النتائج. وكان من المفترض أن أشعر بالحماسة والبهجة لهذا العدد الكبير من العرسان المحتملين المنتظرين لعروس الإنترنت. وبدلًا من ذلك شعرت أنني أنوء تحت ثقل كل تلك المعلومات الشخصية التي كان عليَّ تفحصها واحدة واحدة لأرى إن كانت ثمة خيارات جيدة. هيأت نفسي لسباق طويل وشاق في مواجهة شاشة الكمبيوتر.

ولدهشتي، بدأت أدخل في حالة من الإدمان على قراءة المعلومات. كنت أقرأ الصفحة تلو الأخرى، هذه هي الأخيرة، لا بل هذه هي الأخيرة. وقد اختبرت لحظات اكتشاف مفاجئة: فها أنا أكتشف مجموعة كبيرة من العزَّاب المسلمين! لكن أي نوع من الرجال هم يا ترى؟ هل بهم عيوب حتى التجأوا إلى البحث على الإنترنت؟ إذا كنت أنا على وشك أن أضع تفاصيل شخصيتي على موقع الزواج، فهناك احتمالان لا ثالث لهما: الأول أن أكون طبيعية وفي هذه الحالة يكونون هم أيضًا طبيعيون، أو أن يكونوا غريبي الأطوار وبهم عيوب، وفي هذه الحالة أكون مثلهم أيضًا. أعفيت نفسي من الشكوك واعتبرت أننا كلنا طبيعيون. لقد كان ذلك أكثر التحليلات منطقية.

لقد ترك بعض الرجال المكان المخصص لمواصفاتهم فارغًا تمامًا. يبدو أنهم لم يكونوا مستعدين أن يضيِّعوا الوقت في كتابة وصف لأنفسهم أو لما يبحثون عنه. وقد استبعدتهم مباشرةً، لأنه كان من الواضح أنهم لم يكونوا جديين في الموضوع. وكتب البعض الآخر مقالات طويلة قرأتها بعناية، بعضها كان متسلطًا، وبعضها مغرورًا، وبعضها صريحًا ومضحكًا. لقد ذكروني بالإعلانات غير الواقعية وغير المتوازنة التي كنت أستمع إليها في إذاعة «نور الشمس» عندما كنت صغيرة. إعلانات الإنترنت، كان أهل الشاب يرسلونها أحيانًا.

وبين فينة وأخرى كنت أجد صفحة شخصية جذابة، يبدو صاحبها حساسًا وعقلانيًا بشكل يقفز من الشاشة ليلامس قلبي بذكائه ومرحه وروحانيته. مثل هذه الإعلانات، كنت أقطعها وأضيفها إلى قائمتي، لكنني كنت لا أزال مترددة في الانتقال إلى المرحلة التالية والالتزام فعلًا بالبحث عن طريق الإنترنت.

حتى في هذه المرحلة، كنت أعتبر أنه من المعيب البحث عن طريق الإنترنت. إذا تابعت الموضوع عليَّ أن أكشف نفسي، وأن أشارك الناس

بتفاصيل عن حياتي. صحيح أنني سأكون مجهولة الاسم، لكنني سأضطر إلى الالتزام والمتابعة. سأحتاج إلى مشاركة معلومات عن نفسي، وكنت شبه متأكدة أن الناس سوف يستنتجون مَنْ أكون، وسوف يذيعون الخبر بأنني أبحث عن عريس على الإنتر«عيب». وربما شعرت أن رغبتي الملحة في الزواج قد محت كرامتي، وكنت أحاول أن أتمسك بما تبقَّى لديَّ منها.

لأسابيع عدة، راقبت ما يحدث بحيادية، لكن في أحد الأيام جذبت انتباهي إحدى الصفحات وقررت أن أغامر. كان الشاب في مثل عمري تقريبًا، يعيش في لندن، وقد كتب وصفًا جذابًا لنفسه وأظهر التزامه بالعثور على المرأة المناسبة، لكنه لم يكن أنانيًّا أو مغرورًا. كي أتمكن من مراسلته كان عليَّ أن أرسل ملفي الشخصي، وهو أمر قررت أن أفعله أخيرًا.

لقد عدت من جديد إلى جحيم كتابة السيرة الذاتية. هذه المرة كانت لديَّ فرصة للتحدث عن طموحاتي وعن نفسي كما أريد، وأن أرسل السيرة مباشرة إلى من يهمه الأمر فعلًا. كما كنت قادرة أيضًا على كتابة مواصفات مفصلة عن الشخص الذي كنت أبحث عنه. كان هذا الأمر سيساعدني على اتخاذ القرار فيما لو تجاوب مع أفكاري. أمضيت ساعات مرهقة وأنا أصيغ كلماتي بعناية. ثم ضغطت أخيرًا زر الإرسال. وها أنا قد أعلنت رسميًّا، وعلى الملأ، أني أبحث عن عريس عبر الإنترنت.

أصبح البحث إدمانًا، فمن الواضح أن هناك الكثير من العرسان المحتملين على الإنترنت، وها أنا ذي أرى وأقرأ آلاف الملفات الشخصية لرجال باحثين عن الزواج في كل أنحاء العالم. بدأت أقرأ وأسمع عن الأشياء التي تحدث في أماكن أخرى من العالم، والتي لم أكن أعرف عنها شيئًا. لقد كان عالمًا جديدًا، مليئًا بأشخاص مثلي. إن قراءة الصفحات وإرسال الرسائل الإلكترونية الغريبة والتدقيق في كل كلمة وحرف لمعرفة ما إذا كان صاحب الصفحة

يملك المفتاح لإيصالي إلى مكان مميز، أصبح من الأمور المشوقة جدًّا. توقفت لقاءات التعارف العائلية في هذه الفترة كليًّا، يقابلها من الجهة الأخرى فيض من الخيارات التي تراوحت، على الإنترنت، بين الشنيع والواعد.

أمضيت بضع ساعات كل أسبوع في استعراض مواقع زواج مختلفة، وكنت أقرأ صفحات شخصية جديدة وأعيد قراءة القديم منها، ثم أرسل طلباتي أو أجيب عن طلبات أشخاص آخرين. وبين الفينة والأخرى يكون هناك نوع من التجاوب بين الطرفين، فننتقل إلى إرسال إيميل تمهيدي، وإن سار الأمر على ما يرام كانت تليه سلسلة من الإيميلات المحمومة. لقد تلاشى الخجل المعتاد من لقاء شخص ما، أو من عدم معرفة الشخص الباحث عن الزواج أو اهتمامه الفعلي أم لا.

وقد أتبادل حديثًا مع أحد الشبان يذكر فيه كيف رُفض طلبه للزواج، أو نُسي أمر تقديمه إلى العروس بالطرق التقليدية، لأن الطرف الثالث كان مشغولًا جدًّا للتدخل في المسألة. كنا نضحك على الإنترنت ونحن نتبادل هفوات وعيوب عملية التزويج. وقد كان من المشجع أن أتمكن أخيرًا من مشاركة هذه التجارب والمشاعر بهذا الشكل المنفتح. إن عزلة الإنترنت وسرية الأسماء التي توفرها سهلت الأمر بشكل ملحوظ. شعرت بأني لست وحيدة في هذه المعمعة.

كانت هناك صفحات شخصية من الشرق الأوسط وكندا وأمريكا وأستراليا، وفي الحقيقة من أي بلد يخطر في البال. تبادلت الإيميلات عبر المناطق الزمنية لأسمع ما يحدث حول العالم، ووصلت إلى نتيجة بسيطة وواضحة: كلنا نبحث عن الشيء نفسه. كلنا نرغب في العثور على شريك أو على شخص نحبه، وكنا جميعًا نتابع الأمر بكثير من اللباقة والاحترام. لقد فتحت الاتصالات العالمية عالمًا جديدًا لي وللمسلمين الذين كنت أتواصل

معهم، فتعلمت الكثير عن أماكن وبلاد جديدة، ووجدت أصدقاء مراسلة في الأصقاع البعيدة. وبفضل العولمة والتواصل السهل مع الناس حول العالم، تغيرت كل المقاييس. في لقاءات التعارف العائلية، قابلت بعض الرجال الذين أتوا من الخارج إلى بريطانيا للبحث عن زوجة. لكن هذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها أن أبادر إلى تقديم نفسي إلى رجل موجود في أي مكان على الكرة الأرضية. كان هذا تغيرًا عامًّا مهمًّا في العالم وفي المجتمع الإسلامي، إذ أصبح بإمكاننا التواصل بسهولة وبسرعة مع أي شخص في أي مكان.

ومع ازدياد ثقتي وإحساسي بنفسي وجدت هذا التواصل الكوني محررًا ومثيرًا جدًّا. كان بإمكاني الذهاب إلى أي مكان والتحدث إلى أي شخص في أي موقع. لقد انسجم الأمر مع طبيعتي كمواطنة عالمية، وعزز من إحساسي بديني، لأن اللغة والقيم التي كنت أستخدمها كثروة لي كانت قادرة على اجتياز الحدود والثقافات. وقد عكس هذا التواصل العالمي تغيرًا في المجتمع الإسلامي الواسع أيضًا. فالمكالمات الهاتفية أصبحت أرخص، كما دعمتْ شبكات الإنترنت وتبادُل الأخبار الأواصر بين المسلمين الموزعين في الشتات، وعكست النزعة العامة للتواصل وخلق مجتمعات موزعة عبر البلاد والمناطق المختلفة. لم تعد الحدود الجغرافية عائقًا، بل سادت المشاركة في الاهتمامات والدين والفعاليات الدراسية. أصبح بالإمكان تبادل الأخبار والفعاليات والموضات والنكات في كل أصقاع هذه القرية العالمية. وإحدى هذه القرى كانت «قرية العزَّاب المسلمين» التي كنت آمل أن أقطنها لفترة موقتة فقط.

أتاح الإنترنت أيضًا الفرص، للمسلمين الذين نشأوا وترعرعوا في بريطانيا أو غيرها من الدول الغربية، لاستكشاف الهويات المتعددة الجديدة التي طورتها كل فئة على حدة من دون أن تعرف مع مَنْ ستتشاركها. تفجرت المجموعات الإخبارية والنشرات والمدونات على الإنترنت بنمو مطرد من

الفعاليات والكتابة والآراء. وإن كنت في فترة مضت قد شعرت بالوحدة وأنا أحمل الهوية البريطانية الآسيوية المسلمة المتعددة الوجوه، فقد بدأت أعرف أن هناك أشخاصًا كثيرين غيري يحملون الشعور نفسه.

كان من المثير استلام رسائل من أماكن مختلفة من العالم، وكانت مبادرات محترمة ومباشرة من رجال يبحثون فيجدون صفحتي الشخصية مثيرة للاهتمام. كانوا مهذبين بشكل عام، ومدركين للإطار الخاص بالبحث عن زوجة. لم تعد هناك حاجة إلى وسيط أو طرف ثالث، بل أصبح بالإمكان التعرف إلى الشخص مباشرةً. كانت الرسائل تحمل إليك أشياء غير متوقعة من أشخاص يهتمون بالتعرف إليك. إن سحر استلام رسالة في منتصف يوم عمل شاق هي شيء رائع، وفي بعض الأحيان وحين تتخطى الإيميلات مرحلة معينة، تبدأ مرحلة مشاهدة صورة الشخص أو رفع سماعة الهاتف لسماع صوته.

حاولت ألا أتسرع بشأن قضية الصور، فالصور قد تكون خادعة. أما التحدث على الهاتف فيمكن أن يكشف أكثر. لم أعطِ رقم هاتفي لأحد، بل كنت أطلب أرقام هواتفهم، ثم أجري حديثًا قصيرًا ومختصرًا معهم. تعلمت أن الإيميلات يمكن أن تكون مضللة، إذ من السهل أن تقرأ بين سطورها ما تريد أنت أن تقرأه. حتى على الهاتف يفتقد المرء الحضور الشخصي للمتكلم والدلائل غير اللفظية التي قد تكشف المواصفات الكامنة.

إن التواصل مع شخص مجهول على الهاتف أو الإنترنت هي مهارة امتلكتها وصقلتها نتيجة عمليات التعارف العديدة التي مررت بها، لكنني كنت أشعر هنا أني بحاجة إلى المزيد من الحذر. هؤلاء أشخاص لم يأتوا بتوصية من أحد ولا أعرف أية معلومات عن خلفيتهم. وفي المناسبات النادرة التي وصل فيها الأمر إلى مرحلة لقاء أحدهم، كنت أتوخى الحذر وأضع سلامتي في المقام الأول. لذا كنت أصطحب معي أحدًا أو نُجري اللقاء في مكان عام، وطبعًا كان يجب أن أجهز دائمًا حجة مأمونة تستخدم كعذر مناسب للانسحاب.

بعد عدة أشهر، صادفت صفحة مثيرة لـ«طياب»، أمريكي في مثل عمري تقريبًا، يعمل في الصناعات التقنية. أبدى في صفحته بعض المرح بشأن عملية الزواج على الإنترنت، وجعلني وصفه أضحك بصوت عالٍ. لم يكن يتخذ نفسه على محمل الجدِّ، لكنه بدا حساسًا ومثيرًا للاهتمام. أرسلت طلبًا كي أتواصل معه، وقبِل الدعوة، فتبادلنا عناوين البريد الإلكتروني. كان يعيش في هيوستن، وهي مدينة تضم جنسيات متعددة وتعيش فيها جالية كبيرة من المسلمين. تحدثنا في البداية عن الحقائق والآراء العامة، ثم انتقلنا تدريجيًّا إلى الحديث عن آمالنا وأحلامنا في الزواج.

كان طياب من أصل هندي. ولد ونشأ في أمريكا، وكان عضوًا فعالًا في أحد أهم مساجد هيوستن. كان يمارس الألعاب الرياضية، ويحب الكتابة، ويرغب في جعل العالم مكانًا أفضل. وكان يبحث عن شخص يشاركه هذا كله. كان في أواخر العشرينيات، وكان يريد رفيقة – زوجة – إذ اكتشف فجأة أنه وحيد. وكانت لديه بعض الآراء السياسية والاجتماعية المثيرة للاهتمام. يحب طياب مشاهدة الأخبار ويهتم بما يحدث في العالم. تبادلنا الأفكار حول الرئاسة الأمريكية والعلوم الحديثة والفقه الإسلامي والذكاء العاطفي. استمالني حديثه وتحداني وقد انجذبت إليه كليًّا، واعتقدت فعلًا أنه قد يكون الشخص المناسب.

تحدثنا على الهاتف، وفي أثناء الحديث شعرت بأنه يمثل كل ما حلمت به من خلال مراسلاتنا عبر الإيميل. كان طريفًا، وحساسًا، وعاطفيًّا، وحنونًا، وذكيًّا. أرسل إلي صورة يبدو فيها كبقعة صغيرة في ليلة حالكة الظلام. بدا شابًّا عاديًا في العشرينيات. أكثر ما كان يؤرقه هو أن طوله كان ١٦٥ سم فقط، أي أنه كان قصيرًا، فهو أطول مني بقليل فقط، لكنني أكدت له أن

هذا غير مهم. لقد عانيت من الاضطهاد حول مسألة الطول هذه؛ لذا فلن أضطهد أحدًا في هذا الموضوع.

أخبرني في أحد إيميلاته: «سآتي لزيارتك في لندن». كان هذا خبرًا مهمًّا وخطيرًا وجسيمًا. لم يكن طياب قد سافر خارج أمريكا من قبل. وعلى الرغم من استقبالي للكثير من الخطَّاب الذين أتوا لزيارة لندن من الخارج بهدف البحث عن زوجة، إلا أنها كانت المرة الأولى التي أتلقى فيها زيارة عن طريق الإنترنت.

استغرق طياب بعض الوقت في إجراء ترتيبات السفر. كان عليه أن يستخرج جواز سفر، وأن يأخذ إجازة من عمله بعض الوقت. ازدادت حماسته تدريجيًّا، فيما كانت تزداد عصبيتي. كان ينمو بداخلي ذعر متزايد. وعلى الرغم من أن والديَّ قاما بنوع من البحث التمهيدي حول طياب وعائلته، إلا أنهما لم يتوصلا إلى كثير حول خلفيته ونشأته؛ لذا كانا مهمومين مثلي وأكثر، لكنهما شجعاني على المضي في الأمر وإعطاء نفسي فرصة. هذه كانت منطقة مجهولة بالنسبة إليهما هما أيضًا.

عندما وصل قدمته إلى والديَّ، وكان يقابلهما يوميًّا كلما جاء لمقابلتي، لكي نتعرف كلنا عليه جيدًا. كانت شخصيته أكثر حدة وتطرفًا مما بدا على الهاتف. وقد اختفى غموض الغياب، وبدلًا منه بدأت أشاهد تعابيره وجهًا لوجه. وكان أكبر تحدٍّ أواجهه هو محاولة التعرف عليه وكأنه شخص جديد تمامًا، إذ كان مختلفًا عن الشخصية التي رسمتها له في خيالي عبر التحدث على الهاتف. لقد اختبرت هذا مع أشخاص آخرين قابلتهم، لكن ملحمة عبور الأطلسي ويقينه من أن اجتماعنا الشخصي كان مجرد شكليات تسبق الخطوبة جعل المسافة تزداد بين «طياب» الإنترنت و«طياب» الإنسان. كان أكثر عصبية بكثير مما بدا على الهاتف. لقد نجحت المسافة والاتصالات المتقطعة في إخفاء

هذه الحقيقة عني، لكن اللقاء والمواجهة جعلا الأمر في غاية الوضوح، وهذا ما أعلن بداية النهاية.

أخذ يشعرني بالغيظ، إذ بدا أكثر سرورًا بزيارة بريطانيا من سروره بلقائي. كان يقفز من مكان إلى مكان وهو يعلق على اختلاف أرقام لوحات السيارات، واختلاف اتجاهات قيادة السيارات، واللهجة الإنجليزية الظريفة، ويعلق على كون بيوتنا أصغر وسياراتنا أصغر وشوارعنا أضيق. والأدهى أنه، وعلى الرغم من أنه بدأ حديثه بالتفاخر براتبه الجيد، وعلى الرغم من أنني كنت مستعدة للمشاركة أو حتى لدفع كامل مصاريفنا معًا، خصوصًا في ضوء المصاريف التي دفعها للسفر إلى لندن، إلا أنه أصر على الدفع، لكن وبسرعة بدأ يتذمر من غلاء القهوة والطعام وكل شيء! وسرعان ما انسحب بحدة من قضية الدفع، أو حتى المشاركة فيها، على الرغم من الاستعراض الأول الذي قدمه حول سيولته المالية وخصاله الفروسية. ها أنا ذي أرى أمامي طبيب الأسنان مرة أخرى. هذه صفة لا تبشر بالخير بالنسبة إلى الحياة الزوجية.

لكن الذي حسم الأمر في النهاية كان مزاج طياب الحاد. شعرت بذنب كبير لأنه قطع كل تلك المسافة كي يراني، لكني قلت لنفسي بأنني يجب ألا أشعر بالذنب إطلاقًا، فأنا لم أجبره على القدوم. يفعل كل إنسان ما يناسبه لإيجاد الشريك. وقد أخذ طياب قرارًا مدروسًا بقيامه بهذه الرحلة وهو يعلم أن الأمور قد لا تنجح.

هل كان خطئي أن الأمور لم تنجح؟ هل كان عليَّ أن أبذل جهدًا أكبر؟ في الظاهر، كان كل شيء يبدو مناسبًا، إلا أننا تجاوزنا الأمر وبدأ والداي في تعقب بعض المعلومات من أشخاص آخرين. يجب ألا أشعر بالذنب، ففي النهاية، وبسببي، قام طياب باختبار شيء لم يختبره من قبل، وربما ما كان ليختبره أبدًا، لو لم تُغره فكرة الزواج. كان يجب أن أشعر بالرضا عن مساهمتي في تنويره.

لكن وبدلًا من ذلك شعرت بذنب فظيع، ليس فقط تجاه طياب، بل أيضًا تجاه عائلتي. كانوا يريدون بشدة أن أتزوج، وأن أعيش حياة سعيدة. شعرت بالذنب لعدم قدرتي على تحقيق أمنيتهم. كانوا سيفرحون جدًّا لو تزوجت. وكان من المجزي الزواج من شخص يبدو مناسبًا في الظاهر فقط كي أرى الفرحة على وجوههم. وفشلي في رسم تلك الابتسامة أشعرني بالذنب، لكن أيضًا لو تزوجت من أحد السادة الـ«بين بين» الذين تقدموا، فسأكون قد ساومت على آمالي وقيمي، وهذا أمر لن يسعد عائلتي أيضًا. لقد دعموني في بحثي وخاضوا معي الصعوبات والخيبات والوحدة. وإن استسلمت الآن فسأشعر بالذنب أيضًا.

بعد كل هذه السنوات من دعم والديَّ لي ودعمهم خياراتي، كان من العدل أن أتابع البحث. كانت نساء مسلمات كثيرات محرومات من حق الاختيار والدعم اللذين تقدمهما لي العائلة، إيمانًا منها بالمبادئ الإسلامية التي تقدس حق الفرد في اختيار شريك الحياة وعدم إكراهه على الزواج بمن لا يريد. كنت أحاول تطبيق هذه القيم، ومع هذا شعرت بنوع من المرارة تسري في عروقي: أكان هذا كله خطئي وحدي؟ هل ضلَّلت نفسي بالأحلام عن الأمير الفاتن والنهايات السعيدة؟ هل جعلت نفسي وعائلتي عرضة للعذاب من دون سبب؟ هل ضيَّعت الفرص؟ الجواب كان واضحًا. لا. فالندم لم يكن أبدًا على قائمتي.

مريم الرائعة

قررت أنني حتى لو لم أجد عريسًا فإنني سأقيم حفل زفاف على أية حال. لم أكن قد فقدت الأمل، لكنني بدأت أجهز نفسي لفكرة أن ذاك ربما لن يحدث. الثوب الجميل والقاعة الرومانسية والطعام الجيد الوفير، ناهيك عن الصحبة الرائعة. حان الوقت كي أكون محور الاهتمام. من دون فارس الأحلام قد لا أكون قادرة أن أحصد ثمار الزواج، لكنني على الأقل سأحصل على حفل زفاف جميل. هل أحتاج عريسًا؟ أغرتني فكرة شراء ثوب الزفاف الذي طالما حلمت به، لأنني لم أكن أحتمل ألا أرتدي واحدًا. تخيلت ثوبًا أبيض طويلًا منسابًا مرصعًا بالكريستال البراق على كل أجزائه ووشاحًا شفافًا ناعمًا يكشف ابتسامتي التي تعكس السعادة الخالصة. تخيلت الحرير العاجي والخرز المطرز باليد.

كانت مريم العذراء أم المسيح عيسى عليه السلام إلهامًا رائعًا لي خلال تلك الفترة. إنها تُذكر بكثير من التقديس في الإسلام وكانت تعتبر «من نساء الجنة». حتى إن سورة من القرآن أنزلت باسمها. كانت أم مريم تتوق إلى طفل، فابتهلت إلى الله قائلة إنها ستنذر لله ما في بطنها. سُرَّ والد مريم حين حملت زوجته، لكنه دهش حين أنجبت بنتًا، إذ كان من السائد في ذلك الزمان أن الأبناء الذكور هم فقط الذين يستطيعون أن يخدموا في المعابد.

كان الله مدركًا لهذه الحقيقة طبعًا، لأنه عالِم بكل شيء. وبحكمته الإلهية خلق الفتاة كي تكرس حياتها له بطريقته، وهو ما شكَّل تحديًا لأفكار الناس في ذلك الحين ومعتقداتهم. فالمرأة مساوية للرجل أمام الله وهذا هو البرهان. لقد قوَّض ظهورها التقاليد السائدة بأن الأنثى هي كائن تابع وضعيف، ليس أهلًا لعبادة الإله. أما أولئك الذين كانوا يستبعدون النساء من طقوس العبادة، فقد كانوا يفعلون ذلك انطلاقًا من اعتقادهم بأن البشر الحقيقيين فقط قادرون على عبادة الله بينما النساء لسن كذلك. وكانت ولادة مريم، في حد ذاتها، تعبيرًا عن مساواة النساء بالرجال وإقرارًا من القانونِ الإلهي بأن النساء مساويات للرجال في القيمة والجدارة الروحيتين.

وعلى الرغم من تقاليد ذلك العهد، إلا أن مريم كرست حياتها للمعبد، وكبرت لتصبح امرأة ذات شخصية مثالية تتمتع بروحانية هائلة نبعت من علاقتها القوية مع الله. ذهب زوج خالتها مرة لزيارتها في المعبد وفوجئ برؤيتها تأكل طعامًا لذيذًا طازجًا. وعندما سألها عن مصدره أخبرته أنه في أثناء انشغالها بالصلاة أحضر لها أحد الملائكة الطعام هدية من الله. وبما أن مريم كانت من أطهر النساء فقد اصطفاها الله لأعظم عجائبه: العذراء التي تلد. لا يأتي الإسلام على ذكر يوسف النجار في قصة الميلاد، تركيزًا منه على الدور الرئيس الذي تلعبه المرأة في هذه القصة؛ فهي كانت وحدها رمزًا مستقلًّا ساطعًا للمرأة القادرة على شق طريقها في الحياة.

عندما أوشكت مريم على الولادة اتخذت لنفسها مكانًا قصيًّا في ظل نخلة، وقد وُصفت آلامها في أثناء المخاض في القرآن بكلمات تفهمها كل النساء. فهي مثلهن، وتتشارك معهن تجارب الأنوثة والأمومة نفسها. خلال ألم المخاض صرخت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ (مريم: ٢٣)، ويبدو أن الكثير من النساء يتمنين الشيء نفسه عند المعاناة من ألم المخاض. تقول أمي إنها تمنت

الموت أيضًا إلى أن شاهدتني بين ذراعيها فنسيت الألم. تمسكت مريم بجذع الشجرة وهزته، علَّ ذلك يساعدها في احتمال آلامها.

وعلى الرغم من سمعتها التي لا تشوبها شائبة، فقد اتهمتها الخالات الثرثارات في زمانها بالسلوك غير الأخلاقي، وساندهنَّ في ذلك كبار البلدة وشيوخها المتحكمون. ولحمايتها تكلَّم الرضيع بأعجوبة ليشرح أن مريم طاهرة ولم يمسسها رجل، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠، ٣١).

أنا لا أعتقد بأن مريم تزوجت، بل إنها ربَّت عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحدها. كنت معجبة بها لأنها تجسيد حي لمساواة المرأة بالرجل في العبادة والحياة الاجتماعية. لقد أرسلها الله دليلًا على جدارة المرأة. كما أن التحديات التي واجهتها كانت صعبة جدًّا وهي تعيش بين الناس كأم عازبة، وكامرأة يتناول سيرتها الجميع، وككائن يحاول أن يعيش بالتي هي أحسن. وإن كانت قادرة على تنشئة ابن رائع مثل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فلا بد أنها أم رائعة.

كنت أحب قصة مريم ودورها كأم تحديدًا؛ لأن اسم أمي هو مريم، وهي أيضًا صمدت وتحملت وتحدت الأقاويل ودعمتني في بحثي وألهمتني. كلتاهما أعطتني الأمل بأنني كامرأة، بوجود الرجل أو من دونه، كنت قادرة على الحلم وعلى أن أكون شخصًا رائعًا.

* * *

لم يحدث ذلك الزفاف الخالي من العريس، بل على العكس ظللتُ أحلم بأن أساليب اللقاء الحديثة سوف تثمر يومًا ما وتقدم لي فارس الأحلام. وهكذا وجدت نفسي في إحدى الأمسيات مع نورين نخوض تجربة المواعدة

السريعة. قررنا أننا إن وجدنا الأمر كريهًا جدًّا عند وصولنا إلى هناك فسوف ننسحب فورًا. لقد وعدَنا مُنظِّمو فعالية المواعدة السريعة بخدمات لا تتوفر في أي مكان آخر: رجال من لحم ودم، رجال كثيرون. كان من المفترض أن تضم الفعالية عشرين رجلًا وعشرين امرأة، يمضي كل مشترك ثلاث دقائق بالتحدث مع شخص من الجنس الآخر، ثم يقرران بعدها إن كان ذلك الشخص قد يكون الشخص المناسب أو لا.

أخيرًا وصلنا إلى العنوان الغامض لنكتشف أنه كان ناديًا مع بار، مما خَلق لدينا شعورًا فوريًّا بعدم الراحة. هل هذا هو المكان للعثور على الزوج المناسب؟ باعتبار أننا لم نكن نشرب الخمر، لم نكن معتادات على التسكع في البارات، وبما أننا كلينا كنا نبحث عن زوجين مسلمين متدينين، فقد ارتبنا فيما إذا كان الرجال المشاركون يناسبون تطلعاتنا. كان جو الغرفة غريبًا يعبق بنوع من الشهوانية الواضحة، ما جعل فكرة المواعدة السريعة أكثر صعوبة مما توقعنا.

سلَّم المنظمون كلًّا منا بطاقة حملت على يسارها رقمًا بين الواحد والعشرين، ثم أعطونا استمارة ضمت ثلاثة أعمدة كتب في أولها كلمة «مؤكد» وفي الثاني «ممكن» وفي الثالث «مرفوض»، وأخيرًا كان هناك عمود لكتابة الملاحظات. كتبنا أرقامنا في زاوية الصفحة، ثم ثبتنا البطاقات التي تحمل أرقامنا بخط كبير على الصدور. كان تبادل الأسماء ممنوعًا.

خُصصت طاولة لكل امرأة، وكان الرجال يتناوبون الجلوس على كل طاولة لمدة ثلاث دقائق، يقفون وينتقلون بعدها إلى الطاولة المجاورة. وفي النهاية يكون كل رجل من الرجال العشرين قد تحدث إلى العشرين امرأة. نصحونا بأن نكتب ملاحظات خاصة على البطاقة لتذكيرنا بالأشخاص، ولتساعدنا في وضع الرجل في الخانة الصحيحة، بين «مؤكد»، «ممكن»

و«مرفوض». تُجمع البطاقات في النهاية وتُدرس، وإن رصد المنظمون كلمة «مؤكد» عند الشخصين نفسيهما، عندها يتصلون بهما ويعطونهما العناوين الإلكترونية، ويتركان الأمر للرجل والمرأة كي يتابعاه مباشرةً. إذا كانت إجابة أحدهما «مؤكد» والآخر «ممكن»، عندها يتصل المنظمون بالطرف الذي كتب «ممكن» ليعرفوا منه إذا كان مهتمًّا بتبادل عنوانه مع الشخص الآخر.

وصل في النهاية عدد حرج من المشتركين: عشرون امرأة وستة عشر رجلًا. كالعادة الرجال أقل. جلست النساء على الطاولات التي رتبت على شكل دائرة حول الغرفة، بينما حام الرجال حول البار المغلق في الوسط. لاحظت أنني المحجبة الوحيدة في الغرفة. بدت بعض النساء وكأنهن قَدِمن من العمل مباشرة ببذلاتهن، بينما بدت الأخريات متأنقات وكأنهن ذاهبات إلى حفلة توزيع جوائز بوليوود. بعد مقدمة من المضيف توزَّع الرجال بشكل عشوائي لأخذ أماكنهم، واحد على كل طاولة. نصحونا ألا نسأل الأسئلة المعتادة: «ما اسمك، ومن أي بلد أنت؟»، بل نسأل أسئلة تصلح لفتح حديث مع بعض النقاش، كي نستشف نوع الشخصية بدلًا من الإحصاءات الحيوية.

بدا الرجال الأوائل الذين أتوا إلى طاولتي متحمسين ظاهريًّا. الفتاة التي كانت تجلس قربي كانت جميلة ورشيقة، اجتذبت كل الأنظار عند دخولها الغرفة. كان على الشبان الذين جلسوا إلى طاولتي أن يجبروا أنفسهم على الكلام لإجراء نوع من المحادثة اللائقة معي. حاولوا في البداية، لكن من الواضح أن حجابي قد نفَّرهم تمامًا. ولا بد أن وجود «ملكة جمال العالم» بالقرب مني قد أطار صوابهم. ومع انقضاء المساء أصبح الأمر واضحًا لدرجة أنني قررت في النهاية أن أسألهم مباشرة عما إذا كانوا قد أتوا للبحث عن زوجة مسلمة لأسباب ثقافية أو عائلية فقط، أم لأنهم مقتنعون بالإسلام. في تلك الحالة

مكتبة الرمحي أحمد

لم أكن أنا الخيار المناسب. وكاختبار وضعتُ علامة موافق على كل خانات «مؤكد»، لأرى إن كان أحد مهتمًا بي، لكنني لم أتلقَّ أي رد.

على الرغم من خيبتي اعترفت أن أحدًا من الرجال المشاركين لم يلفت نظري، لكنني مع هذا شعرت بالغثيان وخيبة الأمل بصرف النظر عن عدم عقلانية ذلك الشعور.

وتشبُّهًا بمريم (عليها السلام) وتصميمها، تماسكت وقررت أن أحاول ثانيةً. أقنعت نفسي بأن حفلة المواعدة السريعة هذه لم تكن مناسبة لي، إذ كانت موجهة لجمهور مختلف. وربما حفلات مواعدة سريعة أخرى قد تحمل لي معجبين مناسبين أكثر.

وجدت شركة أخرى ادعت أنها تقدم أفضل طرق المواعدة السريعة. أكد المنظم أن كل المشاركين يمرون عبر عملية تمحيص دقيقة. ووحدهم الأفراد المستوفون لمواصفات المستوى الفكري اللائق والشخصية الناجحة والمرموقة يسمح لهم بالاشتراك. وقال إن هذا من شأنه توفير الوقت واستيعاب الأشخاص الذين يبحثون عن «ذلك النوع من العلاقات الزوجية». بدا الأمر واعدًا جدًّا، مثل عملية تزويج شاملة، حيث المشاركون جميعًا، ذكور وإناث، سيكونون من العيار المناسب.

أعطوني موعدًا كي أتحدث على الهاتف مع المسؤول، فاتصلت على الرقم المخصص للمقابلة. ثلاثون دقيقة من الاستجواب الهادئ والأسئلة الدقيقة حول آرائي في الزواج، وعما أبحث عنه وما كنت مستعدة أن أقدمه. وفي نهاية المكالمة هنأني الرجل لقبولي في الفعالية. شعرت بالرضا وبتأكيد لأنوثتي، إذ إن قبولي يعني أني أيضًا عروس من العيار المناسب. إنها طريقة عظيمة في التسويق لشركة المواعدة السريعة. قدم لي المسؤول مجموعة من التواريخ، وحدد سعرًا

للمشاركة. كان السعر باهظًا، باهظًا للغاية، لكنه لا يتجاوز مصاريف وجبة عشاء في الخارج. من يعلم؟ ربما أخرج من القصة بعريس من العيار الثقيل. «المبلغ ليس كبيرًا، لكنه يجعل الموضوع يبدو أكثر جدية مما لو كان أقل كلفة. سأجرب وإذا كان الأمر فظيعًا فعندها سأرحل». شعر بعصبيتي ونصحني بأن أحجز ثلاث جلسات أو أكثر دفعة واحدة، كي أحصل على خصم. أغرتني الفكرة لكن شيئًا ما أزعجني في افتراض المنظمين أنني أحتاج لعدة جلسات كي أحصل على عريس. بعد خيبتي الأولى في المواعدة السريعة، قررت أن أجرب مرة واحدة فقط في البداية.

مرة أخرى قررت الذهاب مع نورين لأتأكد من حصولي على الدعم المعنوي اللازم. كانت هذه الفعالية أكثر أناقة من الأولى، إذ صُفت فيها طاولات مستديرة رسمية مقسمة إلى ست مجموعات. وعندما بدأت الإجراءات كانت كل طاولة تتألف من ثلاثة رجال وثلاث نساء. وبعد عشرين دقيقة كان الرجال يغيرون الطاولات. كان الترتيب مصممًا بشكل يسهل معه إجراء الحديث، كما أن الجلسات الطويلة كانت تسمح بإجراء نقاشات أكثر عمقًا. واستنادًا إلى خبرتي السابقة ارتحت للأمر وشعرت بالأمل.

تأخر بدء الإجراءات بعض الشيء، ومرة أخرى كانت عشرون امرأة موجودة، مقابل حفنة من الرجال فقط في الزمن المحدد للبدء. قيل لنا إنه، بما أن اللقاء يتم في بحر الأسبوع، قد يتأخر بعض الرجال في الوصول من أعمالهم، ولا بد أن ينضموا إلينا لاحقًا. انتظرنا وصولهم بصبر، لكن بعد ٤٥ دقيقة، بدأت النساء يثُرن، فسمعنا أن بعض الرجال انسحبوا في اللحظة الأخيرة، ومن الواضح أنهم كانوا متوترين جدًّا من مسألة المواعدة تلك.

اختفى المنظمون وبدأت الأعصاب تتعب. بعض النساء كن قد شاركن من قبل في عدد من أمسيات المواعدة التي لم يحضرها إلا عدد قليل من الرجال،

فبدأن يطالبن باسترداد مالهن. كان المنظم يركض هنا وهناك وهو يرد شعره عن وجهه بقلق. بعد ٤٥ دقيقة أخرى تدفق رتل من الرجال إلى القاعة. وعلى الرغم من الغضب المتصاعد إلا أن الأمل بدأ يغزو قلوب النساء. رجال، أخيرًا!

تحوَّل مسار الأمسية ببطء من الوجل إلى النشاط. كان هناك شيء غريب في موقف الرجال، إذ لم يبدُ عليهم أي نوع من أنواع التوتر، وبدوا وكأنهم غير معنيين بالمسألة. لم يسألوا أية تفاصيل عن النساء، بل كانوا يتحدثون بعضهم مع بعض. بعد أن قابلنا حوالي اثني عشر رجلًا (ليس العشرين الذين وُعدنا بهم)، أدركت مجددًا أنني المحجبة الوحيدة، وأن أحدًا من الرجال الحاضرين لم يكن مهتمًا بالزواج من محجبة. شعرت بالخداع من كل هذه الأمسية: وُعدنا بمرشحين من النوع الممتاز، لكن ما ظهر هو عينات متوسطة. أو على الأقل هذا ما تمنيته؛ إذ زل لسان أحد الرجال بالقول إنهم دفعوا لهم كي يحضروا.

دوران ودوران حول طاولات المواعدة السريعة. دوار وأمل ثم خيبة أليمة في كل مرة. شعرت بتناقص الحلقات وتضاؤل الأمل. وحلمت بأن يأتي الرجل يومًا ما وتنتهي هذه الموسيقى المجنونة.

* * *

نسيت دوائر المواعدة السريعة وحلقات الزواج كليًا حين وقفت أمام الكعبة في مكة المكرمة، مستعدة لأداء فريضة الحج. أيقظت الحركة الدائرية للبحر البشري مشاعر خرجت من أعماق كياني. كان الحشد الهائل يدور ويدور. شاهدت موجة تلو الأخرى من آلاف الرجال والنساء المتدثرين بالأبيض وهم يمشون ببطء حول الكعبة السوداء. لقد أتوا إلى هنا مثلي لتأدية فريضة الحج. ولولا الحج لما فكروا ربما في السفر خارج قراهم ودولهم. إن

زيارة الأراضي المقدسة هي حلم المسلمين الفقراء. أما بالنسبة إلينا نحن الذين عشنا في رفاهية الغرب لكن خارج الأراضي الإسلامية، فقد أتاح لنا الحج نظرة جديدة إلى الإسلام ككلية حاضرة ومكونة للأغلبية.

كان الحج رحلة مادية وروحية في الوقت نفسه. هنا وعلى هذا المستوى من التعبد الروحاني، ترى الناس من كل الأعراق التي تتخيلها تقف على قدم المساواة أمام الله. التواصل سريع ومباشر؛ فقد تجد نفسك في لحظة واقفًا قرب شخص من مجاهل أفريقيا، وفي اللحظة التالية من «أويجور» في الصين أو من سفوح «الإنكا»، وقد تساعدك بدوية عربية أو شقراء من البوسنة أو أفريقية بابتسامة ناصعة. في تلك اللحظة أصبح كل شيء واضحًا: نحن كلنا بشر، كل التشويش الذي واجهته وأنا أكبر وأعيش حياتي المؤلفة من هويات متشابكة ومنفصلة، أصبح واضحًا الآن. شاهدت حقيقة انسجام الأمور أمام عيوني: جنسيات مختلفة مجتمعة كلها في المكان نفسه ومتداخلة. يمكن أن تختار أيًّا منهم، الكل جريئون وفخورون بأنفسهم.

«هكذا يجب أن نعيش في بريطانيا»، فكرت وأنا أراقب كل هؤلاء الناس المختلفين القادمين من كل أنحاء العالم ليتشاركوا الرحلة نفسها، جنبًا إلى جنب، يدرسون، ويعيشون، ويتواصلون، ويحترمون كل الأعراق والأديان والاعتقادات مهما كانت. لم يعد ممكنًا رؤية الناس من حولنا باعتبارهم «آخرين»، ففي جوهرنا كنا كلنا مثل الأرواح المتشحة بالأبيض التي كانت تمشي أمام عيني - كنا جميعنا بشرًا.

خلال بحثي عن الزوج وعن الإيمان تعلمت كيف أكون مرتاحة مع نفسي، وأن أتواصل مع الآخرين على أنهم بشر، بصرف النظر عن دينهم أو معتقداتهم. كنا جميعًا نسعى إلى العثور على المعنى والحقيقة. إن النظر إلى الحشد الحائم أمامي جعلني أدرك اختلافي، لكنني أيضًا كنت مثل الجميع لأنني من

البشر. نحن ننتمي إلى أماكن وجنسيات مختلفة، هذا صحيح، وهذا ما يجعلنا متعددي الجنسيات وغير متطابقين.

كنت أبحث عن شريك أحبه، وكنت أحاول أن أتعلم عن الحب الإلهي. وأمامي في هذه اللحظة اكتشفت نوعًا آخر من الحب الجوهري، وهو حب البشر. كل الرجال الذين تقابلت معهم كانوا جزءًا من هذا التنوع البشري مثل هذا الحشد الذي أراه أمامي. كان عليَّ أن أحب كل واحد منهم وأتقبله وأتعلم منه، سواء أعجبوني أم لا. تردد في رأسي القول الذي سمعته من قبل بأن جوهر الإسلام هو خدمة الخالق وخدمة خلقه. نعم إن حب البشر هو جزء أساسي من حب الخالق.

إلى جانب الكعبة تمامًا كان قبر هاجر زوجة إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام. وكجزء من مناسك الحج، كان على الحجاج أن يدوروا حول المكان الذي دفنت فيه هاجر. هاجر كانت جارية قبل زواجها من إبراهيم، وهو أمر كان في نظر الشوفينيين يحط من منزلتها. ومع هذا فقد اضطر هؤلاء الشوفينيون أنفسهم إلى وضعها على قائمة من يُقدَّسون نظرًا لمكانتها الرفيعة في عيني الله. ابتسمت للمفارقة، وفي الحقيقة فقد ضحكت. لا يوجد رجال على طريق الحج.

بعد الطواف حول الكعبة يتقدم الحجاج إلى سهل قريب، طوله حوالي النصف كيلومتر ويقع بين جبلين، الصفا والمروة. نزولًا عند أمر الله ترك إبراهيم عليه السلام هاجر في هذا المكان مع ابنهما الصغير إسماعيل عليه السلام وطلب منهما انتظار عودته. كانت هاجر تحتاج إلى إيجاد الماء للصبي، فبدأت تجري ذهابًا وإيابًا بين الجبلين لترى إن كان هناك أثر لنبع أو نهر. يسير الحجاج بين هذين الجبلين للتأكيد على أن الحاجات الدنيوية هي جزء مهم من التقرب إلى الخالق مثلها مثل الواجبات الدينية الأخرى كالصلاة مثلًا.

كيف تناسى الناس أن جزءًا مهمًا من أجزاء الحج يتم بتتبع خطى هاجر، المرأة، وكيف استطاعوا أن يبخسوا المرأة قدرها بهذا الشكل؟ لقد اختارت بعض التقاليد الإسلامية تجاهل الحقائق الواضحة وادعت أن المرأة المسلمة ضعيفة وتابِعة ومضطهَدة. هنا، وأمام أعيننا، حول الكعبة وعند السير بين الصفا والمروة، كانت أهمية ومكانة النساء واضحة جدًّا. ما الخطأ الذي حدث إذن؟

بالإضافة إلى الرسالة الواضحة التي تشير إلى المكانة الروحية العالية التي تمتعت بها النساء في الإسلام، فقد ألهمتني هاجر شيئًا محددًا، شيئًا كنت أجد صعوبة في تحقيق التوازن فيه، وهو أن البحث عن الطعام والمأوى هو جزء من العبادة أيضًا. إن الطواف حول الكعبة يؤكد أن الخالق هو محور حياة المسلم، دائمًا وأبدًا وعند كل شروق وغروب للشمس. إن الكون هو تكرار لحلقات ودوائر، تتبع كل واحدة منها مدارًا وتجد نفسها في النظام الإلهي. لكن جري هاجر ذهابًا وإيابًا كان هو السباق اليومي، إلى العمل ومن العمل، إلى العمل ومن العمل، تلك الرحلة التي ترسم حياتي. الجزءان يوازن أحدهما الآخر تمامًا، وقد أدركت أن الجانبين، الروحي والمعنوي، يتداخلان وينسجمان معًا.

على الرغم من أن الهدف من الحج هو الرحلة الروحية إلا أنه كان فرصة رائعة لمقابلة بعض العرسان المحتملين أيضًا. ألا تفتح الأماكن الجديدة فرصًا للقاء أشخاص جدد؟ لقد أكدت الخالات أن الزواج هو عمل روحي، وأنه من الرائع العثور على الشريك المناسب على أعتاب بيت الله. كانت هذه حجة مقنعة. ومع بساطة اللباس وانعدام الماكياج وزوال التبختر اليومي، كانت هذه فرصة للقاء شخص والتعرف عليه على حقيقته. كان بعض الشبان والفتيات يأتون إلى هنا بعد الخطوبة ويحاولون الحفاظ على مسافة لائقة بينهما، كي لا يُتهما بتبادل الكثير من النظرات والابتسامات، وكان آخرون يأتون إلى هنا على أمل العودة من رحلة الحج وبجعبتهم هبة إضافية، هي الخطيب.

وجد فاطمة وعبده أحدهما الآخر أثناء الحج. والخالات الحاجات كن دائمًا مستعدات لاقتناص أية فرصة. فأنا لم ألحظ أبدًا متى التقت فاطمة بعبده ومتى تقدم لخطبتها. كنت منشغلة جدًّا بتأملاتي الروحية لدرجة نسيت معها هرج قضايا الزواج ومرجها. كنت أريد ببساطة أن أستمتع بإيجاد مكاني واختبار هذه الدوامة الرائعة من المعيَّة الشاملة.

كنت أريد أيضًا أن أسجد وأبكي فرحًا بوجودي في قلب الحياة الإسلامية. في المكان الذي قال عنه الله إن الإنسان يتطهر فيه ويصبح بريئًا كالأطفال، أردت أن أطلب من الله أن يزيح عن قلبي آلام الوحدة واليأس. رفضت أن أفقد الأمل، لكنني لم أعد أعرف أين أذهب للبحث عن الزوج المناسب. و«جون ترافولتا» لم يأتِ ليدق على بابي، ولا بد أن «صانع الشوكولاتة» قد أكل كل الشوكولاتة الآن. حتى معظم الرجال العاديين الذين قابلتهم يبدو أنهم تزوجوا. شعرت بالضآلة وسط هذا البحر الهائل من البشر. وكنت آمل أن يسحق كبريائي، تاركةً روحًا وحيدة تنتظر أن تتواصل مع روح أخرى. أضفت إلى قائمة فضائلي الموضوعة على الرف فضيلة جديدة هي الصبر.

نصفي الآخر

من فضائل الصبر أنه يمنحك الحرية للتفكير في الاحتمالات التي كنت ستفوتها لولاه. فالصبر يجبرك على إعادة تقييم منافع المشكلة التي كانت تبدو للوهلة الأولى من دون منافع على الإطلاق. وللصراحة كنت مستعدة للتفكير في أي شخص، لكن تجاربي في الحج هدأت من خاطري ودفعتني إلى النظر إلى ما وراء التقييم الأولي للشخص والتفكير في روحه الأعمق. بدأت أنظر إلى الأشخاص الذين قابلتهم، سواء أكان في لقاءات التعارف أو في الحياة اليومية، نظرة مختلفة، وأستكشف الشعلة البشرية التي تكمن داخل روحهم.

بالنسبة إلى الرجال الذين رفضتهم بسبب الغضب أو النفور الشخصي، بدأت أتساءل عن العوالم المخفية التي توجد في قلوبهم. هل كانت عند محمد حبيب أسرار عن الكون كان عليَّ اكتشافها؟ وهل يحمل الرجل الهادئ العادي المظهر أسرارًا عن الله؟ وهل من قناعة وحب يكمنان تحت مظهره الخارجي الهادئ العادي؟ أو ترى لو أنه كان في محطة مختلفة في مسيرة الحياة، فهل كان يتجه إلى المكان نفسه الذي كنت أنا فيه على الأقل؟ لو لم أنجذب إلى مظهره الخارجي في البداية، فهل كان سيوجد انسجام في أخلاقنا وشخصياتنا يكشفهما الوقت كما سيكشف انجذابًا يصبح أكثر عمقًا وأكثر شغفًا؟ وكما ألمح النبي ﷺ،

فإن الجمال الخارجي قد يوجد اليوم، لكن مصيره هو الزوال مع التقدم في العمر. إن الجمال الداخلي هو السر في عملية البحث (أتمنى لو تقوم مواقع الزواج على الإنترنت بتقييم هذه النقطة)، لأنه وحده ينمو بمرور الوقت.

بدأت أهتم بالناس كما هم في الحقيقة. أصبحت أكثر تجاوبًا وتعاطفًا، أكثر فضولًا وانفتاحًا في تصرفاتي وسلوكي. ما الذي يجعل الأشخاص مثيرين؟ كل شخص لديه جانب جميل وإنساني. لم أعد بحاجة لتقييم الرجال كعرسان محتملين، بل كنت مهتمة أكثر برؤيتهم كنوافذ تقودني إلى عوالم جديدة. بدأت أستمتع بالتعرف على الناس كبشر.

أدركت أن رحلتي الوعرة عبر الجبال والمطبات بحثًا عن الحب قد سمحت لي أخيرًا أن أفهم الكون من حولي بطريقة مؤثرة وفعالة - من خلال النظر إلى العوالم المصغرة التي تختبئ داخل كل إنسان فريد ورائع. العالم بأكمله لا يتسع لله، بل يتسع له قلب الإنسان؛ أليس إذًا قلب الإنسان هو المكان الذي يجب أن أبحث فيه عن شعلة الخالق؟ كل شخص هو طريق إلى الله، طريق لم أستطع رؤيتها خلال رحلتي الفردية الخاصة.

إن نشوة الاكتشافات الروحية التي حصلت عليها عكست نورها المتوهج على وجهي، خلافًا لما كان متوقعًا عند الوصول إلى محطات اليأس. بدلًا من ذلك شعرت بمزيد من الرضا، وكنت أشعر بسعادة داخلية لم أشعر بها من قبل. كنت أستمتع بحياتي، والزوج سيكون شريكًا في فصل ممتع مستمر باتجاه اكتشاف أوسع للذات والاكتفاء.

* * *

الآن أنتم تتوقعون مني أن أقول إن الحب طرق بابي في اللحظة التي لم أكن أنتظره فيها. والمجلات النسائية البراقة ستشخص الحالة بأنني تعلمت

أن أحب نفسي، فصرت مستعدة لاستقبال شخص يحبني. لطالما كنت أحب نفسي، وكنت مستعدة، لكن الآن أصبحت لديَّ بصيرة جديدة. كنت أستمتع بعيش حياتي وكنت سعيدة بأن أكون نفسي، لكنني لم أكن أستطيع تجنب التفكير فيما كان قد يحدث إذا تزوجت في سن أصغر. تمنيت لو أنني أعطيت عليًّا (أول عريس تقدم لي) اهتمامًا أكبر، وتمنيت لو أنني علمت وقتها أنه كان يمتلك كل المواصفات المطلوبة، وأنه سيكون زوجًا رائعًا، فكنت عشت حياة سعيدة جدًّا على ذلك المسار أيضًا. لم أكن أوافق على مقولة: «إنني لن أغير شيئًا في رحلة حياتي». هذه عبارة سخيفة. لو سنحت لي الفرصة لأعيش حياتي مرة أخرى، لكنت ربما اكتشفت أشياء مختلفة لم أعرفها عن هذا المسار، ولربما كنت سعيدة بل أسعد حتى من الآن. لن أعرف أبدًا الإجابة عن هذا السؤال.

إن مجيء الحب عندما لا تتوقعينه مقولة قدرية مكررة، تسلبك حقك في السيطرة على أهم جزء من حياتك: الشخص الذي تمضين حياتك معه.

أما قصص هوليوود وبوليوود فستكتب في السيناريو الخاص بي قصة خيالية غير متوقعة تنتهي بوصول فارس الأحلام ليكتسحني ويسرق قلبي. أو في سيناريو آخر، أكثر عقلانية، تتغير الحبكة وتقبل بحقيقة عدم عثوري على الحب، مما يجعلني أستسلم لقدري وأتحول إلى عازبة منتجة تفكر بحكمة في المسار الرائع الذي اتخذته لحياتها وفي كل الأشخاص الذين قابلتهم. وتنتهي القصة بنوع من التحليل الذي يخلص إلى أن المشاركة هي الأهم وليس الربح. وسأدرك أن «العثور على الشريك» كان هو الجائزة الخطأ، لأن الحياة في حد ذاتها هي الجائزة.

لقد تعلمت كثيرًا من جلوسي على الحواف الوعرة للثقافة الإنجليزية والدين الإسلامي والثقافة الآسيوية. وعبر رحلتي تحولت هذه الحواف الوعرة إلى نقاط قوة تمكنت من خلالها ملاحظة العوالم المتعددة التي كنت

جزءًا منها، واستطعت الاستمتاع والمشاركة فيها. وقد كشفت لي هذه التجربة إحدى الحقائق البسيطة، وهي أن الحب يأتي على شكل طبقات متعددة تبدأ من الحب المجسد للشريك والأهل والحلقة الاجتماعية والمجتمع، إلى أن يصل إلى الحب الكوني الأعظم: حب الخالق.

لقد كشفت لي رحلة بحثي عن الرجل المناسب أنه، وفي هذا الزمن المادي الذي نعيش فيه، يصبح البحث الروحي عن الحب هو الشيء الذي يربطنا جميعًا. وبينما يركز العلم والأبحاث المنطقية على تفسير الأشياء وإملاء الأعراف، يقوم الحب مهما كان سطحيًا أو محدودًا بمنح حياتنا الطعم والإثارة ويجمعنا كبشر.

لقد كنا منغمسين في الكثير من العادات والتقاليد التي تقودنا إلى الحب. فإله الرومانسية يسيطر من جانب، والعادات تسحبنا بقوة من الجانب الآخر، والجغرافيا والمبادئ الدينية المخبأة تحت الأعراف تشد من جانب ثالث؛ هذا إن كان النقاش يحتمل كل هذه الأشياء مجتمعة. النقطة الحرجة هي عندما تتصادم هذه الجوانب الثلاثة، مسببة الألم والفوضى والانزعاج. لكن هذه المصاعب والضغوطات، على الرغم من قساوتها، قادرة على كشف الكثير، وهي تمنح الثقة في الحب ذي الأبعاد المتعددة. وقد تسمح للرجال والنساء أن يطرحوا بعض الأسئلة التي كانت سابقًا من المحرمات، إذ لا يزال هناك الكثير من الأسئلة المهمة التي يجب أن تُطرح: هل يجب أن تملي التقاليد على المرء طريقة اختيار الشريك؟ هل يكون الفرد هو المسؤول الوحيد عن إيجاد الشريك، أم يجب على المجتمع أن يتدخل؟ ما أولويات اختيار الشريك وما معاييره، وهل فشلت الحداثة في تحقيق هذه النقطة؟ إن كانت الإجابة بلا، فلماذا تتزايد أعداد العازبين وترتفع نسب الطلاق، بينما لا يزال البشر يتوقون إلى الحب والرفقة؟ كيف يتشابك الحب والرفقة والعلاقات، ولمن الأولوية

من بين الثلاثة؟ هل غيرتنا موضة تجنب العلاقات الطويلة المدى بحثًا عن مزيد من الأدرينالين والعلاقات الرومانسية القصيرة؟

لماذا نحتاج الأدرينالين بشكل دائم ومستمر؟ ما الخطأ في العلاقة بلا أدرينالين والشعور بالرضا والسعادة مع شريك يشعرك بالاكتفاء؟ الإثارة أو الأدرينالين تعنيان عدم الاستقرار وإنهاء العلاقات قبل بداية النهاية، واختيار الشبان السيئين وخوض العلاقات للتسلية فقط. لماذا لا نجعل الاستقرار والقناعة موضة أيضًا؟ لقد فصلت التقاليد والأديان لكي تذكر الناس بأن الالتزام يشعرهم بمزيد من السعادة. لكن هذه ليست رسالة جذابة، والجاذبية، الجنسية خصوصًا، هي شيء مهم جدًّا. كان هناك إصرار ثقافي أن كل شيء وكل شخص يجب أن يكون جذابًا جنسيًّا، بشكل دائم، خصوصًا النساء.

عليك أن تكوني جذابة في المجالات العامة حتى يتقبلوك. إن كنت مهتمة بموضوع الحب، فيجب أن يكون حبًّا جميلًا فاتنًا وجذابًا جنسيًّا. وهذا الأمر لا يتفق مع حياة النساء المسلمات المحجبات. ولهذا السبب يعتبر حديث المرأة المسلمة عن الحب فكرة غير لائقة، فهي تتعارض مع المبدأ القائل بأن الحب هو مجرد مشاعر وجاذبية جنسية. إن الجاذبية العلنية تعارض الحجاب بشكل أساسي، فارتداء الحجاب يعني أن المرأة تستطيع أن تكون جذابة فقط داخل بيتها. إن الجاذبية جزء لا يتجزأ من كيان المرأة، لكن من المهم أن تستطيع التحكم فيما تريد أن تكشفه كجزء من رحلة حبها لشريك حياتها. بالنسبة إليَّ لم تكن العلاقة من دون زواج أو الجاذبية في اللباس من الأمور المقبولة. مثل غيري من المسلمات، كنت مهتمة بأمر الحب، لكن ليس الحب الجسدي المثير. كانت مهمتي أن أفهم الحب من كل جوانبه كي أستطيع تعريفه حسب معاييري الخاصة.

* * *

يسألني الناس كيف وجدته. هل فعلت شيئًا محددًا؟ أم إنه تدخُّل من القدر؟ مهما قالوا فإننا لا نستطيع أن نفعل أي شيء إلا أن نأمل في الأفضل. لم يحدث الأمر عندما فقدت الأمل، بل كنت أنتظر وكنت مستعدة.

يقول البعض إنك عندما تملكين الثقة وتشعرين بالتكامل، وعندما تتوقفين عن التطلب، عندها فقط يجدك الشريك. لكنني كنت متطلبة وكنت أريد شريكًا لم أتوقف يومًا عن انتظاره، وكانت لا تزال أهم أولوياتي أن أفهم ماهية الحب من خلال العيش مع شخص.

إن عيش الحياة بكل أبعادها يسمح لنا باكتشاف أماكن مجهولة في ذرى الجبال أو في أعماق الحضارات المنسية. إنه يسمح لنا أن نجد الخالق سواء في التجمعات البشرية الكبيرة مثل الحج، أو في قلوب البشر الذين نصادفهم في حياتنا مثل الرجال ككريم وخليل ومحمد حبيب، أو أصدقائنا وآبائنا وأمهاتنا. والأهم أن الحياة تسمح لنا بتجميع الخبرات لإيجاد الحب ومعرفته، وهو الشيء الذي يحير فطاحل العلم العصريين، والذي لا يزال على الرغم من ذلك يسيطر على الوجود الإنساني بشكل كامل وكلي.

يأتي الحب بالرحمة والعدالة وفهم الذات والآخرين. لا يمكنك أن تشعر بالتكامل أبدًا ما لم تر نفسك بعيني شخص آخر. عندها فقط ستعرف نفسك. يأتي الحب بالرضا لأنه يعني تفهم الذات وتقبلها وتفهم الآخر وتقبله، إذ إنه يستطيع أن يعميك عن عيوبه. وفي خضم بحثنا عن الحب الرومانسي الخيالي ننسى ذلك النوع اللطيف المتأني من الحب الذي ينمو مع الوقت ويتطلب الرعاية والحنان. الحب الذي يتقلص إلى حدود الرومانسية هو حب طائش وغير مرضيٍّ، ويتركنا في حالة من عدم الأمان وعدم الاكتفاء وعدم التكامل. إنه يغذي حاجاتنا السطحية فقط، وليس جوعنا الداخلي للحب الطويل

المتوازن والمتكامل. الرومانسية هي غذاء غني بالسعرات الحرارية، سريع التأثير ومنخفض القيمة الغذائية.

* * *

كلما أخبرني الناس أنه سيأتي عندما أتوقف عن انتظاره كنت أزداد غضبًا. لم تمر لحظة من دون أن أتوقع لقاءه. كنت أنتظر ذلك الأمر طوال الوقت.

ولهذا السبب اخترت ثوبًا من طراز «كوكو شانيل» لألبسه في ذلك اليوم. كنت أريد أن أكون جاهزة، فمن يعلم. وكان من حسن الطالع أنني ارتديت ثوبًا أعجبه؛ فقد علق على ذلك لاحقًا بالقول إنه انجذب إلى اختلاف الثوب وتميزه. كان طرازًا بسيطًا وأنيقًا، حياكته متقنة ولونه أسود، ذا حواف قشدية. وكان يصل إلى ما فوق الركبة، كان ثوبًا لطيفًا وأنثويًا ويعبر عن الثقة. ألحقته ببنطال حريري أنيق قشدي اللون وحجاب مناسب باللونين الأسود والقشدي. أضفت بعض السنتيمترات إلى طولي بحذاء عالي الكعب وأنهيت الأمر بلمسة خجولة من أحمر الشفاه الخفيف.

كنت أخطط لحضور مؤتمر خيري إسلامي نظمته مجموعة من الأصدقاء الذين لم أكن قد رأيتهم منذ فترة. لذا وجدت أن أفضل طريقة لرؤيتهم وتحيتهم كانت بحضور المؤتمر. وطبعًا لا ننسى احتمال لقاء العريس. وصلت إلى المدرج الضخم، بينما كانت الخَطَّابات تتتالى، وكانت القاعة ممتلئة عن آخرها وأنوارها خافتة. مرَّرت نظري على صفوف الجالسين من الرجال الكبار الملتحين، ورأيتهم وهم يُمَسِّدون لحاهم باستغراق ويستمعون إلى المُحاضر الذي كان يجلس على المنصة مع زملائه الآخرين. نظرت ثانية وسعدت برؤية نساء عدة على المنصة أيضًا. كان الرجال يشغلون الصفوف الخمسين الأولى، وفي مؤخرة الجهة اليمنى كانت هناك عشرة صفوف خُصصت لحفنة من النساء اللواتي قررن الحضور. خاب أملي لهذا التواجد النسائي الهزيل.

كانت مقاعد كثيرة شاغرة، وبعد بضع دقائق من البحث من دون جدوى عن شخص أعرفه بين الحاضرين قررت أن أجلس أولًا ثم أبحث خلال الاستراحة. جلست في آخر الصف قرب بعض الخالات اللواتي لم أكن أعرفهن، وبدأت أنظر حولي. دسست بعض خصلات شعري العنيدة التي كانت تصر على الانفلات من تحت الحجاب. وبعد بضع دقائق شاهدت زميلًا لي يُدعى عبد الله، كنت قد عملت معه في أحد المشاريع الخيرية مؤخرًا، وكانت لدينا بعض الأعمال التابعة للمشروع. فاقتربت بهدوء من مكان جلوسه الذي كان قريبًا من مقعدي.

السبت ٢١ مايو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر

رأيته يجلس قرب عبد الله. شاب أسود الشعر كثيفُه، بلحية صغيرة مشذبة. كان يرتدي بذلة غامقة. وحتى من هذه المسافة البعيدة استطعت رؤية غمازة محببة على خده الأيمن. شعرت أنني أعرفه، لكنني كنت متأكدة أننا لم نتقابل من قبل. حدقت فيه وراقبته وهو يهمس بجدية في أذن عبد الله، وبينما كان يتكلم مرر أصابعه في شعره باستغراق. بدا وجهه ذكيًا ودافئًا، بشخصية طاغية. سُحرت. تمنيت أن تسنح لي فرصة التحدث مع هذا الغريب الغامض من دون أن أدرك الأثر الهائل الذي ستتركه هذه الخطوات على حياتي. لحسن الحظ عندما وصلت كان لا يزال جالسًا هناك. حييت الاثنين بابتسامة خجلى. سحب الغريب الطويل الأسمر الوسيم كرسيًا لي كي أجلس.

وبصورة شبه تدريجية انسحب عبد الله، ولا أعرف حتى الآن إن كان قد فعل ذلك عامدًا أو بالصدفة. هو يدعي أنه لطالما أحس بالتناسب الذي بيننا، وأنه كان من المقدر لدَرْبينا أن يتلاقيا في ذلك اليوم، وأنه قد رتب لقاءنا عامدًا وكان مستعدًّا لتقديم رسالة توصية ناصعة لصالح صديقه.

سألته من أين يعرف عبد الله، فأجاب: «إنه صديق للعائلة، ماذا عنك؟».

«لقد عملنا معًا على مشروع وكنت قادمة لأتكلم معه عن بعض الأمور المهمة، لكن...» نظرت حولي لأؤكد له أن عبد الله قد تركنا، «... يبدو أنه اختفى».

توقفنا عن الكلام بحرج، من دون أن نعرف ماذا نقول. كان وسيمًا جدًّا لكنه لم يكن يدرك مقدار سحره. كنت أفكر بسرعة في بعض المواضيع المناسبة للنقاش، كي أجذب انتباهه وأمنعه من الذهاب، لكن لحسن الحظ تابع هو الكلام.

سألني بحياد: «هل حضرت هذا المؤتمر في السنوات السابقة؟».

أجبته: «كلا، هذه هي المرة الأولى»، ثم أضفت وأنا أعرف أنه أحد منظمي المؤتمر: «إنه مؤتمر مهم».

مرَّ رجل قربنا ورآه فتوقف وصافحه، ثم عانقه بود. عاد إلى الجلوس ومتابعة حديثه معي، إلا أن رجلًا ثانيًا وصل فعانقه أيضًا. يبدو أنه محترم جدًّا ومحبوب.

التفت ليواجهني وقال: «معذرة، يحدث هذا معي كثيرًا. ولا أريد أن أكون فظًّا معهم».

«لا بأس»، ابتسمت له، «أعلم أنني أقاطع حدثًا مهمًّا بالنسبة إليك. يمكنني أن أتركك تتابع عملك».

كدت أضرب نفسي لهذا الاقتراح؛ فأنا لم أكن أريد أن أتركه لعمله، وما كان عليَّ أن أقترح هذا. يا لبلاهتي!

لحسن الحظ أنه لم يأخذ اقتراحي بجدية، وقال: «لا، لا، لا بأس، يستطيعون تدبر أمرهم من دوني!».

بينما كنا نجلس في آخر القاعة نتجاذب أطراف الحديث، تمنيت ألا يطلبه أحد لأداء مهمة أو للتكلم إلى أحد. بكل جوارحي كنت أريده أن يبقى كي أتحدث إليه أكثر. ماذا لو تركني؟ ماذا لو اعتذر بلباقة وغادر، مُنهيًا الحديث بسرعة وبرودة؟ هو يقول الآن إنه كان قلقًا أن أنهض وأبتعد أنا، وبأنه لا يصدق حتى الآن أنني بقيت لأتحدث معه طيلة بعد الظهر في ذلك اليوم، على الرغم من امتلاء القاعة بأكثر من ألف شخص. اعترف كلانا للآخر لاحقًا أنه خلال حديثنا الأول نسينا وجود الآخرين تمامًا. وبينما كنا نتحدث كانت هناك سعادة بريئة بالتعرف على إنسان آخر. كان يعمل في مجال بعيد عن قائمة الأعمال الآسيوية التقليدية، الأمر الذي أثار اهتمامي. كان يكرس كثيرًا من وقته للأعمال الخيرية. وإذ لم يكن تقليديًّا، وكان معقدًا ومتعدد الوجوه، مع غلاف خارجي لبق ودافئ، شعرت بالأمل بأن القدر قد خبأ لي بعض الأشخاص لأختار منهم من يعجبني ويملؤني بالتفاؤل والأمل. لكنني لم أجرؤ على التفكير في أنه ربما يكون هو الزوج المنتظر.

لم نتبادل إلا الأسماء أثناء الحديث، وبعد أيام قليلة بحثت عن اسمه في «جوجل» بتوتر من دون أن أعرف ماذا أتوقع. أظهر الإنترنت صفحته الشخصية ومن ضمنها بريده الإلكتروني، فقررت أن أرسل له ملاحظة. وعلى الرغم من الحديث الودي المناسب الذي جرى في لقائنا الأول، إلا أنني لم أكن واثقة من رأيه فيَّ، لذا جعلت رسالتي الإلكترونية قصيرة ومرحة.

> بعد حديثنا، أصبح لديَّ فضول أن أعرف إن كنتَ حقًّا من تدعي ولستَ جاسوسًا. وهذا ما وجدته. هل هذا أنت؟

بعد بضع دقائق ظهر الرد على شاشتي.

> نعم، إنه أنا. ويا للأسف فأنا لست «جيمس بوند»، إنني مجرد رجل عادي يزاول عملًا عاديًّا. أنا واثق أن عملي ليس ممتعًا كعملك.

ملاحظة: قد أكون جاسوسًا لكنني لا أستطيع أن أكشف هذه المعلومة لك.

ابتسمت. إن الأمر مسلٍّ. استمرينا في تبادل بعض الإيميلات القصيرة ذلك النهار، وظلت نبرته دافئة، لكن محايدة. الآن يعترف بأنه أمضى الأيام التي تلت اللقاء وهو في حالة من التوتر والقلق بألا يراني ثانيةً. ومن خلال الإيميلات والمكالمات التلفونية بدأت أدرك أننا نتشارك القيم والمثل نفسها، وأن كلينا نسير في الطريق نفسه. ما الذي يمنع أن نمشي ما تبقى من طريقنا معًا، يدًا بيد، واحدنا يدعم الآخر؟ وفي كل هذا كانت ابتسامته تجعل قلبي يخفق بشدة، وكنت أتوق لإمضاء المزيد والمزيد من الوقت معه. أرسل إليَّ في أحد الأيام باقة زهور ضخمة إلى المكتب. كانت الزهور مذهلة، حبست أنفاسي حين استلمتها عند مكتب الاستقبال. وعلى الرغم من فرحي عند استلامها إلا أنني شعرت بالتوتر. ترى هل لشعوره تجاهي القوة نفسها كشعوري تجاهه؟ فجأة أدركت في أعماقي أن هذه الحكاية ستستمر. كان فيه من دون شك شيء مميز، لكن السبب الذي سيجعل هذا الأمر يدوم هو أننا أظهرنا التزامنا نحن الاثنين بإنجاح العلاقة. لقد كان هو الشخص المناسب، لأنني جعلته الشخص المناسب. وهو يقول بأنه أحس بالشعور نفسه.

فرح والداي للابتسامة التي كانت تظهر على شفتي في كل مرة يُذكر فيها اسمه. كانا متأكدين أنها تعلن بداية فصل جديد من حياتي. وهو أيضًا لم يكن يستطيع إخفاء ابتسامته في كل مرة يسمع فيها اسمي أو يرى رسالة مني تتقافز على شاشته.

وطبعًا تابعت العائلة تحقيقاتها وتحرياتها المعتادة عنه، أسوة بمن سبقه من عرسان. دعاه والداي إلى لقاء رسمي في بيتنا، وتواصلا مع مصادرهما حتى وجدا بعض الأشخاص الموثوقين الذين قدموا معلومات وإشادات

مهمة عنه. ومهما كانت بداية العلاقة فإن عملية التقييم والتقصي كانت من الخطوات الضرورية لتحقيق الأمن والاستقرار في الزواج. لقد أجريت عليه عملية فحص موسعة ونجح في اجتياز كل الامتحانات.

أدركت أننا نستطيع أن نصبح رفيقين وشريكين، كل منا غطاء للآخر، كما وصف القرآن المتزوجين: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧). إن إمكانية الحصول على شريك حياة أصبحت فجأة حقيقة. شعرت أنه يستطيع أن يحتويني ويحميني وأنا أحتويه وأحميه. معًا نشكل تلك الدائرة، دائرة الذكر والأنثى، الين واليانج. في تلك الدائرة هناك توازن بين المذكر والمؤنث، الأسود والأبيض، المرسل والمتلقي، الأرض والسماء. الدائرة هي الكل وقيمتها وأثرها يزهران عندما يتداخل الذكر والأنثى. لم يخلق النصفان على شكل خطوط تمر من مركز الدائرة، بل انصهر كل نصف في النصف الآخر في اكتساح رشيق غير نهائي. والأجمل والأكثر تعقيدًا هو أن كل نصف فيه جزء من النصف الآخر. الجزء الأنثوي يحمل دائرة معاكسة من الذكورة في قلبه، والجزء الذكوري يتغير بوجود جوهرة لامعة من الأنوثة في جوهره.

عندما طلب يدي للزواج، رسمت قلبًا صغيرًا بريئًا على ورقة وتخيلت زفافنا القريب. وفي كل مرة كنت أخربش فيها قلبًا بين اسمينا كنت أبتسم.

عندما أمسك الحب بالقلم ليخط مستقبلنا فإنه رسم بالحبر السميك صورة شريك ورفيق وعاشق يكملني وأنا أكمله بالمقابل. ثم رسم تلك القطرة الأخيرة التي ستذكرنا دائمًا بارتباطنا، فحيثما التفتُّ سأجده، حبًّا رومانسيًّا، إلهيًّا، خالصًا.

نهاية أم بداية

أقف أمام مرآتي هذا الصباح، أستعد لليوم العظيم. لقد وقفت في هذا المكان كثيرًا من قبل، أيام كان الخطَّاب يأتون لزيارة منزلنا. وكنت أنظر إلى نفسي في المرآة بتوتر وقلق، وأتساءل عما إذا كان العريس هذه المرة هو العريس فعلًا. اليوم لا أشعر بتوتر ولا خوف. فأنا أعرف أن وقت البداية قد حان.

الحب هو دائمًا بداية القصة. ومهما كانت درجة التعقيد في حياتنا قبل الحب، فإن الحب قادر على تحويلها من الأسود إلى الأبيض، إلى لون أخاذ جميل يحبس الأنفاس. هذا لا يعني إطلاقًا أن الحياة من دون حب لا معنى لها، فالحياة بكل تفصيلاتها هي الحب. كل الرجال والنساء قد وُجدوا لأننا الحب ولأننا نملك الحب في حياتنا. عندما نعرف الحب بقلب شجاع ومنفتح وصادق، وعندما ندعو الحب لدخول حياتنا من دون شروط، عندها فقط تبدأ الحكاية.

أنا لا ألبس الوردي أو الليلكي أو الأزرق أو الأخضر اليوم. فأنا لست متوترة بشأن ما ألبس. هذه اللحظة في حد ذاتها لا تقدَّر بالوقت، فقد حلمت بها منذ زمن بعيد. فتحت عيني وحدقت في المرآة. إن دقات قلبي هادئة، وأنا أرى في المرآة فتاة نضجت لتصبح امرأة تحمل الكثير من الأحلام والآمال،

والكثير من الأفكار والتحديات، امرأة مستعدة لاحتضان الدين والحياة والحب.

ثوبي من الحرير العاجي، كما حلمت دائمًا، وقد صممه لي مصممي الخاص. قُص وفُصِّل وخيط وطُرز باليد. وكان يناسبني تمامًا. وعلى الخصر كان القماش الفاخر مرصعًا بمئات الكريستالات البراقة التي تنتهي بتنورة من الحرير والأورجانزا الرائعين والتي طرزت هي أيضًا بالخرزات المتلألئة. وضعت على رأسي طرحة متناسبة مع وشاح عاجي طويل من الأورجانزا المطرزة بالكريستال تتناسب مع الثوب، ثبتت على شعري وانسابت بسحر على كتفي.

حافظت على تقاليد الزفاف التي يزيد عمرها على آلاف السنين، فزينت يديَّ وقدميَّ بنقوش الحناء. أمضت رسَّامة الحناء خمس ساعات وهي تنقش خطوطها الفنية على جلدي تلك الليلة، واليوم أصبح اللون أغمق وتحول إلى تحفة فنية فريدة ستدوم يومًا واحدًا فقط.

كان اليوم جميلًا للبداية. السماء زرقاء صافية، والشمس مشرقة، وهو ما يحدث عادة عند تغير الفصول. المزاج في البيت مرتاح ومرح، وأنا أشعر بالفرح والرضا. لقد وجدت نفسي أخيرًا، وعندما نظرت في المرآة كانت المرأة التي تنظر إليَّ بعيون صافية هي أنا، حاضرة بنفسي. على الفطور، شربت آخر فنجان قهوة لي مع والديَّ في بيتهما كابنة أُترعت بالحب الأبوي. بعد ساعات قليلة سأصبح زوجة، لكنني سأظل ابنتهما المحبة إلى الأبد.

وصلت خالاتي وبدأن هن وأمي وزوجة أخي في الاهتمام بي وإبداء الإعجاب بثوبي وإطراء منظري الجميل. كانت هناك وليمة من الاندفاع الأنثوي، روت فيه كل واحدة منهن قصة زفافها. أطلقت العنان لنفسي للاستمتاع بتلك اللحظة.

تجمّع والداي حولي. هذه هي لحظة الحب الخالص، اللحظة التي تتحلق فيها عائلتي حولي لتحميني تحت جناحها. تلونا صلاة قصيرة معًا، صلاة خاصة لمباركة العروس عند مغادرتها بيت أهلها. فرت الدموع من عيني وأنا أدرك أنني على عتبة تغيير عظيم في حياتي. نظرت إلى أبي الذي لطالما آمن بأنني أستطيع أن أكون ما أريد، وإلى أمي، قلبي، التي كانت كل شيء في حياتي، والتي كانت مثالًا للصبر والأمل والإيمان.

قبلني والداي وسارا أمامي إلى حفل الزفاف استعدادًا لاستقبال الضيوف. ابتسمت زوجة أخي وهي تلف طرحتي البيضاء الطويلة وتثبتها مكانها.

أمسكت بيدي لتساعدني في الوصول إلى سيارة الزفاف. عندما خرجنا من البيت، كانت الشمس مشرقة وأنا أبتسم ولا أستطيع أن أتوقف عن الابتسام.

مشت أمامي وفتحت الباب.

«إن عربتك في انتظارك يا مولاتي». قالت وهي تغمز بعينها بشقاوة.

استدرت لأنظر إلى البيت، بيتي. شعرت بفيض من العاطفة، لكن ليس بالحزن، فأنا لا أترك البيت ورائي. إنه لا يزال جزءًا مني وسيبقى هكذا دائمًا. إنني لا أنتقل إلى حياة جديدة، بل أوسع العالم الذي أعيش فيه. استفزتني زوجة أخي قائلة: «هيا بنا، لقد انتظرنا هذا اليوم طويلًا!».

خطوت داخل السيارة، الرحلة توشك أن تبدأ. تلفظت بالكلمات التي أقولها عند كل بداية جديدة: «بسم الله الرحمن الرحيم».

إنها رحلة يقوم بها كل إنسان، الانتقال من كونه واحدًا إلى أن يكون جزءًا من اثنين. إن التجربة الموعودة تعني السكينة والرضا والحب. تُرى هل سأجد

هذه الأشياء؟ إن رحلة البحث عن هذه الأشياء في حد ذاتها كانت مجزية، وربما تكون هي الجائزة نفسها.

استدرت لأغلق باب السيارة ونظرت ثانيةً إلى بيتي ثم إلى الأمام، إلى الطريق الذي ينتظرني.

شكر وتقدير

من المستحيل أن أكتب لائحة شكري وتقديري من دون أن أذكره، هو. وأنا أفعل هذا لأنه أصر على أن يكون الأول في اللائحة، وأنا أشكره لصبره خلال فترة إبداعي المجنون. كل من يعرفه يعرف مقدار صبره وحنانه ولطفه العظيم ونبله. هو أيضًا ذكي ووسيم وطريف جدًّا وحساس، ذو رؤية رائعة وقلب كبير. ومن بين فضائله العديدة التي ساعدني الحظ على الاستفادة منها قُدرته على الإبداع والإلهام والتشجيع، وعلى أن يكون رائعًا ببساطة. وشكرًا طبعًا لظهوره في حياتي التي لولاها لما ظهر هذا الكتاب. شكرًا لك، ميثو. كان الأمر جديرًا بالانتظار.

والداي أيضًا ألهماني، فمن خلال حبهما غير المشروط، وإيمانهما ودعائهما استطعت أن أشق طريقي في الحياة، وبوقوفهما إلى جانبي لم يكن هناك مستحيل. ولا تزال ثقتهما تدفعني إلى الأمام من خلال إيمانهما بأنه من الممكن جعل العالم مكانًا أفضل للعيش، ومن الممكن إتراعه بالحب. إنهما أفضل وأروع والِدين يمكن للمرء أن يحصل عليهما. أمي وأبي أرجو أن يبارككما الله إلى أبد الآبدين.

هو وهي اللذان رفضا ذكر اسميهما، لكنني أعرف من أنتما وأشكركما لدعمكما، وأيضًا لاستغرابكما من بعض أفكاري المجنونة. لقد قدمتما إليَّ كل

المساعدة المطلوبة في الحياة وكذلك في الكتابة. إن مجرد معرفة أنكما جاهزان لمساعدتي عندما أحتاجكما هي نعمة كبيرة أنا مُمتنة لها. قد لا تعرفان ذلك، لكنني تعلمت الكثير منكما، ما جعلني شخصًا أفضل.

إلى جدي وأعمامي وأخوالي وعماتي وخالاتي وأنسبائي. شكرًا لوجودكم في حياتي ولمحبتي ودعمي في عملي. تأثيركم في حياتي كبير.

هناك عدد من الأشخاص ما كان الكتاب ليصدر بشكله الحالي لولاهم: إنهم الخالات الكبيرات والعرسان. لقد كانوا شخصيات لا تصدق، شخصيات حقيقية وإنسانية. وقد اكتشفت متأخرة كم هم محبوبون ومحبطون في الوقت نفسه، إن الحكمة التي استقيتها منهم بطرق ظاهرة وخفية لا تعوض، ولهذا السبب أنا أشكرهم جميعًا. الإمام الذي ذكرته أيضًا كان له حضور قوي في حياتي، وعلى الرغم من أنه غادر هذا العالم إلا أنني أطلب لروحه الرحمة، لعطفه وعلمه ورؤيته.

مكتبة الرمحي أحمد

إلى كل الفتيات اللواتي تشاركن الدموع والضحكات خلال رحلاتهن المحفوفة بالمخاطر: شكرًا لجعلي أدرك أنني لست وحيدة في بحثي. تذكَّرن دائمًا أنكن وغيركن ممن يخضن هذه الرحلة لستن وحيدات.

إلى الآخرين الذين رافقوني وأمسكوا بيدي، لا أستطيع أن أنساكم: «مليكة شاندو»، «شاهين بيلجرامي»، «معصومة خوي»، «تيم لويد»، «جاري إيليس»، «ريمون آلي»، «بيتر هوبس»، «جيليان كارجيل»، «مكول ديفيشاند»، «إميلي بوكانان»، وعرفان أكرم.

أحمد فيرسي، يستحق ذكرًا خاصًا لطلبه من مبتدِئة غرة مثلي الكتابة في جريدته «مسلم نيوز»، ولموافقته بجنون على تخصيص عمود دائم لي فيها. لقد قرصتني حشرة الكتابة منذ ذلك الحين، فأنشأت مدونتي الخاصة، وحصلت

على عدد من الجوائز، وها أنا اليوم أؤلف كتابًا. كل الشكر لقرائي، كل واحد منكم يُحدث فرقًا في عملي وأنا أقدر دعمكم وآراءكم. لا يمكن أن أنسى لقمان علي، لوضوحه وبلاغته وإلهامه المبدع، وببساطة لاستيعابه كل شيء. عبد العزيز، أنتَ أيضًا عليك بعض اللوم، نعلم ما فعلت ونشكرك من كل قلبنا على ذلك.

أخيرًا وعندما نصل إلى الكتاب، هناك بعض الأشخاص الذين يستأهلون الشكر، لإحساسهم بإمكانية انبثاق شيء من ذلك النموذج الكتابي الأولي لكاتبة مبتدئة، ولإيمانهم بأن هذا النموذج سيتحول ليصبح قطعة أدبية جميلة. «دان نان»، أنت كنت أول المبادرين وأنا آسفة أننا لم نستطع أن ننفذ المشروع معًا. «دايان بانكس» وكيلتي المتفائلة الموهوبة الشجاعة، عندما أخبرتِني أنك تسمرت أمام الشاشة عند قراءة قصتي أردتُ أن أحضنك. أحب إصرارك وتماسكك، وعلى الرغم من كونك وكيلة أعمال إلا أنك مملوءة بالإنسانية، أشكرك لإيمانك بي. إلى «كارن» محررتي الصبورة، شكرًا لرؤيتك مستقبل الكتاب، ويا له من طريق طويل سرناه معًا، وأهنئك خصوصًا على عدم خنقي عند «مشاداتنا الإبداعية». ولحسن الحظ فقد ساعدتنا شبكة الإنترنت والرحلات عبر مدينة لندن على إتمام العمل. مكتبة الرمحي أحمد

ومن المستحيل أن أنسى الرائعتين، الذكيتين، الجميلتين: نهلة الجيوشي، و«إيلين هيفر». لولاكما لما ظهر الكتاب إلى العالم بهذه الثقة والإثارة. لقد آمنتما بي ودعمتماني وضحكتما معي خلال هذه المسيرة، وجعلتماني أدرك أنني إنسان محظوظ بالعثور على مثل هاتين الصديقتين المقربتين المخلصتين.

لكم جميعًا ولكل من أدخل الفرح إلى رحلة حياتي وكتابتي، شكرًا.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

قناتنا على تيليجرام @ktabpdf

«كتاب ممتع ومهم للغاية للمسلمين ولكل من يريد أن يعرف المزيد ولكن لم تأته الجرأة» **إمل، مجلة الحياة العصرية للمسلم**

«كتابها الأول المليء بالفكاهة يعرض رحلتها خلال عشر سنوات لتجد «الشخص المناسب» على الطريقة الإسلامية» **الدايلي ميل**

شيلينا – الفتاة البريطانية المحجبة – تحتفظ بسر مدهش للغاية؛ إنها تريد أن تحب وتتزوج وأن تقوي إيمانها في الوقت نفسه. ولذلك فإنها تقرر أن تتبع أسلوب الزواج المرتب لتجد «العريس المناسب» على الطريقة الإسلامية. ولكن من خلال هذه المغامرة تكتشف أيضًا ذاتها وعقيدتها.

[redacted] تجربة ممتعة وجديدة وعميقة لما يعنيه أن تكون الفتاة شابة مسلمة بريطانية.

شيلينا زهرة جان محمد واحدة من أهم الكاتبات البريطانيات المسلمات. تكتب عمودًا صحفيًا لمجلة «إمل» ومجلة «المسلم نيوز». كما تساهم في جريدة «الجارديان» والـ«بي بي سي» والقناة الرابعة بالمملكة المتحدة. تعيش شيلينا في لندن وهذا هو كتابها الأول.

مكتبة الرمحي أحمد الكتاب ٤٧

www.bqfp.com.qa

ISBN 978-99921-42-48-8

90100

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING